Version 6.66

# بيدوفيليا

رواية

# بيدوفيليا Version 6.66

عبد الرزاق طواهرية

# ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية
اسم العمل: بيدوفيليا version 6.66
اسم المؤلف: عبدالرزاق طواهرية
تصميم الغلاف: عبدالرزاق طواهرية
تنسيق وإخراج: عبدالرزاق طواهرية
تدقيق لغوي: عبد الحق خليفي
رقم الإيداع: ٢٠١٩/ ١٤٤٠ السداسي الثاني
الترقيم الدولي (ISBN) :٩٧٨-٩٩٤٧-٧٩-٤٣٢-٦

الناشر: دار ببلومانيا للنشر والتوزيع
المدير العام: جمال سليمان
هاتف / فاكس 06 75 49 73 86 - 033 85 65 75
صفحة الدار على موقع
فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
الموقع الإلكتروني:
www.bbibliomania.com

الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م



جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

# إهداء

إلى والديَّ العزيزين "خالد" و"نجمة".. إخوتي وأخواتي.. حليم، هدى، نهاد، رانيا.. "قمر" بتونس.. و"نوال" بكندا. الأعزاء "حسين"..."علي"..."سيف"..."عبدالرزاق".. "نذير"..."دارين". أصدقائي الذين ساهموا في إنجاح هذا العمل "مشري محمد ناجي".. "عبيدات محمد أنيس".. "محمد زاوي".. "ليندة بن عباس" و"شوقي مسعودي".. "وسام بولحوانت".. "عبد الحق خليفي".

أعزَّائي من الأسرة الإعلاميّة: "أحمد راشدي".. "رؤوف زرارة".. أسرة الدّار: "سميرة" و"سليمة".

# تنويه

حَملَت الرّواية مَعلوماتٍ نقيّة، سُحِبَتْ خُلاصَتُهَا من مواقعَ الكترونية تَنشطُ عَبرَ الشبكة المـُكفهَرة، أزاحتْ السّتار عن مُمارسَات مـُحرَّمة سُلِّطَتْ على أطفَالٍ أعمَارهُم دُون سن البلوغ، مُمارسات تَجاوزت كَلَّ اللّوائح والقَوانين والمعتَقدات، بهَتكهَا أعرَاض الرُضّع الذين لم يعُوا بَعد الغاية من الحيَاة قبلَ الخوضِ في الموت. تَمخَّضَت عن فُصول الرّواية مَشاهَد تَعذيبيّة كانَ لابُدَّ من وَضعِهَا، تَرجَمتهَا نُصوصٌ دينيّة لطَوائفَ شيطانيّة جَعلت من اغتصَابَ الطُفولة عُنوانهَا؛ لذَا أتبرّأ من أيّ عَارضٍ قد يُصيبُ قُلوبكم، أو قد يثيرُ نُفوسَكم بعدَ غوصِكمُ في صُلبِ الأحدَاث التي أباحتْ مَا لا يَنبغِي أن يُبَاح.

*عبد الرزاق طواهرية*

عزيزي القارئ.. لطالمَا اعتدتَ البحثَ عن الغَامضِ والمجهُول، واستندتَ في ذلِكَ على الشّغَف والفضُول، كُنتَ تُدركُ أنَّ طَرقَ أبوَابِ الشّيطَان سَتَروي يومًا عَطشَكَ، وبالمـُقَابل ستَأسِرُ عَقلَك وتُؤذي نَفسَكْ؛ ولكِنكَ رَضَختْ.. إنْ كُنتَ حَقًا تتَّبعُ الأسبَاب فلا تَلمنِي إن اقتَدتُكَ من مَجلسِكَ هذَا نَحو قبو الشرّ والعذاب!.. لا تَكرهنِي إن جَعلتُكَ تَحتسي جَالوناتٍ من القهوة بدَلَ بضعةِ أكوَاب؛ فمَا يَنتَظِرُكَ في هذَا الكِتَاب لَنْ يُريحَكَ من نَصَبِ يَومِكَ ولن يَأخُذَ الكَثيرَ من وَقتِك؛ فجَلسة يَتيمةٌ مِنَ القرَاءة والتَّمَعّنِ ستُمطِرُكَ بحقَائِق تُغنِيكَ عَن التَّكَهُّنِ، وتَقُودُكَ من حَيّز الرَّاحة والسّكُون إلى نُقطَة البَحثِ عَن الغَامِضِ وعن المـَجهُول.

لطالَمَا اصطَدمنَا بجَرائمَ عَفويّة دوّنتهَا الجرائِدُ واحتوتهَا الصُحُف، فشَغلَت بَالنَا وأثَارتْ خيَالنَا استِقصاءً لمـَا حَصل، ولكِنَّنَا تَجاهلنَا المـُنظّمةِ منهَا التي دَعمَتهَا خزائن رقميّة وتَبنّتهَا عصابَات مخفيّة، ولعلَّ أخطرهَا تلكَ التي استغلّت أنظِمة الحَجب الإلكترونيّة للتّملُّصِ من العدَالة واستغلالِ الأطفالِ تحتَ مُصطَلحِ الغِلمَانيّة؛ فأمسَى الرّاشدُونَ جلّادينَ وأضحَى الصِّبيّة مُعذَّبين.

أيهَا القَارئ.. بينمَا تَعيشُ اللَّحظَة من حَيَاتك تَتَصفَّحُ مُقدّمةَ الكتاب، يحيَا خَلفَكَ عالمٌ أسودٌ يَحميه «The Dark Web»... عالمٌ أزمَعَ رُوَّادُه على نَشر المـُحرَّم وإبَاحة المـَمنُوع، والتّلذُذِ بالأطفالِ

على ضوءِ الشمُوع، ذُكورًا كَانوا أم إناثًا، أترابًا دون سنّ البُلوغ.. لَقد أمَروا بإخضَاع الرُّضع لجلسَات الفُجُور، ومَن ماتَ مِنهُم رُمي بجُثتِهِ في أرضِ جردَاء، بَراءةٌ اغتُصِبتَ باسمِ الشيطَان "حَاملِ النُّور"؛ لتَنقلِبَ إلى مِهنَة أبديّةٍ ارتوَتْ جذُورهَا بالجنْس والغرُور، وانتَهى أبطالُهَا كقرابِينَ أهلَكتهُم نيرَانُ الشُرور.

فصُول الرّواية الأُولى ستُشخصُ أبصَارَكُم، تَشدُّ عَضلاَتِكُم ولَن تُرخِي أعصَابكُم.. مًنتَصفُ الكِتَاب سيَرفَعُ حَرارة أجسَادِكُم، ويَزيدُ من تَدفُقِ الأفكَار إلى خَيالِكُم.. نهَايةُ الحكَاية سَتَظهَرُ كَبِدَاية، تُنغِّصُ أنفَاسَكُم، تَسحَبُ دُمُوعكُم بَعدَ أن تُدركُوا الغَاية.

بيدوفيليا إصدار ٦,٦٦... غلمانيّة في حضرة "إبليس"!

*عبدالرزاق طواهرية الأحد ٢٠١٩/٠٥/٢٦ -١١:٣٨*

## الفَصل الأوَّل: تَحت رَحمة التَّنويم المغنَاطِيسِي!

### إلينوي،"نابرفيل".. الاثنين ٠٦ حزيران ٢٠١٦

ارتَميتُ على طَرَفِ سَريرهَا كَصبيّ مُدَلَّلٍ غَازَلَهُ الوَسن مُتَحدّيًا شُعُورَ الكرَى حتَّى أُؤنِسَ أسفَلَ سَاقيْهَا اللَّتَين طُردَتَا من بَاطِنِ اللّحَاف، لَحظَةَ انشغَالِ عَقلِهَا بأضغاثٍ لا تكَاد تَنتَهي من الأحلَام، أسقَطتُ أنوَار بصري على انحناءِ ذقنِهَا فبدَا لي حَائرًا مُنكمِشًا على نَسيجِ اللّحَاف؛ مُستعينًا بقَبضتينِ حَاضِرتَين في عَالمِ الحَقّ سَارحتَين في خضمِّ الأوهَام.. دَنَوتُ من مَوضِع رأسهَا مُعَاينًا نُدُوبًا حُفِرَتْ كالوديَان، أبَاحهَا الدَّمعُ السَّاقِطُ من مُقلتيهَا آناءَ اللّيل وأطرَافَ النَّهار. استَشعَرَتْ أنفَاسِي الضَّاربة على شَفتيهَا؛ فارتعشَ جَفنَاهَا وأنذرَانِي بالانصرَافِ، فحملتُ فضُولي واستقَمتُ من مقَامي سَاحِبًا اللّحَافَ إلى آخر قَدمَيهَا، جَمَعتُهمَا سَويًا ثمَّ لَجَّمتُهمَا بِخُفٍّ كبطانةٍ من قُماشِ الكتَّان؛ ولكنّي لم أذهَبْ... بَل أقسَمتُ أن أوَاسيهَا حتَّى في رُؤاهَا، أحلامهَا وكَوابيسِهَا..

تلكَ الرّوحُ البريئة! لمْ آلَفْ هُدوءهَا ورصَانَتهَا في مثل هذا السِّن، كطْفلة صَغيرة هَجَرهَا والدُها في عُمر الزّهُور، وبعد الأحداَثِ الخانِقة التي طالت نَفسيتها مُؤخرًا لا يَسعني سوى الوقُوف احترامًا لفتاة تَفتَّحتْ زهورُ رَبيعها الثاني عشر مُبكرًا، مُزيحة السّتَار عن نضجٍ فِكريّ سبَّاق لأوانه، وحِكمة أصِيلة صَقلتها جُملة المآسي والأحزان بَعد أنْ كابَدتْ عَناءهمَا على امتدَاد عَامين كَاملين من عُمر الزّمان.

أعلَم مِقدار الذّنبِ الذي ارتكَبتهُ في هذه القَضية، مقتنعٌ بكوني السَّبب الأوّل في مُعاناة هذه الحَسنَاء البهيّة؛ ولكن هيهات!.. عليَّ تدارك ما فَعَلَتهُ يداي قبل تفاقُم الوَضع واحتدَام نيرَانهِ؛ فلثباتِ هذه البَريئة حُدود يمكن أن تُمحى في أية لحظة، ولصَبرها جدرانٌ مُشقَّقةٌ تنتظر نَسْنَسَة ريَاح الألم لتنهارَ وتَتهاوى إلى الأبد! حينها سيكون عليَّ خنقُ نفسي وإزهاقُ روحي كضريبة لما لحقهَا منّي.. المسكينة!

أطلَّ الفَجرُ بنصفِ عَينٍ فانجلَى السّكُون، وفَاضَتْ السَّماء بشدو الطَّيور، حَضَّرتُ كُوبًا من الحليب الدَّافئ وجَاورتُ مُحيطَهُ بقِطَعٍ من كَعكِ الكَرز، أسكَنتُهُم سَطحَ سينيّة، ووضَعتُهُم أمامَ صغيرتي تاركًا مِنخَاريهَا يستلذَّان الفطُور قَبلَ اللّسَان. لم يُجدِ الأمر في إيقاظهَا، فاستأنستُ بوسَادة وَاضِعًا مرفقيّ على قُطنِهَا، مُنكَمِشًا على نفسي في الزَّاوية مُراقبًا وجهها الملائكي محاولاً قراءة ما أباحَهُ شريطُ ذكرياتِهَا عن ماضيهَا الأسود في "كندا"؛ لأضُخَّ صورهُ الجميلة التي تقاسَمَتهَا مع أصدقائها في روح مُخيّلتي علّي أنجحُ ولو نسبيًا في إحياء تفاصيلهَا.

اخترتُ المكوث بمدينة "نابرفيل" في ولاية "إلينُوي" الأمريكيّة باعتبارها أكثرَ الأماكن أمنًا وسكينة في الولايات المتّحدة، وطمعًا منّي في حجبِ هذه الطّفلة عن أعين الغُرباء الذين باتوا يُحملقُون في تفاصيل جَسدهَا كلّمَا أزمعتُ على أخذها في نُزهة إلى حديقة "الألفيّة". واظبتُ على المشيّ خلفهَا حتَّى أستُرَ ما بَانَ أسفلَ خصرهَا وأعلى كَتِفَيهَا عن أعين الفضوليين، رغم أنَّ هذا لم يشفعْ لنهديهَا المنتصبيْن من أن يَزيغَا عن أعينَ المارة في الرصيف المُقابلْ، كنتُ على يقين أنَّ هذا التحوّلَ السريعَ الذي أصَابَ أعضاءهَا الجنسيّة في مثل هذا السّن المبكّر!يعودُ لتلكَ

النُّخبة الخطيرة من"الغِلمَانيّين[1]" المـُحتمينَ بِالدّرع الرقميّ للويب الخفيّ!

صباحٌ غائمٌ مُريبٌ قَلَبَ صيفَ "نابرفيل" إلى خَريف، جَعلني أُنهي الإفطار مع الصغيرة قبلَ أنْ أستلذَّ مَذاقهُ حتّى! رُغمَ أنَّ الشُرفة المـُطلّة على المدينة المـَرشُوقَة بناطحات السحاب تفتحُ الشهيّة للأكلِ وتبعثُ السّكينة في الأنفسُ. مُرغَمٌ أنَا على خَطفِ ساقيّ وأخذها إلى الطبيب النفسيّ قبل ميلاد عاصفةٍ مفاجئة تكبحُ سيرنا وتُأجّلُ مَوعدَ زيارة العيادة إلى إشعارٍ آخر.

كنتُ قد سَتَرتُهَا بملابس صيفيّة فضفاضَة تليقُ بحسناء مثلها، ولكنّها عزفَتْ عنهَا وحرصتْ على ارتداء تنُّورة حمراء قصيرة تُبرز بياضَ فَخذَيْها. لا ألومها على اختيارهَا بلْ ألوم نفسي وأولئِك الجرذان الذين دنّسُوا تفكيرهَا وقَلَبوا براءَتها إلى سذاجةٍ، على الطبيب "مالكوم" علاجُها وإلاَّ قتلتهُ بيدِي هذه! (رافعًا قبضتي الشمال إلى السّماء مُحدّثًا نفسي كالمجنون، في حين اكتفت الصّغيرة بالنّظر إليّ بتَحَيُّر).

[1] مجموعة من الأفراد البالغين المنحرفين الذين يحملون ميولاً جنسيّة ضدّ الأطفال.

انطلقنَا صوبَ الجهة الجنوبية من ولاية "إلينوي" حتَّى بلغنَا ممرَّات ضيّقة بين البنايات الشاهقة والتي منعتْ مرور سيّارتي «Chevrolet Blazer» رباعيّة الدّفع؛ لذا قمتُ بركنهَا في مكانٍ قريب ثمَّ ترجّلتُ منهَا ماسكًا بيد الطفلة لأشعرهَا بنوعٍ من الأمان الذي باتتْ تفتقدهُ، مُستغلًّا طولَ الطّريق إلى العيادة لأُبلغهَا عمَّا سنفعلهُ هُناك.

أخبرتُها أنَّ الطبيبَ "مالكوم" شخصٌ طيّبٌ وأبٌ حنون، أزهَرَتْ من صُلبِهِ طِفلةٌ جميلة في مثل سنّها ستَغدو صَديقة لهَا، تدرّجتُ في حَديثي معهَا حتَّى أمتَصَّ الاضطرَابَ الظَّاهرَ على مَلامِحهَا، تمامًا كَما أوصاني "مالكوم". فكَبَحْتُ خُطَاي أمام متجرٍ للألعَاب، جَثوتُ على رُكبتيَّ ضَاغطًا على خَدَّها الأيمن برفقٍ وبَشَّرتُهَا بأني سَأشتري لها دُمية "الفينيل" الجمِيلة قَبل إيَابنَا إلى المنزل.. احتضَنتهَا بتعَاظُمٍ أسالَ مَاء عَينيهَا المَالح، لتَرضَخَ أخيرًا لأحاسِيسِها الدَّفينَة وتَضُمني إلى صَدرهَا لأوّل مَرَّة منذُ عَودتي معهَا من ذاك الجحِيم، ثمَّ استرسَلتْ تَقُول:

((أُحبّك أيها الغَريب! أُحبّك رُغم وجهكَ القَبيح وأنفاسكَ الكَريهة.. لا أريدُ شخصًا غيركَ في حياتِي)).

لا أُخفي تأثّري بكلامِها وحُزني على حَالي وحالهَا، قَبَضتُ على خصلاتِ شعرهَا الأسودِ ومرّرتهَا بلُطفٍ على بَاطن كفّي ثم أجبتهَا قائلًا:

((أنا هنا لأحميكِ.. لأُجبرَ خاطرك وأسهر على التئام جِراحكِ.. لنْ أذهبَ بعدهَا.. سأظلُّ أعتني بك إلى أن يأخُذَ اللّه أمانتَه)).

ابتسمت لي وقالتْ:

((أنتَ تُذكّرني بالفلم الفرنسيّ "leon"[1].. حين اعتنى ذلك الكَهلُ الغَريب بالصغيرة "ماتيلدا".. وها أنا خَائفةٌ من فُقدانكَ مُبكرًا.. تمامًا كما حدثَ مع "ليون"!))

((يبدُو أنّكِ أحبَبتِ الفِلم.. رُغم عُزوفكِ عن الاعتِرافِ بذلك يَوم شَاهدنَاهُ سويًا من قَبل.. صَراحة! لا يُمكنني نُكران الشَّبه الكَبير الذي يَجمعنَا مَع هذا الثُنائيّ الرَّائع)).

أنهينَا حديثنَا القصيرَ مع مَشهَدِ بُكاءِ غَيم المطَر، ثم تابعنَا السير بثبات إلى عيادة الطبيب "مالكوم". وضعتُ يدي مجددًا على شعرهَا القصير المـبلَّل مُتحسسًا فروة رأسهَا الدَّافِئة.. كَانت كهرّة صَغيرة استكَانتْ لمالكهَا الجَديد، يَبدو أنّي قد أفلَحتُ أخيرًا في

[1] فلم "دراما" فرنسي، أنتج عام ١٩٩٤، من إخراج "لوك بيسون".

كَسبِ ثقتهَا، ومَا بقيَّ أمامِي سِوى تَرسيخُ فكرة رضُوخهَا لجلسَاتِ التَّنويم المغناطيسيّ مُستقبلًا.

بعدَ دقائق من السّير في تلك الممَرّاتِ الضيّقة أدركنَا غايتنَا بعدَ أنْ تَراءت لنَا من بعيدٍ لافتةٌ إلكترونيةٌ جُلُّ أضوَائها مُعطلّة، كُتِبَ عليهَا:

(عِيادة الدّكتُور "توم مالكوم" سَنُغيّرُ حَياتَكم!)

بَدتْ بِنَاية عَتيقَة تِلكَ التي تَحتَضِنُ العِيَادة، الأمرُ الذي لَم يَبعَث الرَّاحة في نفسِي؛ فضلًا عَن هذَا فَقد تَبيّن لي أنَّ الطَّبيب "مالكوم" الذي تَعرّفتُ عليه سلفًا يُعاني من ركودٍ كَبيرٍ في العَمل، فالكثير من الناس يخشون الرّضوخ لجلساتِ التنويم المغناطيسيّ التي يمارسهَا؛ خصوصًا وأنَّ "مالكوم" قد شوهد في عدّة مُناسبَات يغازلُ بَنات الهوى على حَواف الشوَارع، ما يُرجّحُ احتمَالية تحرّشهِ بمريضاته بعد رضوخهنَّ له تحت تأثير العلاج، ولعلَّ السّبب الأكثر شيوعًا هو اشتباههُ في المتاجرة بموادٍ ممنوعةٍ تُباعُ في السّوق السّوداء للويب المظلم، والتي تَدعمُهَا مواقع إلكترونيّة إجرامية وربحيّة كالموقع الشهير «Silkroad[1]».

[1] موقع لبيع الأسلحة والمخدرات، ينشط على شبكة الويب العميق.

رغمَ هذه الشَائعات لم يَغلق "مالكوم" عيَادته في وَجه مَرضاه، بل استَمر في استقبَال بعض الحَالات المُستعصية والتي أشرفَ على علاجهَا مجّانًا. "مالكوم" يعتبرُ علاج المرضَى عَملًا إنسانيًّا لا يَستحق أن يَقبض عليه أجرًا، كَونَهُ يَمتلك متجرَ ألعاب فيديو كَبير في النَّاحية الغربية من "شيكاغو" يُدِرُّ عليه أرباحًا وَفيرَة. ويعتبر التَّنويم المغناطيسيّ علمًا وفنًا قبل أن يكون تجارة بالنّفوس الآدميّة!

حَصَّلنَا المِصعد واتجهنا صوبَ الطابق الرابع مُستاءانِ من الصّرير الذي أطلَقَتهُ أسلاَكُه المُتَضرِّرَة، وما إن نَفذنَا إلى الدَّاخل حتَّى قَابلتنَا صَالة استقبالٍ خَاويةٍ تبعثُ الرَّاحة على الأفئِدَة!.. أثاثٌ عتيقٌ لا يَزال خشبهُ محافظًا على نَظارتِه وجمالِه.. أرَائِك حَمرَاءُ صَغيرة تَقترب بَوَاطِنُهَا من الأرضيّة، مَصفوفةٌ بعناية على حَواف سجَّادٍ مَغربيّ الطِّراز؛ وكَأنّي أَجُولُ في غرفة الملكِ "شهريار"، أين كان يستمتِع بحكَاياتِ زَوجته "شهرزاد" عَن الألف لَيلة ولَيلة.

أُعجبت صغيرتي بالمكان؛ فرَاحت تَرملُ إلى أحَد التّماثيل الحجريّة المُقابِلة، أخذتْ تَتفحَصه وتُعيد الكرّة. رَاودني الارتيَابُ في أمرها؛ فدنوتُ بضعَ خطوات خلفها ثم ضربتُها على يدهَا وشدَّدتُ اللّهجة عليهَا!وما لبثتُ أن سحبتُهَا من ذلك الموقع النَّجس،ثمَّ أخذتُ سُترتي وحَجبتُ عورة التّمثال اللّعين، فكما

توقعت؛ لقد كانتْ تمرّرُ يدها على الذّكَر البارز من مُجسّم الرجل ذو اللّحية العثَّة.

بينما ألومها على ما أقدمت عليه؛ سمعت صوتًا وقورًا يخاطبني قائلًا:

(("بان".. احذر أن تُسقِط تلك المنحُوتة! تُعتبر النّسخة المقلَّدة والمصَّغرة لـ"بوسيدون[1]".. التي مازالت تُحاكي الأصليّة من حيث الصّلابة والجمال)).

كان السيّد "مالكوم" صاحب ذلك الصّوت، يبدُو أن وزنهُ قد ازدادَ عن ذي قبل؛ فبطنه برزتْ كَقُبَّة، أما وجههُ المـُمتلئ دُهونًا فقد قَلَبَ عنقه إلى حوصلة الحمام. التفتتُ إليه فاتحًا ثغري على ابتسامة عريضة وصحتُ قائلًا:

((صديقي "البطريق"! اشتقتُ إليك)).

تعمّدتُ نعتهُ بالبطريق لقصر قامته ولمشيتهِ الطريفَة؛ ولكنه اعتادَ على الأمر فطبيعته الهادئة لن تزحزحَها ألقابٌ ولا تسميات.

عانقتهُ طويلًا ثم أشرت إلى صغيرتي بأصبعي قائلًا:

[1] يُعرفُ في الميثولوجيا الإغريقية على أنّه إله البحر.

((هذه "سوزان حَطَّاب" التي حدثتك عنها كثيرًا.. اقلبهَا طفلة بريئة كما عهدتها سلفًا.. المسكينة مازالت تعاني من أثر ما لحقهَا في ذلك المكان القذر!))

((هوّن عليك.. لست بساحرٍ لأعالجها بين يوم وليلة.. عليَّ امتحانها أوّلًا بتمرين اعتدنَا نحن نخبة الأطباء النفسانيّين ممارسته على مرضانَا للتّأكد من رضوخهم وتقبّلهم لجلسات التّنويم المغناطيسي بمَحْضِ إرادتهم.. ولكن قبل هذا اتبعنِي إلى مكتبي عليَّ الحَديث معكَ على انفراد)).

أشرتُ له بالموافقَة ثم استأذنتُ صغيرتي للحظاتٍ وحَرصتُ على أن لا تقترب من تلك المنحُوتة الحَجريّة.

كان مكتب الطبيب "مالكوم" واسعًا ومريحًا؛ ما جَعلني أستلقي على أحد الأرائك المجاورة مُنتظرًا ما سيفصِح عَنه، فيما استرسل يقول:

((تبدو أعضَاؤها الجنسيّة بارزة لطفلة في مثل سنّها!.. مُتحمسٌ جدًا لمعرفة سرّ هذه الصّغيرة.. وفي ذات الوقت مُتأسف عَلى ما أصابهَا)).

أجبته:

((لا عليكَ.. سنجتهدُ معًا للتّخفيف من مُعاناتهَا وعلاجها في أقرب وقت.. عليكَ أن تجعلهَا تلفِظُ كل معلومة أبت البوح عَنهَا؛ خُصوصًا ما يتعلّقُ بتلك المنظّمة.. وإنّ فشلت في الأمر سأقفُ شخصيًّا على إغلاق متجر ألعاب الفيديو الذي تُديرهُ ليلًا)).

ابتسم لي قائلًا:

((رغم كونكَ من النّوع الذي لا أحبّذُ اتخاذهُ صديقًا.. إلاَّ أنكَ قد نجحتَ في لَفت انتباهي بغموضكَ وذكائك.. أخبرْني: هَل أحضرتَ ملفّهَا من عند الطّبيب الشرعيّ؟))

((نعم.. ويظهرُ أنَّها تعرّضت لاغتصَاب دَوري طيلة عَام ونِصف؛ ما حَطَّم نفسيّتها وجعلهَا تتَحاشى الاختلاَط مع البشَر وخصوصًا الرّجال منهم)).

قلتُ كلامي مُلقيًا بملفّهَا الطبيّ على مكتَب الطبيب "مالكوم"؛ليسحَب هذا الأخيرُ نظَّاراته الطبيّة الرفيعة ويُداول على التهام أوراق الملف صَفحة صَفحة، مُتفحصًا الأختَام والتّوقيعات بحذر يُوحي عدم ارتياحِه للأمر؛ خُصوصًا وأنه على مَشارف علاج ضَحيّة أَحَد أكَثر مُنظمات الويب المـُظلم دَناءة وانحِطاطًا.. المـُنظمة الغلمانية.. "بيدوفيليا العذراء"!!

***

بعد اطّلاع "مالكوم" على الحَالة الصحيّة لصَغيرتي "سوزان" استدعَاها فورًا إلى مَكتبه ليُجريَ عَليها اختبارًا يُثبتُ مَدى أهلِيّتهَا للخوضِ في غِمار الجَلسات العِلاجيّة للتنويم المغناطيسيّ. أقعَدَهَا على كرسيّ خشبيّ عَالٍ، تأكَّدَ من استقامة ظَهرها، أغلَق جَميع السَّتائر حتى احتدَم ظَلام المكتب، ثمَّ أزَاح خُيوطه بنُور شمعتيْن صغيرتيْن ملتهبتيْن، مرَّرَ أصَابع يَديه عَلى جَفنيّ عينَيها وأغلقهمَا بلطفٍ بَعد تدليكٍ خفيف أعلاَهما. كنتُ أشاهدُ العرضَ شَاخصًا ببصري نحو صَغيرتي مُتوتّرًا من النّتيجة التي سيؤُول إليها هذا الاختبَار.

رفَع "مالكوم" يَدي "سوزان" إلى أعَلى ثمَّ ضمَّ كفيّهَا إلى بعضٍ بطريقة مُتناظرة، طلبَ منها إرخَاء عضلات جِسمها والتركّيز في كلماته فَقط، أرادهَا أن تنّسَى تفاصيلَ الغرفة، خَاطبها بكلماتٍ عَميقة تبعثُ الطّمأنينَة في النّفوس السَّليمة والمريضَة؛ كلمَات دَافِئة حَوَّلَتْ بَهوَ القَاعَة إلى فَضاءٍ مَعزُولٍ عَن عَالَمِنَا المَجنُون... إنَّ هذا "البطريق" مُتمرسٌ بحق.. ويُجيد فنَّ المخاطَبة والتّلاعب بالكَلمات. مَضتْ دقائق فقط حتَّى سَفَرَ الإعيَاء على الطّفلة، وآل رأسهَا للتَّمَايُلِ يمينًا وشمالًا؛ فأخذت تَترنَّحُ من مَكانها كَدُميّة قماشٍ وَقعتْ في حُضنِ الرّياح. ومَا أن بَلغَ الطبيب مُرَاده.. حتَّى

ثَنى أصَابِعَ يَديهِ مُحَاولًا فَرقعَتهُم على مَهلٍ دُونَ قَطع حَبلِ الصَّمت أو إثَارة الجَلَبة، دَنا قليلًا من رأسِ الصَّغيرة واستهلَّ يَهمسُ في أذُنِهَا اليُمنَى مُردِّدًا:

((نُعاسٌ كبير يَجتاحُكِ.. شُعورٌ بالرّضَا والسّكينة ينبضُ من عَضلة قَلبك.. تَودِّينَ الحِراك ولكن الوَسنَ يجُركِ عُنوَة نحو الاستِرخَاء والرَّاحة.. النّعاس يمنعُك من الاهتزاز ويجعَلك تَرضخين لأوامِري.. لَن تنَامي الآن! عليكِ أوّلًا فكُّ راحتي يديكِ عن بَعضهما البعض.. حَاولي الآن ابتداء من هذه اللّحظة؛ ولكنكِ لنْ تَقوي على ذلك!!))

أخذتْ "سوزان" تُجَاهِدُ لفكِّ يَديها حتَّى تكمَّش جَبينها وانقلبَ وجههَا إلى العُبوس، يبدُو الأمر بسيطًا جدًّا وينتظر حركَة سَريعة منها لإنهائِه؛ ولكنّها عجزتْ عن النّجاح.. ثَابرتْ وحَاولَتْ وقَاوَمَتْ حتَّى أقرّتْ بالاستِسلَام؛فابتسمَ طَبيبُهَا وخَاطبها قَائلًا:

((فُكِّ يديك الآن.. واستَيقِظي..))

صفّقَ بيديه لمرّة واحدة فانتهَى الاختبَار لتستيقظَ "سوزان" بملامحَ مُرهَقة جَامَعَهَا الإعيَاء مُتنَاسية وُجُودهَا بَينَنَا في هذه الأثنَاء؛ أمَّا أنا فهَرعتُ نَحوَ الطبيب "مالكوم". دَفعته بقوّة مُمسكًا بعنقهِ الغَليظِ، ثم صِحتُ فيه قائلًا:

((لمَ فَشِلَتْ في فكّ يديها بادئ الأمر!! لمَ فَشِلَتْ في الاختِبار؟))

أزَاح يديَّ عَن قميصه بقبضتيه القويتين المكسُوَّتين شعرًا، وردَّ عليّ في هدوءٍ:

((تمالك نفسكَ.. لقد نجحَتْ في الاختبار.. كانَ الهدفُ من هذه التّجربة التّأكد من تَنفيذها لأوَامري حرفيًّا.. وقد استجابتْ لي دون تردّد.. ما يعني أهليتهَا رسميًّا للعلَاج. هيَّا انصرف من هنَا واحرصْ على إطعامهَا جيّدًا قبلَ إرجاعهَا إلى المنزل.. فالأصوات الصادرة من عُمقِ بَطنها كادتْ تُعيق اتصَالنا اللّفظيّ)).

عادَ الأملُ ليُنعشَ روحِي البائسة من جَديد، شَكرتُ "سوزان" على تَعاونها معنَا، ثمَّ أمسكتُها من يدهَا وأعلنَّا الانصراف بعدَ أن ضَرب لنَا السيّد "مالكوم" موعدًا آخرَ؛ الخميسَ المقبِل الذي من المُفترضِ أن يَشهد أوّل جَلسة عِلاجيّة بالتّنويم المغناطيسيّ لصغيرتي. كانَ وجهُ "سوزان" شاحبًا كَثيرَ الإعيَاء؛ لذا لم أُفوت فُرصة اجتمَاعِنَا لنُطِلَّ على البحر من شُرفَة أحد المطاعمِ الفاخِرة، ونلتهمَ مَا لذَّ وطَاب من أسمَاك البحر الطَّازجة، ثم نَشتري دُميّة "الفينيل" من مَتّجر الألعَاب، ونعُود أدراجَنا إلى البَيت.

لقَد كانتْ أوّل مرة أراها سَعيدة منذُ عودتها من "بيدوفيليا العذراء"؛ مَا رفَع شُعوري بالرّضا حيالَ نفسي. كَان شعوراً ضعيفًا لكنّه كَافٍ لدَفعِي إلى رحلة الانتقَام التي لم تغادر تفكِيري البتّة.

مَضى الأسبوع بطيئًا كسلسلة «Gunsmoke[1]»، تجاوزتُه بقراءة بعض الكُتُبِ المُحرَّمة التي لفَظهَا الجُزء المُكفهرُ من الويب، والعَمل نَهاراً بمتّجر "مالكوم" لألعَاب الفيديو؛ المكَان الذي نلتُ فيه شَرف اللّقاء الأوّل بصديقِي البَدين الذي تمرَّدَ على روتين العَمل كطبيب نفسيّ وأضحَى يُدير هذا المتّجر ليلًا، بين بيع آخر إصدارات الشركات العريقة كـ "أكتيفجن"، "إلكترونيك آرتس"، و"نينتندو".. وتجريبهَا شخصيًّا لتحديدِ أسعارها حسبَ الجودة والنوعيّة. حقيقة أنَّ "مالكوم" أخذ شَكل "البطريق" تَعود لمكوثهِ الطّويل في اللّعب وسَهره على أكل المثلّجات والأكلاَت السّريعة كالـ"هوت دوغ"؛ أما "سوزان" فاهتمَّت بأمور المطبخ؛ حيثُ أضحتْ تُعدّ أطباقًا شهيّة مُستعينة بقنَوات الطّبخ على "اليوتيب". رغمَ صغر سنّها إلاَّ أنَّ بوادرَ اهتمامِها بالطهيّ برزت مبكّرًا كبروز أعضائِها الجنسيّة!

[1] مسلسل تلفزيوني درامي أمريكي، عُرضَ سنة ١٩٥٥ واستمرَّ إلى غاية ١٩٧٥.

إنه الخَميس! وهَا أنَا استيقظُ فَجرًا رغم نومي لسُويعات قليلة بَعدمَا أمضيتُ ربوع اللّيل أفكر في موعد الجلسة العلاجيّة وأطرح على نفسي تساؤلات غيبيّة لا أملك أجوبةً لها؛ هل ستعُود "سوزان" لسابق عَهدها؟ هل يمكنُ لها أن تَتقبل فكرة الرّجوع إلى مقاعد الدراسَة! كيف لي أن أقنعَها بضرورة الاحتِكاك بالمجتَمع الخَارجي! أو على الأقل ما السّبيل لكبح كوابيسها المزعجَة التي أخذت تُضَاجِعُهَا يوميًّا وتحرمهَا من النوم الهنيء!.. آه أيّها "البطريق" لو تتمكَّن من علاجهَا وسحبِ ما تكنزه من أسرَار عن تلك المنظّمة لأكُون أوّل شخص يخدمكَ لما تبقى لكَ من عُمر قَلِيل.

قفزتُ من سريري كمُحارب الكُوليسيُوم[1] ، مُحاولًا تَرتِيبَ غُرفتي المكتظّة بالأكياس الورقيّة للوجبات السّريعة، وعُلب التّبغ التي دَأبتُ على استهلاكها واستنشاق دُخَانِهَا. لَقد كَانَت كَجُحر مُرَاهِقٍ أرعنٍ يتمَادى فيهَا بطَيشِهِ كُلّمَا أدركَهُ الضَّجَر؛ ولَكنِّي اعتدتُ الرَّاحة على هذه المـُخلَّفات، لطالمـَا آمنتُ بأنَّ الأفكَار تأبَى وُلُوج غُرفِنَا المـُرتّبَة؛ فَتَزُورنَا عَمدًا بينَ أكوَام القُمَامة ومُخلَّفات الطَّعام أو حتَّى في أحضَانِ كُرسيّ المرحاض!..

[1] مدرَّج روماني كبير يتوسَّط مدينة روما، أستُخدمَ سابقًا كمسرحٍ للعروض القتاليّة.

ببسَاطة لأنَّنَا نعيشُ الجوّ القَذِرَ الذي ألفنَاهُ في صِغَرنَا وأحببنَاه واستحسنَّاه طيلَة حيَاتِنَا، وهو وَحدهُ القَادِرُ على إرضَائنَا عند اختلائنَا مع بناتِ أفكارنَا.

سجائرُ «Marlboro» أو الـ «Winston White»لم أعد أكترثُ للسّم الذي أُرسله إلى رئتيَّ كل يوم؛ على الأقل استطعتُ سَحبَ عادة شُرب النبيذ الأحمر أمسية كل سبت، وترفّعتُ عن استنشاقِ الكُوكايين حتّى دون الانضمام إلى جمعياتِ معالجة الإدمان.. وبينما أحادث نفسي وأملأ أكياسَ القمامة ببقايا الطعام الملقى على مَكتبي دخلتْ عليَّ "سوزان" بلباس نومهَا الفضْفاض، محاولة تذكيري بموعدنَا اليوم مع طبيبها "مالكوم"!..

عُدت بالصّغيرة إلى غُرفتها مُستغربًا مَا رأيته للتو! لم يكن تَضخّمُ نهديها ما شدّني هذه المرّة؛ بل وشمٌ لرأس حيوان "الرنّة" مُتشعبٌ القُرون يقبع أسفل ظهرها، رافقهُ رقمٌ غامضٌ رُسُمَ على جلدهَا بعناية جاء فيه:«Version 6.66». استحيتُ تَفَحّصَ مَوضع هذا الوشم الغريب على جَسدهَا؛ لذا سألتُهَا الإفصَاحَ عن سرّه وعن هويّة راسمه، ولكنّها أبت وضَرَبَتْ بابَ الغرفة في وجهي!

حَملتُ هَاتفي على عَجَل واتصلتُ بصَديقي "البطريق" لأُبلِغَهُ عن أمر هذا الوشم الجَلَل؛ فطَمأنني بأنْ يَكشفُ سرّه في أحد جلسَات

التنّويم المغناطيسيّ، ثمَّ لامني على تَأخري في القُدوم؛ فَحسبهُ كان ينتَظرني في مكتَبه مُنذ أن زفرَ الصُّبح أنفاسهُ الأولَى.

عُدت إلى "سوزان" لأجدهَا قد ارتدتْ ثيابهَا وابتلَعَتْ إفطارها بسرعَة لاَهِثَة، ولم تَلبث أن قفَزت تحتَضنني مُعتذرة عَن وقَاحتها مَعي قَبل قليل. كُنت أعي حَالتهَا النَفسيّة المـُرهقة مُراعيًا في ذلك صِغر سنّها وقلة حيلتهَا؛ لذَا لم أُلقِ بَالًا على ما فَعلتهُ قَبل قَليل؛ بل أزمعتُ على حَملها حالًا إلى الطّبيب وترقّب ما سَتسفرُ عنهُ نتائجُ أوّل تجربة لها مع التنويم المغناطيسي.

عشرونَ دَقيقة كَانت كفيلةً لبلُوغِنَا عيادة الطّبيبِ النفسيّ، أضحَتْ صَالة الاستقبَال خَاويّة من تلك المنحُوتة الصّخريّة الفاضِحة؛ أمَّا مَكتب "مالكوم" فكَان مُهيّئًا بطَريقة مُختلفة عن ذي قبل، يَبدو أنّه قَد بذَل جُهدًا كبيرًا في تَأثيثه بهذا الشّكل المريح.. رفعتُ نظري وأخَذت أتفحّصُ الثُريّة البَديعة المنتَصبة أعَلى المكتَب بأضوائها الخافتة الحمراء؛كيفَ تَنسِجُ خُيُوطًا رَفِيعَة من الأنوَار وتَرشِقُهَا على الأجسَام كأنثَى عنكبُوتٍ تُحَاصِرُ بحَريرهَا أحدَ الزُّوَار الجِسَام. كَان هناك كُرسيٌّ خشبيٌّ كبير تَعتليه قَاعدة جلديّة فَاخرة تُضفي الرّاحة على كُل مُؤخرة تَنال شَرف الجُلوس عليها، وأمَامه مباشرة تقفُ أريكَة عَريضة تَآكلت قَاعدتها وقد برز

بعضُ الإسفنج الأصْفر من صُلبهَا؛ ذلك بلا شكّ مَقعدُ "البطريق" فَهو مناسب تمامًا لحملِ جسده السّمين.

بينمَا أُحَملق في المكان مَاسكًا يدَ صغيرتي؛تَنَاهى إلى مَسَامعي صوتَ مُوسيقى كَلاسيكيّة هَادئة تَعود إلى حقبة قَديمة من الزّمن، كَانت سِيمفونية عَميقَة الألحَان ورَاقية الجَّودَة وَلَجَت فُتحتي أذنيّ دُون عَودَة، أدركتُ فورًا أنّي قَد سَمعتها فترة طُفولتي؛ ولكن ذاكرتي خانتني في التّعرفِ عَلى هويّة صَاحبهَا إلى أن سَفَرَ خَلفي السيّد "مالكوم" واضعًا يده على أسطُوانة "الفُونوغرَاف" الذي كَان يُزيّن مكتبه، وهَمَّ يَقول:

((ومنْ لا يَعرف سيمفونية «Lacrimosa»؟ لا يجهَل شَيطان الفنّ «Mozart» .. سِوى مُغفل مثلكَ يا "بان"))

((ألستَ تُربك الصّغيرة بهذه المعزُوفَة!))

صِحتُ فيه معَاتبًا لاستخدَامهُ موسيقى غَامضة وحَزينة كَهذه؛ لكنَّ الأرعَن امتصَّ غضبي بِوضع أصَابع يده الأربع عَلى شَفتيَّ ثم خَاطبني بهدُوء:

((صَهْ.. لا تتَدخل في عَملي.. قُم واستو هُناك، ثمَّ احرص عَلى إغلاق فمكَ حتَّى نهاية الجَلسة)).

كَان أصبع يده يُشير إلى الرّكن الأيمنِ من الصّالة؛ أين وُضع مكتبٌ خشبيّ صغيرٌ يَبدو في حَالة سيّئة وكأنّه لم يُنظف قطّ؛ فآثار القَهوة المتحجّرة أخَذت شَكل حَلقات مُتعددة تختَلف باختلاَف أحجَام الأكوَاب التي كَان يحتَسيها هذا "البطريق" سَاعات عَمله. دَنوت أكثر مُتفحّصًا المكتب؛ لأجِد بعضَ الأوَراق البيضَاء مُبعثرة في دَرجه، وقَلم حِبر من نوع «Bic» قَد نفَذ نِصفُ ما بجوفه.

رفعتُ رَأسي مُحدّقًا بـ"مالكوم"، كَان يبتَسم ويُشير لي بعَينِه نَحو الأوراَق.. بَادلتُه الابتسَامة وفهِمتُ فورًا ما يَعنيه.. لَقد أرَاد منّي تَدوينَ كُل المعْلومَات التّي ستُمطرنَا بها "سوزان" فترة علاجهَا.

استخدمتُ كفَّ قميصي لإزاحة الغُبار عن المكتَب، ثمَّ أخَذتُ مَوضعًا مُريحًا على الكُرسيّ لأراقبُ بتمعُنٍ قُدرات "مالكوم" على التّنويم الإيحائيّ؛ هذا الأخيرُ الذي قام باستلطَاف "سوزان" بطيبِ الحديثِ طمعًا منه في تكوينِ عَلاقة مَتينة كَتلك التي تجمَع بين الطّبيب ومريضهِ، وبالفِعل لقد أفلَحَ في ذلك بسرعة المـُتمرّس، وأقنَعَهَا بأن تَربضَ على الكرسيّ بمحضِ إرادتها راسمة ابتسَامة صَادقة أبتْ إزالتهَا.

حَجب الصّالة عَن أعيُن الفُضوليّين بستَائر سَوداء كَتِلكَ التي تُزيِّنُ بُيُوتَ القُوطِيِّين[1]، ثم أنَار أربعَة شُموع عِطريّة مَخروطية احتوتهَا كُؤوس زجاجيّة أرجُوانية، وداولَ على تَوزيعها في عدّة مواضع؛ فامتزجَت أنفاسُنا بروائِح ورود الجبَل، زَادتها هَيبة إنارة حَمراء خَافتة دأبت رقَصَات نيران الشّمُوع على رَسمها بإتقان؛ إتقان لا يَصنعه سِوى خَبير النفس والرّوح.. الطَبيب العَبقري "توم مالكوم"!

بَعد تَرتيبه المكَان دَنَا من آلة "الفُونُوغراف" وكَبَحَ نَزيفَ عَزفها، ثم عَاد ورَبَض على مَقعده العَريض مُقابلًا صَغيرتي بِوجه يشعُّ إشراقًا وثقة، لَقد بَرزت أخيرًا شَخصيته كَطبيبٍ نَفسيّ.. الشخصيّة التي أزمَعت روحي عَلى اكتشافها وتَأمُّلها مُنذُ أوَّل لِقاء جَمعنَا.

قَطع عنّي "مالكوم" حَبل التَّفكير بدُنوّه من "سوزان"؛ حَيث أغلقَ عَينيها بلُطفٍ ورأفة، ثمَّ همسَ في أذنها اليُمنى قائلًا:

((حَسناء مثلكِ تستحِقّ جُرعة من التفاؤُل والطَمأنينة.. الرّاحة والسّكينة.. طفلة في عُمرك أعطيها جُلَّ وقتي لتغدُو حُرّة

[1] قبائل جرمانيّة شرقيّة، يتميّزون عن غيرهم بارتدائهم الملابس السّوداء.

سَعيدة.. وتَستمتع بالرّقص والغنَاء مَع أقرَانها منَ الأولاد.. لا حُلمًا بل حَقيقة.. عمّكَ "مالكوم" يَسألك إن رَغبت بقلبٍ صَادق ورُوح وَاثقة أنْ تحضي بهذه الامْتيازات.. عَزيزتي.. أنا هُنا للمساعَدة.. لحفظِ سرّك وضَمان أمنك وسَلامتك.. ابنتي.. أنتِ بين أيادٍ أمِينة وقُلوب رَحيمة.. أطلبُ منكِ صَغيرتي أن تَتنفسي بعمقٍ وسَكينة.. واجمَعي جلَّ هَواء الغرفة المفعَم بروائح الطبّيعة داخِل رئتيكِ.. اكتمِيه هُنيهة ثم ازفريه بِلطف واتركيهِ يَنساب بِبطء ونعومَة... نعم أحسنتِ! كرّري الأمرَ عدّة مرات.. لا تتوقّفي إلَّا بإشارة منّي...))

تركَها تَسحَبُ الهَواء وتَزفرهُ بعمق ورَاحة.. واسترسَلَ في شُربِ المـَاء من الكَأس الزُجَاجيّ الذي يجاورُه، ثم أعَاد مخاطبتهَا قَائلًا:

((تَابعي التنفس بهدوء.. وصبّي تَركيز حَواسك على الرّاحة والطمَأنينة.. أنت الآن تَحت تأثير الوسن.. نُعاس لَطيف يأخذك إلى عَالم السّكينة.. يَقودك إلى التثاؤب والخُمول.. الكَسل والنوم.. ثقلٌ كَبير يَهوى على كَتفيك.. جوّ الغرفة اللّطيف يُداعب جُفون عَينيك.. جُفون أرهَقها النّعاس فأزمعت عَلى إراحة عينيكِ الجميلتين لوقتٍ مَعلوم.. الوسَن والرّاحة يُغازلانكِ.. ستنتظرين منّي إشارة للغوصِ في أعماق عَقلك والاستمتاع بأوقاتٍ جميلة..

سأعدُّ لثلاثة وحين أنهي الأمرَ.. سَتخلدين في نومٍ مُريح.. نوم هَادئ وعَميق...))

كِدتُ أتَجَرَّعُ النَّوم مع صغيرتي "سوزان"، بَعدَ أن عِشتُ مَعها اللَّحظة بتفاصِيلها الدّقيقة؛ أمَّا "مالكوم" فواصلَ العدَّ قائلًا:

((- واحد: تَتثاءبين بثقلٍ كَبير مُرهقٍ.. - اثنان: رَاحةٌ نفسية تَقودك إلى الوسَن والخمُول.. - ثلاثة: أنتِ الآن تَنامين بِعمقٍ وطُمأنينة لم تعتَادي عليهمَا سلفًا.. نَامي الآن يا "سوزان".. نَامي وانطلقي إلى عالم الحقيقة لا الأحلام!))

***

## الفَصل الثاني: لعنَة مَطار "شيكاغو أوهار"!

## الجلسة العلاجيّة الأولى: الخميس٠٧ تمّوز ٢٠١٦

**أخضَعَت** "سوزان" جَسَدِهَا إلى السَّكينَة بَعد أن كَانت تَهُزُّ رجليهَا باختلاف.. ظَننت لوهلة أنّها قد استسْلمت لعَزفِ النَّوم؛ ولكنّي أخطأتُ التَّخمين؛ فلمْ تَلبث أن أخذَت تمتصُ شَفتيها وتُحرّك جَفنيها خِلسَة، بمجرّد أن دَاول الطّبيب "مالكوم" على تَمرير راحة يَده اليُمنى على وجهها دون أنْ يلمسَه، وكَأنه يتأكّد من بُلوغها مَرحلة تَلقّي الأسئلة ودُخولها بوابة التّحقيق غير الرّسمي.. تَحقيق كَان من الواجب اتّخاذه في مخفَر الشُرطة، ولكن حصيلةَ الأسرار التي ستُحصَدُ من وَرائه قَد تَرمِي ببعضِ المقرّبين إلى السِّجن؛ خَاصة إذا مَا تَم تضْخيمها وعَرضِهَا عبرَ شاشَات "البروباغاندا[1]" التي اعتَادَت الأكل من مَزبَلة التَّاريخ.

(("سوزان"!.. "سوزان"!.. أرأيتِ كَم هو مُريح الجلوس عَلى كرسيّ كهذا.. والبوحُ بكل ما يُكتَنزُ داخِل عقلك من أسّرار.. وطَرح جُلَّ المشَاكِل والكَوابِيس والأضرَار.. لعلَّ ما يسعدني الآن هو

[1] نشر المعلومات بالجملة ومن وجهة نظر واحدة، قصد التأثير على المُتَلَقّي.

ثقَتك فيّ وإيمانكُ أنّي على الطّريق الصحيح لتضّمِيد جراحِكِ الخاصة.. وإخراجِك من دائرة الخوف والتعاسَة.. عَزيزتي "سوزان" هَل قلبكِ مُستعدٌ لِتجاوز الآلام ولَفظ ما يحملُه من ذكريَات وأحزان؟.. إذا كَانت إجابتكِ بـ"نعم".. فاعلمي أنّي مُستعد بدوري لتَصحيح وجهتك على بوصَلة التيه.. وإعطائكِ جُرعة الشّفاء الصّريح)).

على غَير المتوقّع استجَابتْ صَغيرتي لِكلام الطّبيب "مالكوم" ورضختْ لنَغمَاتِ صَوتِه؛ مُرددة بِلطف ولين:

((بالطّبع.. سأخبركَ بِكل ما يَقبَعُ في نفسي ويحرمني النّوم والثبَات النّفسيّ)).

ابتسمَ "مالكوم" حتَّى أطلَّت أسنَانه من شَفتَيه، أشَار لي بعينِه فتجهّزتُ فوراً للكتَابة، في حين سَألها قَائلًا:

((بَلَغنِي من السيّد "بان" بأنَّ والِدَتكِ قَد كانتْ مُلاَحقة بينَ "كندَا" و"الولايات المتّحدة" من طَرفِ مَجهُولينَ.. مَا جَعلَهَا تَرسُمُ خُطَتهَا في الهَربِ إلى مَوطِنهَا "الأردن".. حَدثَ هذَا قَبل عامين كَاملين.. فهَلْ بإمكَانك شَحنِي بجُملَة الأحدَاث التي وَقعَت وَقتَهَا؟))

كَانت هذه أوّل محَاولة جديّة لِكَشطِ غموضِ قصّة أخفتْ من وَرائها فيضًا من الأسرار والنّظريات، وبهذا الطّرح أخَذت خُيوط الحَقيقة تُنسجُ على مَهل بعد أن سُلّمَ المشعل إلى "سُوزان" في عيادة البطريق.. الدّكتور "توم مالكوم"!

***

*"سوزان حطَّاب" تروي قصَّتها للطّبيب النفسيّ...*

كُنتُ أجهل الطّريق الذي يَنتظرني بَعد قَرار أمّي بالقُفُول إلى الأردن؛ ولكنّ فُضولي المـُتخَن أرغمَني على خَطفِ السّمع لحظَة انشغال والدتي بالرّد على بعْض المكَالمات السّرية. كُنت أُعَاقُ كُل مرّة في إزاحَة التّعتيم الذي يَدور من ورَائي في الخفَاء؛ فَمكالماتها مُشفّرة، تمامًا كَحديثها معي.. ولكنّي تَوصّلت أخيرًا إلى خَيط من الحَقيقة علقتُ عليه ولا أزَال إلى اليَوم.

استَفَقتُ ذات صبَاحٍ وقلبي غائِرٌ مَهمُوم، جَلستُ خلفَ نَافذة الغُرفة أُراقِبُ حَركَة السّير وانتشَارَ الغيُوم، كُنتُ أزيلُ بكف قميصِي تَكاثف حُبيبات الماء من على الزّجاج حتَّى أملأ عينيّ ابتهَاجًا بِبَريقِ المـَدينَة وتَصَادُمِ الأمواَج؛ فوقَعَت أنظاري صُدفة على شَابٍّ خُمريّ مَألوفَ الوَجهِ طَويل القَوام يَتَّجِهُ صوبَ مِصعد العمارة التي انتقَلنا إليهَا في "شيكاغو" قَبل موعد سَفرنا إلى

الأردن بأيّام؛ كَان يرتَدي مِعطفًا طَويلًا أخضرَ اللّون من نّوع "كَشمير"، ويحمِل بيده محفَظة جلديّة سَوداء أزالَ الزمنُ بريقَ لونهَا. أخَذ يُراقب المكَان بدقّة القنَّاصِة، قبلَ أنْ يرفَع رأسَه صَوبي كَصَقرٍ على أهُبَة الانقضَاض التقتْ عينِيّ بِعينيه للحظة. خُطِفَتْ فيهَا أنفاسي لوَهلَة، فَأغلقتُ النّافذة وقَفِلتُ رَاجعَة إلى أريكة الصّالون لأرتِمي في حضنهَا وأدَاول على عَدّ نَبضات قَلبي الذي كَاد يَنفذُ مِن بين تَرائِبي..

دَقائق قَليلة كَانت الفاصِل بيْن رُكوبه المصّعد وبُلوغه شقّتنا؛ فالبَاب الخَارجي أخَذ يَستقِبل طرقًا عَنيفًا على خَشبه المتِين؛ كأنَّ الزائِرَ يَحمِلُ لنَا قدرًا من الشرّ وشُحنَات من الضَّغينة، لَقد بَلغ خَوفي من هَذا الشاب الذُرّوَة؛ خُصوصًا بعدَ زيَاراته المتكرّرة لهذه المنطَقة، لم أجد من سَبيل لتجَاوز رَهبتي وإشبَاع فُضُولي سِوى ادّعاء النّوم واستراق السّمع، فأخذتُ بَطّانيتي من الغرُفة المجَاورة وعدتُ مُسرعة أسحبُهَا إلى الصّالة، ثمَّ دَاولت على لفّها حَول جَسدي كشَرنَقةِ الفَرَاشِ مُشكّلة بطَرفها فُتحة صَغيرة تَسمَحُ لي اختلاَسَ الرُؤية، وما إن أخذتُ وضعِية مُريحة لهذه المهمة حتَّى استيقظتْ أمي مُتمَايلة في مشيتِها مُتَّكِئَة على الجدرَان تَتَثاءبُ من أثر الوسَن، وصَلت لي وقالت:

((أيّتها الشقيّة.. تَتركين أمّك وَحيدة وتَنامين أمَام التّلفاز)).

اشتّد الطَّرق على الباب، فانتقلتْ أخيرًا لفتحِه وكم كَانت مُفاجأتها جَامِدَة حِين دخَل عليهَا ذاك الشّاب وصاحَ فيها قائلًا:

((تَظنين نفسَك ذكيّة بانتقالك إلى هَذا الحيّ البَعيد قبل هُروبك إلى الأردن!...))

أرادت صَفعهُ فأمسَك يدهَا وصَاح فيها مُجدّدًا:

((العُنف ليسَ حلًّا البتَّة.. سَيضعك في مَأزق حَقيقي.. لا تُفكّري في صَفعي مجدّدًا وإلا استخدَمتُ قَبضتي...)).

سَكتَ هُنيهة ثمَّ واصَل كَلامه بصَوتٍ أقلَ حدّة..

((ليسَ من الحِكمة ادعاؤكِ الحِكمة)).

فتحَ محفَظته مُتجاهلًا دُموع والدَتي التي أخذَت تنهَمر رُغم عُزوفِها بادئ الأمر؛ دموعٌ واكبتْ أمطَار الشّتاء بغزارتهَا تزامنًا مع الحَدث.

((تَفضّلي.. هَذا حَاسوبك.. لَقد أعدنَاه كَما أخذنَاه.. تجدين دَاخله رسَالة من الرّئيس.. عَليك الاطّلاع عليهَا)).

أنهَى حَديثه بهذه الكَلمات ثمَّ انصَرفَ عَازفًا قُدَّاسَ المَوتَى بِنَقرَات حِذَائه؛ أمَّا أمي فوَضَعت كفَّهَا على مِقبَضِ البَّاب وأحكَمت

إغلاقَه،ثمَّ جَلست على الكرسيّ فاتحة الجهاز بسرعَة لتفقّد مَا تحمله رسَالة الرّئيس.. وكمْ كانت الصّدمة خانقةً بَعد أن تَوارت شَاشة التّرحيب مُسدلة السّتار عن صورة حَقيقية؛ أظهرُ فيها مُمسكَة بقطعَة من الخبُز المحمَّص في بَهو المَطبخ محاولة قَضمه!.. شَهقت أمّي ذُهُولًا ممّا رَأت! ثمَّ استرسلتْ في البكاء ضَاغطةً على فيها بِكفيها حتَّى لا أستَفيق من نَغمَاتِ أنينهَا، تَابعتْ البَحث داخِل القُرص الصَّلب محاولة كبحَ نَزيفَ الدَّمع من عينيهَا؛ حتَّى عَثرت على ملفٍّ يحمِل تسميّة غريبةً... الـ "بيدوفيليا[1]"!

كانَ مُصطلحًا جَديدًا كُنت قد أضفتُه حَديثًا إلى قَاموس حيَاتي، ولم أتَصور يومًا أن أُعَايش مَفهومه على أرضِ الواقع وأكتسبَ منه تَجربة لا يَتمناهاغُلَام. فَتحتْ والدتي الملف الذي حَمل صِيغة «PDF»؛ فبَانتْ لها جُمل صَغيرة لم تتّضح لي حُروفها جيّدًا. عَدّلتُ طَرف البطَّانية بحذرٍ حتَّى اتسعتْ زاويةُ الرؤية؛ فكُشِفَت لي حَقيقة الرّسالة التي جَاء في بيَانها:

[1] اضطراب جنسيّ يُؤدي إلى اشتهاء الأطفال، والاستمتاع بممارسة الجنس عليهم.

''لا أعلَمُيا "إيلين"!.. ولكِن طَريقة قَضم ابنتك لقِطعة الخبز المحمّص تبدو مُثيرة بشكلٍ مَا! أظنها تَستحق مَكانًا بين أطفال "بيدوفيليا العذراء"... جَارِ الحَجز''

"بيل الأرنب"

لم أعِ شيئًا من هذا الكَلام المبهَم، ولكن حَالة أمي الرَّثة جَعلتني أقفِز لا شعوريًا وأرتمي في حُضنِها الدّافئ؛ متَحسّسة قَدر الألم الكَبير الذي تُخفيه عَضلاتُ جسمِها المنهَارة، والتي بَاتت مُهيأة للرّضوخ والاستِسلام أمَام هؤلاء النُّخبة من رُوَّادِ الإجرَام!

وَضعتني جَانبًا، أغلقت دَفّتي الحاسوب بعُنفٍ وكأنّها تلومهُ عَلى تواطُئه فيمَا حَدُث، ثم شقَّت طَريقها إلى المطبخ. وأخذَت تُصوّبُ نظراتها الضَّاربة على حِيطَانِه القُرمزيّة، ضَاغطة على أسنَانها بعنف يُحاكي غَضَبها؛ حتَّى رُسِمَتْ خُيُوطٌ من العرُوق على بيَاضِ عَينيهَا. رغمَ أنَّ ملامحهَا توحِي بالقوّة والبأس؛ إلَّا أنّها لم تفلَحْ في طَمسِ الرّعب الذي استوطَن مُقلتيها... أعرفُ أمّي جيدًا حين تَحجُبُ خَوفهَا، أكَاد أجزمُ أنَّ قَلبها يَكاد يَهوي بين سَاقيهَا.

بينمَا أتابِع حَركات والدتي وأحَاول تَفسيرها، صَرَختْ بقوّة عجَّلت النّبضَ في قَلبِي، وهمّتْ تَقول:

((وجدتُك أيّها اللّعين...))

كَانت تحملُ بينَ يدَيهَا قطعة بلاستيكيّة صَغيرة، وضَعتهَا في جَوف "الهاون" وأخَذت تهرسهَا بشَراسة، ثمَّ نثرتهَا على طَاولة الأكل الخشبيّة؛ فلم يبق منهَا سِوى قطع مطحونة من البلاستيك الممتزج بشَظايا زجاجيّة!.. في الحين أدركتُ أن تلك القطعةَ ما هي إلّا كاميرا مُراقبة سريّة زُرعتْ في بيتنا للتّجسُس علينا منذ فَترة، وهي الملامةُ على التقَاط صُورتي مع الخبز المحمّص.. لَقد أيقنتُ للتو أنّنا نُكابد مُعضلات ليستْ بالهيّنة. كنتُ على مَشارف الحَديث مع والدتي حَول الأمر، طَمعًا منّي في امتصاص ألمِها ومُعاناتها؛ ولكن خَوفي مِن أن أزيد الطّين بلة جَعلني أكتنزُ ما بجوفي من أسئلة مُبهمة، مُؤجلة مَوعد طَرحها إلى وقتٍ قريب.

مَرّت علينَا أيامٌ خَانقة بين جُدران هذه الشّقة، قَلَبتْ والدتي من ربّة منزل لطِيفة إلى جُنديّة صِنديدة،بقلب ألمانيّ وعَقلٍ سوفييتيّ؛جُنديّة استهَلَّتْ تراقبُ الشّارع بأعين شَاخصة يَستوطنهَا غَضبٌ فطريّ، ودأبتْ على الاستيقَاظ فجرًا مرتديّة مِعطفها الجلدي الأسوَد لتَفتحَ نافذة المطبخ وتُصوّبَ نِبَالَ عينيهَا نحو الشّارع المقَابل، تارة تَستند إلى سَاعِدهَا الأيمَن لتَدخُل في حالة من الشُّرود الذهني، وتارة تقفُ منتَصبة كالنّمس الذي يحرسُ جُحره من هُجوم النّسر الملكيّ... آه من جُنُونِ النِّسَاء حِينَ

تَهبُّ ريَاحُهُ.. لَحظَتهَا لَنْ يَكبَحَ تمرّده سوَى قِطعَة من دِمَاغ أحد الرّجَال.. فأينَ أنتَ يا وَالدِي لتُعِيدَهَا إلى أحضانكَ..!أينَ أنت لتُذيقهَا ما لذَّ وطابَ من بقَايَا دمَاغِك.

لم تكن تَعِي أنّي أراقبهَا عن كثب في كل ليلة بَاردة تَفتح فيها النافذة، وتُرشد لفَحات الهواء نحو الجُزء الظَاهر من بَدنِي، لم تكنْ تدري أنَّ غريزتي تَدفعني إلى الاستيقَاظ ومُشاركتها المراقبة حتَّى في صَقيع ديسمبر السنَوي.

أفَقتُ صَباحَ الأحد على صَرَّة مَنزلية عكَّرت نَومي الهادئ، كَيف لا! وعُطلة نهاية الأسبُوع قد استُهلّت بضَجّة مُفاجئة كَسرت روتينهَا المعهُود!.. كَافحتُ في فَتح عينيَّ لأجدَ والدتي تُسابق الوقت مُدحرجَة حَقائب السّفر نحو البَاب الخَارجي، مُرتدية معطفًا أبلقَ مشدودًا ينتهي بقلنسوة يكسُوها فرو رَماديّ، وسِروال جينز ضيّق متلاصق بساقيها الممتلئتين؛ أبرزَ مفاتنهَا التي توارت خلفَ قمصانٍ طويلة دَاولت على ارتدَائها في الخمْس سنوات الأخيرة، وكَأنها تخاطب نفسها والعَالم قائلة: ((آن وقتُ التَّغيير يا "إيلين"))

كُنتُ قد تذكّرتُ للتَّوِّ أنّ اليوم هو مَوعد سَفرنا إلى الأردن، قَفزتُ من مَكاني حَافية القدمين مُتّجهة صَوب المطبخ، التقطتُ قِطعة كَعكٍ محلاة بالفراولة، وانحَرَفتُ إلى غُرْفَتي أهرُسهَا بين طَواحني

قَبلَ ارتدائي لملابسِي؛ والتي لم تكُن مختلفة عمَّا ارتدته أمّي لتوّهَا.. اخترتُ مِعطفًا أسودَ قصيرًا مع سروالٍ أرجوانيّ من نوع «Oxford» كُنتُ قد خبّأتهُ لهذا اليوم؛ فصِغر سنّي لم يقف عائقًا أمَامي للاستمتَاع بجمال جِسمي.

مرَّ الأمر جُله كوَميض البَرق؛ فبينمَا أُصفِّفُ شَعري على مَهل قَامت أمّي بتَسليم مَفاتيح الشقّة وأجرَة الكراء لصَاحب البِناية الذي ما زال يَلجمُه الوَسن بعدَ أنْ أيقَظتهُ والدتي في وقتِ الذُروة من النَّوم. أشَارت إلي بيدهَا ثمَّ دفعَتْ بالحقائِب الوَبيلَة نَحو بهو المصعَد، رَفَعْتُ نظّاراتي الشمسيّة أعلى رَأسي وأدرَكتُهَا؛ لنشُقَّ طَريقنا سويًا نحو المطار الدّولي الكَبير.. "شيكاغو أوهار".

ريَاح جائِشَة دَفعَتْ بنَا إلى الخَلف لحظَة بُلُوغِنَا مَحطة النَّقل البريّة.. بَرقٌ لامعٌ شقَّ السُّحب السّوداء المتكَاثفة في سَماء "شيكاغو" مُعلنًا تَساقط عُصَارة طبيعيّة من الأمطَار الثَّقيلة؛ التي اعتَادَت تَنظيف الشّوارع وتناستْ تَطهير الأنفُس البشريّة من الشرّ المكنون! كَانت والدتي تمسَح الطّريق ببصَرها قبلَ أية خُطوة تَضعها على الأرض.. وهي عَادة لم تَكن تُمارسها قَبلَ طَرْقنَا أبوَاب المدِينة. تَنَفَّسنَا الصُّعدَاء ببلُوغنَا المحطّة، ومن فَرطِ إرهاقنا لم نفوّت أوّل سيّارة أجرة تتوقفُ أمَامنا؛حَيثُ دلفنَا

إليهَا احتماءً من تَساقط حبّات البَرَد التي شَنَّت ضَربَاتهَا للتَّو عَلى زجاج سيّارة "فورد كراون فيكتوريا" الصّفراء.

((مرحبًا!.. أظنُّ أنكُما تَتّجهان إلى مَطار "أوهار" بما أنكُما مُحمّلتان بِكلّ هذه الأغْراض))

خَاطبتنا عجوزٌ في العقد السَّادس مِن العمر لحظَة انخِفَاضهَا لرفع حقائب السفر، في حِين صَفَّدت أمي أبَواب الكَلام، واكتفتْ بالإيماء بِرأسها إيجابًا ردًا منها على السّؤال؛ أمَّا أنا فدفعني فضُولي إلى النُّطق لأتجرَّأ قائلة:

((كيفَ لعجُوز مثلك أن تَتحمّل عَناء هذه المِهنة الشَّاقة في مدينة كَبيرة كـ"شيكاغو"؟))

شدَّت حزام الأمَان أسفَل خصرها.. تَأكّدت من خلوّ الطريق من زَحمِ السّيارات، انحَرَفَتْ بسرعَة إلى النَّاحية الشرقيّة، وأردفتْ تقُول:

((يمكنكِ مُناداتي السيّدة "ماما"!.. هَكذا يلقّبونَني في "شيكاغو".. أمَّا بخصوص سُؤالك يا ابنتي.. أظنُ أنَّ الإجابة عليه أمرٌ شخصيّ)).

تدخّلتْ أمّي وغيّرت مجرى الحديث لصَالحها قائلة:

((وما العيبُ في الإجابة سيّدتي إن كان السَائل طفلةً صغيرة تَسعى لإرواء فُضولها!))

تَنحنحت السيّدة "ماما" مُستغربة تَدخل والدتي الجَريء، ورَاحت تُعدِّلُ وشَاحها مختلف الألوَان مُبرزة الأزهَار التي طُرِّزَتْ على قُماشه بِعناية، ثم أخرجت من الجيب العُلوي لكَنزتها الصّوفية سِيجارة الكترُونية زرقَاء، سَحبت رُوحها بِقوة ثم زفرتْ سَحابة بيضاءَ من الدّخان فَاتحة ما تَيسر من زُجاج المركَبة لتَتدفق عبره هذه السُّموم، نَظرت إليّ نَظرة خَاطفة عَبر مرآة السيارة ثم قَالت:

((لقَد كَان زَوجي سَائقًا لشَاحنات نَقل البَضائع الكَبيرة من صِنف « Kenworth ».. وبَعد تقدّمه في العُمر أدرَك المرض عَضلة قلبه فلم تقوَ مُجدّدًا على تحمّل العَمل الشَّاق والسّفريات الطويلة التي اعتَاد عَليها فترة شبابه؛ لذَا أزمعتُ على إعَالته ونَفسي بالعَمل كسَائقة أجرة لما تَبقى من سَنوات حَياتي)).

((حظًا طيبًا سيدتي.. كم سَيُكلِّفُنَا الوقت للوصُول إلى المطار؟))

تساءَلَتْ أمي مُتظَاهِرة بعَدمِ الاكترَاث؛ أمَّا العَجوز "ماما" فغطتْ عَينيها الزَرقاوين بنظَّارة «Vogue» الفَاخرة، مُستَخدِمة أنَاملها

لفَرك شَعرها الأشقَر المموَّج لحظَة انهمَاكها في الرّد، وكَأنها تحرصُ على انتقاء أفضَل إجابة لكُل سؤالٍ يُطرح عَليها...

(( أظنُ أنَّ علينَا تجَاوز زَحمة السّير أولًا.. سَنضطر لقطع طَريق مُختصرة في الجهة المقَابلة)).

غَمغَمَتْ وَالدتي بينهَا وبينَ نَفسهَا وكَأنها تَلعن اليوم الذي قَابلتها فيه. في حِين تَعمَّدت العَجوز الابتسام لي بين الفَينَة والأخرى عبر مرآة السّيارة لحظَة انسيَابنَا عبرَ الأزقة الضيّقة التي حَجبتهَا مياه الأمْطار. لقد كَانت غير طَبيعية بالمرّة! تَضع نظَّاراتها الشمسيّة في هَذا الجوّ الغَائم فَقط لتتلصَّص عَلينا مِن وراء زجَاجها! يا لها مِن امرأة سمجة!

***

مَضى على سَيرنا قرابة الرُّبع سَاعة تزَعَّمَ فيها الصّمت،ورَبَا تَرقّب وَالدتي في الأرجَاء، لقَد كَانت تَعي جيّدًا أن المدعُو "بيل" صاحب الرّسَالة السَّاخطة لَن يَدعها تَبلغ الأردن بهذه السَّلاسة؛ لذا كَان عَليها أخذ الحيطة واحتضَان الحَذَر خُصوصًا في لحَظات مَا قبل الإقْلاع. بَينما كِلانا سَارح مع بنَاتِ أفكاره رَكَنَتْ العجُوز "ماما" أمَام مَطعَمٍ مُهيبٍ لبيع الـ«pizza» وطَلبت منَّا الانتظَار لبضع دَقائق حتَّى تَسحبَ وجبةَ غدائهَا التي حَجزتهَا قَبل سَاعة

عبر تطبيقيّة في الهَاتف؛ وَوعدتنا أن تخفّض لنَا أجرة التّوصيلة من عدَّاد السيارة نَظير صَبرنَا.

سَحبت أمي قدرًا من الهَواء وزفرته بتَنهيدة قويّة خارجَ زُجاج المركبة، ثم رضَخت لطَلب العَجوز الثَّخينَة التي نَطَّتْ من السّيارة مُتجهة إلى بهو المحل؛ وكأنَّهَا شَابة عشرينية تَنتظر مَوعدًا غراميًا، وبَعد ثَوان فَقط من تَواريها عَن الأنظار، سَطَعَ من سَوَاد ظِلِّهَا شابٌ طويلٌ أخَذ يَزلفُ منًّا بِخُطوات مَحسُوبة، كَان يَرتدي بذلة رمَادية مَشدودة على جَسده الرياضيّ، وقُبعة صُوفيّة سَوداء. فَتح بَاب السيّارة وانزَلَق خَلف المقوَد مُتفحّصًا بعضَ رَسائل الـ « SMS » المـُدَجَّجة عَلى هَاتفه الـ « Blackberry » عَابثًا بِلحيته الخَفيفة، لحظَتها شدّتني أمّي من سَاعدي ودَفعتني خَارج السّيارة! وعندَ محاولتهَا إدراكِي، استخدَمَ الغريبُ قَبضَتهُ لكَبحِ انسلالِهَا.. أغلقَ جَميع الأبوابِ أوتوماتيكيًّا وانطلقَ يقود على عَجَل! أمَّا أنا فغلبنِي الدَّمع وسَالَ مُتمرِّدًا. أخذتُ أبكِي وأنُوحُ إلى أن بَاغتتني العَجوز من خَلفي وألجَمتْ ثغري بقطعَة شاشٍ أبيضٍ قد ارتوى نَسيجُه بمخدّر حَادٍّ الرّائحة أرخَى عَضلة لسَاني، وأثقَلَ دماغِي.. فاستَسلمتُ.. واستأنستُ.. ثمَّ سَقَطت!

أفقتُ عَلى كَابوس فَظيعٍ فَقَدتُ تَفاصيله؛ لأجدَني مُستلقية عَلى سَرير خَشبي فَسيحٍ، مُرتديّة فُستانًا أبيضَ تَزَيَّنت حَوافه

بطرز أزرق بديع الجمال. لحتُ بِبصري في الأرجَاء وأخذتُ أتفحَّصُ الغُرفة التي بُهرجَتْ جُدرانها بلوحَات فنيّة أصِيلَة؛ رُغم حُسنِ المكَان الذي أُثّثَ بعنَاية إلا أنَّ غصَّة في صدري حَثَّتني على البُكاء، كُنت أفتقدُ والدتي رغمَ فراقنا لوقتٍ وجيز؛ فقد اندَسَّتْ إلى دماغِي أفكار خبيثة سَمَّمَت توقُّعَاتي حَول مَصيرهَا. بَلغ نَحيبي عنَان السَّماء ليَنقَلِبَ إلى صُراخ عَظيمٍ لَفَظَ الكَبتَ من جَوفِي، صِحتُ باسمهَا وسَألتُ عَن حَالها حتّى مللت النّداء، جَفَّفتُ دَمعي.. شَدَدتُ هِمَّتي وأخذتُ أبحَثُ عَن مَخرج للنَّفاذ، إلى أنْ فُتح بَاب خَشبي لامعٌ كُنت في طريقي صَوبَه، وظَهرت من وَراءه امرأة قَصيرة اتّضح ظلُّ حلقتيْ أذنيها عَلى أرضية الغرفة، كَانت السيدة "ماما" بشَحمها ولحمهَا! تَدنو منّي في هُدوء كهرّة جائعة تَتَحضَّرُ لدَكٍّ صِغَار الجِرذَان، ارتَدتُ إلى الخلف مُرتَاعة؛ فابتسمت لي وقالت:

((لا فَائدة من صُراخك حبيبتي! لن يُنصِفَكِ أحدٌ هنا.. كَما أنّي لن أستفيد شيئًا إن آذيتك.. فَسلامتك وجَمالك يُصنّفانك من بين الصّفقات الأغلى ثمنًا في جَنوب "أميركا")).

أدركتُ للتّو أنّي في مَأزق خانقٍ... عَاينتُ شَريط الأحدَاث في ذَاكرتي علّني أهتدي لِسبب وجيه يربطُ لي مَا حَدث مُؤخرًا مع ما جاء في نصّ رسالة "بيل"!.. قطعة الخُبز المحمَّص!.. كَاميرا

المراقبة!.. والآن عَجوز النَّحس!.. وقَبل أن أفصِل في الأمر بيني وبَين نَفسي فُتحت دَفَّة البَاب مجدّدًا ودَخل عَلينا رَجلٌ أنيقٌ ببذلة سَوداء كَلاسيكية يَضع قِناع أرنبٍ أبيضَ اللّون، تَقدَّم منّي في هُدوء كزفير شيخٍ يُحتَضر ورَاح يتحسَّسُ مَناطق حَسَّاسة من جَسدي المرتَعش، لَفت انتبَاهي عِطرٌ قويّ سَكَن نَسيجَ ردَائه، امتَزج برَائحة تَبغ ضاجَعتْ تَدَفُّقَ أنفاسَه، التزمتُ الصّمت ورُحت أتابع ما سَيفعله "بيل" الذي فضحَهُ قنَاعهُ..

فتحَ زرَّ سُترته السوداء وسَحَبَ من جَيبها الدّاخلي طردًا رماديًّا مختومًا بختم أحمَر عَلى هيئةِ القِناع الذي يَضعه، تقدَّم من العَجوز ببطء طَارقًا عَلى بِلاطات الأرضيّة بكعبي حذائه اللاَّمع، ثم أردف قائلًا:

((ماما"... "ماما".. ماما"!.. كَم هو حُلو التَّعامل معك يا "ماما".. لقد أزحتِ عنّي عَناء اختطَاف الصّغيرة.. إليك بالصّور التي التقطنَاها قَبل قَليل في محل الـ«pizza» .. تَفضلي وتفحَّصِيهَا)).

رَسَمَتْ العَجوز ابتسامَة مُبتذلة.. ارتدتْ نظَّاراتها الطبيّة، وعجّلت في استخرَاج مِشرط صَغير من دُرج مَكتب مُجاور للسّرير، وَجَّهَتهُ لفتح الظّرف الذي حَمل في جوفه بَاقة من الصّور، أخذتْ

تتفحَّصُها الواحدة تلوى الأخرى وعَينيها تَرمِيَان شَرَرًا... فَجأة!..كَسَرَتْ حَاجز الصَّمت بَصيحة مُـتَهَلِّلَة، واستَرسَلتْ تَقُول:

((كمَا توقَّعت!! سَتكون هذه من أفضل الصّور التي ستُزين واجِهة مَوقعنا الرسميّ على الويب المظلم!.. كَإعلان لدخُول مَرحَلة جَديدة من الاحترَافية في شركَتنا الضّخمة.. "بيدوفيليا العذراء"!))

ألقَتْ الصّور على السّرير وانشغلتْ بسَحب مَبلغ من المال كَان بحوزتها، حَشَرَتهُ بينَ كَفيّ المقنَّع وأردَفت تقول:

((يَكفيك هذا العَربون عَزيزي "بيل" نظيرَ بيعكَ لنَا هذه الصَّغيرة.. الباقي سأُحَوّله لمحفظتِكَ الالكترونيّة[1] الأسبوع المقبِل...))

استَغلَّيتُ الحِوار الذي جَمَعَهُمَا لأكشطَ غمُوض الصّور؛ فصُدمت من الكَارثة التي وَقعتُ في جُرفِهَا إبَّان تَخديري صبيحة اليوم! هل يُعقل أن المشَاهد الخَليعة التي تَجَلَّتْ أمَامي اللّحظة كنتُ بَطلتها!.. لَقد ظهرتُ مبسُوطة على طَاولة "بلياردو" خَضراء في وضعيّات مُخلّة بالحياء، مُزينّة بقِطَعٍ من الحُليّ والمجوهرَات،

[1] تُستخدم لتخزين عملة البيتكوين.. تَلقيهَا وإرسالهَا إذا ما تمت العملية على مستوى الويب العميق.

تمامًا كجُثَّة فرعونية حُوِّطَت بخرزة زَرقَاء!.. لقَد وُظِّفتُ في عَرضٍ جنسيّ..!فالحَافة السُّفلية من الفُستان الأبيض الذي حُشِرتُ فيه، شُقَّت وسُحِبَتْ إلى الأعلَى فَاضحَة سرًا ثمينًا من جَسدي لا ينبغي على البَالغين رؤيته!

تَفطَّنتْ العَجوز لأمري فَقامت بتَقْريعِي مُمسكَة أحَد أذنيّ بقَبضتهَا اليُمنى، دَفَعتْ بتَابعٍ لحراسَتي وانصرَفت. دَلَفَ الحَارسُ حَاملًا سينية صَغيرة استَقرَّتْ عليهَا وجبة "برغر" سَاخنة وبَعض البطَاطس المقليّة وعُلبة صُودا مفتوحة الغِطاء. لَم أُحبِّذ قطعًا فكرة التلَّذُذَ بالوجبَات السّريعة؛ ولكن ما لحقني اليوم من نَصبٍ جَعلني أفنِي الطَّعام عَن بُكرة أبيه، وأتغافل عَن محتوى المشرُوب الغَازي الذي مُزجَ بمخدر قويّ دَفعنِي إلى السّرير المجاور، فَبَسَطتُ جَسَدي على إسفنجه غير مُدركة لما يُحضّره لي الغد!

بَددَتْ شمسُ الصّباح أطيَاف اللَّيل، وفَرَقت كُتَل الغَيم على كُلِ بَيت. أحسَستُ دفأها يُغَازل مَواضِعَ النِّمشَ على وجهي فبادرتُ بفتح عينيّ لأُفاجأ برَهطٍ من الغرباء تَتوسطهم "ماما"! يحملقُون في شَكلي بأعينٍ هلالِيّة رسَمَت الشرِّ على خِلقَتِهم؛ صُورهم الذَّميمة أظهَرَتهم كشيَاطين القِصص المـُصوَّرة، رَوائحُهم النَّتِنَة لُفِظَتْ جُملَة من قَعر جَهنَّم. تَراجعتُ إلى الخلف وصِحتُ مشتّتَةً

جَمعَهُم، ثم أعلَنتُ التَّمَرُدَ ونَفذتُ من الغرفة أتبَعُ ظلّي؛ ولكن هَيهات! فَما إن وَضعت قَدمي على المصعد حتّى سَقَطتُ من فَرطِ الكرى، شدَّ أحدُ الحرّاس خصلَة من شَعري وجرّني كالكَلبِ إلى غرفة نَومي؛ فتَعَالَت صيحات "ماما" وهُتاف من التفُّوا حَولها انتشاءً بتعذِيبي. نَطق أحدُهم قَائلًا:

((بَشرة بَيضاء كبيضِ السّلاحفِ.. قِوامٌ ممتلئ كالدّيسَم.. هَل سَأحظى بليلة مَعها يا "ماما"!))

ردت عَليه بحَزمٍ:

((سَيد "داندي" كَفاك مُزاحًا الآن.. تَعلم جيّدًا أن "سوزان" ليسَت في مُتناول الجميع.. كَما أنَّها غَير مُهيّأة لمثل هذه العُروض.. سَنرسلها أوّلًا إلى مَركز التّدريب الجنسيّ بـ"فورتاليزا".. وبَعدها نفصلُ في أمر العُروض الإباحيّة الأنسب لمؤهّلاتهَا)).

ابتسمَ الرَّجُل ابتسامةً مَلأت فضاء الغُرفة قرفًا وفجورًا، تقدَّم خُطوتين رافعًا يده اليمنى إلى الأعْلى ومنحنيا بجسده إلى الأمام كَأنه مايسترُو على أهُبَة تَقديم عرضٍ موسيقيّ.. أردَف يقول:

((يَسرّني أن أعرّفك على نفسي أميرتي الفَاتنة!))

واسترسلَ في الكَلام المبَاح جَاعلًا من نفسه نُكتة يتسلَّى بسمَاعها الحَاضرون، لقد كَان السيد "داندي" رجُلًا أسمرَ بدينًا؛ يتعمَّد دائمًا إرخاء حِزام سرواله الجينز ليريحَ بطنه المحدَّب، لم يمنعه قِصر قَامته من ممارسة مَهامه كحَارس شخصيّ للسيدة "ماما". رُغم انحرافه المـُلفِت وسلوكه المـُشِين وانشغاله بتجارة الجنس في أرض الشّهوة "ايروتيكا لاند" بـ "ساو باولو"؛ إلاَّ أنَّه لم يَحرم دِمَاغه من تَلَذُّذِ حَلاوة المطَالعة، فلقد نَوَّهَ بأن آخر كتَاب تصفَّحه يَعود لبائعة الهوى البرازيلية "ريشيل باتشيكو[1]".

كَان الجَميع يقَهقهون ويحتسُون كُؤوسًا من نبيذ أحمر قان؛ أما أنا فانكَمَشتُ أراقِبُ مَا سَيؤول له الوضعُ بعد خُمُولهم وذهاب عُقولهم.. اقتربتْ منّي العجوز ووضَعَتْ رَاحة يدها أعلى ظَهري، ثم ألقَت بكَلامها على "داندي" لَحظَة فَركِه الصَّلعَة البَارزة من حَقل شَعره كرُكبة أطلَّتْ من فَتق سِروال..

(("داندي"!.. كَفاك مُزاحًا الآن.. تَعلم جيّدًا أن تجارة جِنس الأطفَال في"البرازيل" تهَاوت مُؤخّرًا أمام نظيرتها بـ"تايلاند"؛ فَقد استقرّتْ حَصيلتهم الحاليّة بين ٢٠٠ و٥٠٠ ألف طفل يتِمّ

[1] نَجمة إباحة برازيليّة سَطَعَ نَجمُهَا بتأليفهَا كتاب "سُم العقرب الحلو"؛ الذي تجاوزت مَبيعاته عدَّادَ المائة ألف نُسخة خِلال عام واحد من إصداره.

استغلالهم جنسيًّا! ولم يبقَ لنا لحفظِ ماء الوجه سِوى المنافسة بالجودَة)).

تنحنَحتْ قليلًا شاخصَة ببصرهَا نحوي وتَابعت حَديثها قَائلة:

((تُعدّ "سوزان" من أفضل الأطفال الذين استقبلناهم في مُنظمتِنَا.. وبعد تكوينها بـ"فورتاليزا" ستغدُو نجمة إباحيّة ومصدرَ ثروة.. سيّد "داندي" لو لم تكن صَفقة "سوزان" تَستحق لما جَازفتُ بدفع مَبلغ كبير لـذلك الغَريب "بيل"!.. سيّدة أعمَال مثلي لن تَفشل في أمر كَهذا.. إنّي أعتمدُ عليك في نَقلها إلى البرازيل بأقصَى سُرعة مُمكنة.. فهل كلامي واضِح؟))

((واضح "ماما" واضح!.. أعدكِ بتحويلهَا هذا الأسبوع إلى مَركز التَّدريب)).

أحاطَ الضيقُ بقلبي فأضحَى استنشاق الهَواء وزفيره أمرًا يصعبُ تَدَوُلُهُ بين هؤلاء المَسعُورين، حَاولت التَّظاهر بالقوة أمَامهم ولَكنّ مجرّد التّفكير في والدتي جعلني أحنُّ كثيرًا إليها وإلى البيتِ الذي كَان يَلُمُّنَا؛ الأمرُ الذي أحالنِي لطفلة صَغيرة لا حَولَ لها ولا قوّة. سمحتُ لدموعي بالانسيَاب، وانطويتُ في زَاوية الغرفة مُنتظرة قرَار القَدَر. دَاوَلَ الجَمعُ على الانسحاب مُصاحبينَ معهم عَجيجَهمُ ولَغطَهُم لأبقى وحِيدة في غُرفتي؛ كَطائر حُبِّ عُزل عن

زَوجه ووُضعَ بقفصٍ مُحبِطٍ لم تنجح ألوانُه المبهرَجة في إبهاجِ فُؤاده.

***

*"انتهت الجلسة العلاجيّة الأولى بانهيار المريضة، وإصابتها بتوترٍ عصبيّ. يُعدُّ الأمر طبيعيًّا لطفلَة في مِثل سِنِّهَا.. سأكون حذرًا في التَّعامل معَهَا مُستقبلاً".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل الثالث: غُموض«Savage babies»!

### الجلسة العلاجيّة الثانية: الجمعة ١٢ أغسطس ٢٠١٦

يَوم مُشرق غازلَ شَوارع "شيكاغو" الباردة؛ كَأنَّ الرَّبيع أخذَ يُسَابِقُ الشّتاء على مَوعِده قَبل أوانه، وَقفتُ حَائرة بين الملاَبس التي سأنتَقيهَا للسّفر في هذا الجوّ المتَقلّب؛ فَقد بَلغنِي أنَّ رحلَتنا الجويّة إلى "البرازيل" ستَنطلق صَبيحَة اليوم، وأني قد تحصّلتُ على جَواز سَفر مُزيّف بهويّة تُثبت صِلَتِي بالسيّد "داندي"كابنة شرعيّة! وَمَضت في ذِهني خُطة النّجاة الوَحيدة من هؤلاء الآثمين لحظَة تَفَطُّني لأمر الوثَائق المزوّرة التي أُسنِدَتْ لشَخصي؛ كنتُ أنوي الصّراخ والتمَاسَ نَجدَة أمنِ المطَار حَال ثُبوت مَوعد إقلاَع الطّائرة، وبالتَّالي تَخليص نَفسي وأمي من هذه العصَابة القَذرة.

تَظاهرتُ بالرّضُوخ والانصيَاع لما تُمليه الأوامِر، ارتدَيتُ فُستانًا بنيًّا طَويلًا مُزيّنًا بأزهار بيضَاء مُتلألئة، لَملَمتُ خصلاَت شَعري إلى الأعلَى وتركتُ نهايتهُ تَنساب على رَقبتي كَذيلِ الحِصَان مُخفية بَعض الكَدمات التي تكَوَّرت على رَقَبتي لَيلة أمس بَعد محاولة أحد الحُرَّاس خَنقي والتّحرش بجَسَدي؛ ولكن "العجوز" مَاما

مَنَعَتهُ وعَاقبته مُعتبرة جَسَدي سِلعة للعُروض الجنسيّة!لا أداة لإشبَاع نَزوات عَابرة.

ما إنْ جَهّزت نَفسي حتَّى سمعتُ رَجرجَة البَاب تَضربُ سَمعِي، تَلاها دُخول العَجوز "ماما" رفقة حَارسها الشّخصي وكَلبِهَا الأمين "داندي"،هَيأته اليوَم تبدُو مُغايرة عن سَابقتها! فَبدل أن يحمِل كِتابًا ليُطالعه كَالعادة، أبَان نفسَهُ في زيّ الممَّرض! بنظَّاراتٍ طبيّة رفيعة الزجَاج، وحُقنة صَغيرة ارتوَى جَوفها بسَائل أزرق فَاتح، كُنتُ أعي أنَّ جَسدي سَيتلقى هذه الحُقنة الحِين، ولكِن تَفكيري أخَذ ينتفِض ويَلفظ أفكارًا مُرعبة عَن المصِير الذي سَتؤُول إليه طِفلة في مثل سنّي بعد حَقنِهَا بهذا السّائل اللَّعين!

دَنى منّي "داندي" بخبثِ ابن آوى.. أزاح قُماش الفُستان أعَلى ذِراعي اليُمنى، وشدَّها بشَريط مَطاطيّ ظَهرت تَحته شَراييني، اختَار أحَدها.. عقَّمه بمُطهِر طبيّ وبحركَة سَريعة غَرز الحقْنة في ذراعي ثمَّ سَحَبها بَعد أن أفرَغَ مُحتوَاهَا. ابتسَم لي وعَاد إلى العَجوز يخبرُها بأنّي سَأتهاوى بَعد لحظَات تحتَ تَأثير المخدّر!.. قَبل فُقداني للوعي استطَعت سَماع آخر مَا دار بَينهما من حَديث، فَقد أضَافَ بأنَّ السَّائل «LSD[1]»، أفضَل بكَثير من حُبوب "دوتس"

[1] ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك، أحد عقاقير الهلوسة الخطيرة، يُستخدَمُ طبيًّا عند الضّرورة.

أو "تابس"؛ فمفعُوله سَيصِيبني بالهلوسَة والأوهَام لأعَايشِ حالة تُدعى: «The Bad Trip»، ما يَقلبُ عالمِي الحقيقي إلى السريالي، ويجعَلني أجهَل ما يدُور حَولي وأنسَى أمرَ رحلتِي إلى البرازيل!

لقَد زَادت نَبضات قَلبي خَوفًا من فشَل خُطّة الهُروب التي أزمَعتُ على تَنفِيذهَا.. يا إلهي...! هل يَعني هذا أنّني... أنّني... قَدْ خُدعْت!

ضجيجٌ صَاخب أسَال مَاءَ أذنيّ.. ودَفعني لرَفع رَأسي الوَبيل استقصَاءً للوَضع، لوهلَة ظَننت نَفسي أرقُد بملعَب "بيسبول" بَين أحضَان مُدرجات غَارقة بالجمَاهير، ومَا أن استَرجعتُ شَريط الأحدَاث حتَّى اتّضحت لي خُيوط رَفيعة من أصلِ الحَقيقة؛ ولكنَّها غَير كَافية لإدرَاك مَا أنا مُقبلة عَليه، كُنت مُستلقية عَلى أريكَة بُنية طريّة الإسفَنجْ، وبجانبي السّيد "داندي" يَحمل أوراقًا طبيّة ويحدِّثُ أحَد أعْوان الشُرطة داخِل بهو المطَار؛ كَان يُخبره أنّي ابنتُه الوَحيدة وأنَّ عَليه السَّهر عَلى عِلاَجي بأحَد المستشفَيات الحكُومية في مدينة "فورتاليزا"، أطلعَهُ عَلى مِلفي الطبيّ الذي كُنت أنَا نَفسي أجهَله، مُعكرًا ملامحَ وَجهه الأسمر وكَأنه مُستاء من زَحَم المكَان حتَّى برزتْ التَّجاعيد على تَفاصيله كوضُوح الشمس في السَّماء؛ فمن يَراه يخاله يُجسّد مَشهد "برُوفة" أمَام أحَد مخرجِي الأفلاَم. أنهَى حَديثه دَاعيًا الشرطي أن يَزوره في

مَنزله بـ "شيكاغو" بَعد عَودته من رحلة العِلاج طَمعًا مِنه في كَسب ثِقته، أو ربمَا لاستخدَامه في غَاية لم أحزرها الآن!.. لقد كَان رَجُلَ أمنٍ مُغفَّل.. كَيفَ لَا وَقَد انطلَت عَليهِ حِيلةُ العلاَج في "البرازيل" رُغمَ أنَّ بِلاَد "العمِّ سَام" أكثَرُ حَداثَة في الطّبِ والبَحثِ العِلميّ عَن غَيرهَا من دُولِ الأمريكِيَتين.

شَعرت أنَّ عليَّ الانتِفاض وفَضح ما ادعَاه "داندي" للتّو كبداية لإنجاحِ خطّتي في النّجاة؛ ولكنّي عَزفت عن ذَلك لا شُعوريًّا! فَدماغي مُقبل على الانفِجار مِن فَرط ما تَعاطاه مِن مخدّرات، وتَغذيته بِقليل من الرَّاحة أمرٌ وَاجب ومَنطقي في عَالم لا مَنطقي!.. انكمشتُ عَلى نَفسي كَجنين في بَطن أمِه، واكتَفيتُ بمتَابعة المارَة حتَّى أخَذني النّعاس فاستَكَنْتُ ونمتُ إلى حِين.

(("بَاميلا"!.. استيقِظي!.. "بَاميلا" أتسمعِينني! رحلتنا سَتنطلق الآن يا صَغيرتي)).

أفَقتُ من غَفوتي عَلى صَوت "داندي" وهو يُخاطبني باسم دَخِيل، انتَصَبتُ عَلى قَدميّ ودَخلتُ مَعه جَوفَ الطَّائرة، ومَا إن أرخَى الجمِيع عَضلات مُؤخراتهم وسلّمُوها للمقَاعد المصْطفة حتَّى أقلعنَا بسُرعة لاَهِثَة وكَأننا نُسابق الزّمن؛ فَهكذا تَبدو الأمُور

لطِفلة مُخدّرة تَشتّت وَعيها وفَقدت تَوازنها ما بينَ السَّماء والأرض.

أمضَيتُ وَقت الرّحلة أسبحُ في مَعالم وجه "داندي" الهَادئ مُحاولة تَخمين مَا تَكتنُز عَيناه الصّغيرتان من أسرَار، أردتُ سُؤاله عن سرّ مُناداته لي "باميلا" بَدلًا عَن "سوزان"؛ فباغَتني بالإجَابة قَبل أن أنبسَ ببنت شفة...

(("باميلا".. يَبدو أنّك تتَساءلين سرّ هذا الاسم!..حسنًا سأروي فضولك.. لَقد ظَهر في نهاية القَرن السَادس عَشر عَلى صَفحات كِتاب "أركاديا[1]".. أعجَبني كثيرًا فأطلقتُه عَليك.. لا تَجزعي سَيكون استخدَامهُ مُؤقّتًا تمامًا كَمفعُول الـ«LSD»، وبمُجرد وصُولنا إلى وجهتنا سَتنقلبين مُجدّدا إلى الحسنَاء "سوزان")).

كَانت إجَابة مُتوقَعة من شَخص كرَّس حَياته لقراءة الكُتب الآبِدة؛ لذَا لم أظهر رغبَة في مُشَاركته الحَدِيث، وفضَّلتُ إراحة أذنيّ بمعزوفَات مُوسيقية للفنَّان «yani» التي دُجّجَت في هَاتفه النقَّال!

[1] قصة حبّ كتبهَا السير فيليب سيدني في نهاية القرن السادس عشر.

لم تَكن رحلتنا إلى "فورتاليزا" بالطّويلة المملّة ولا بالقَصيرة الممتِعة؛ ولكنَّ حَنينِي لوالدتي والضّغط النفسيّ الذي آلمنِي ضَيّقاَ الخنَاق عَلى قَلبي وجَعلا الرّحلة تمرُ عليَّ كألفِ سنة!

صَاحَبَ خُروجنا من المطَار استقبَالنا مِن طَرف سيارة مُصفحة سَوداء، عَلى مَتنها ثَلاثة أشخَاص يَحتَمُونَ بِبدلات رسميّة دَاكنة الألوَان؛ أُرغمتُ عَلى الجلُوس في المنتصَف بين "داندي" وأحَد الرّجال، ثمَّ انطلقنَا بسرعة رَقَصَ على إثرها مُؤشر العدَّاد، ما يُظهر مَدى تمكُّن السَّائق وتَمرّسه في هذا العَمل... خِلال سَاعة واحدة من السّير والانعطَاف أدركنَا أحد الأحياء الشعبية الفَقيرة المحَاطة ببنَايات عَتيقة وأخرى شِبه مهدَّمة؛ زُيّنت حِيطانها برسُومات "جرافيتي" حَملت رَسائل تمرّدٍ على الحُكومة. تعَمّد السّائق خَفض السّرعة أثناء تجواله بين الأزقة الضيّقة حتَّى يتدارك الوقوعَ في الحفر العَميقة التي شوّهت الطّرقات.. أطفَال بمَلاَبسَ رثّة يَرمُونَنَا بأعيُنهم ويُلاحقون السّيارة المصفّحة طَمعًا في اغتنَامٍ بعض الصّور، بَائعات هَوى تلوّحنَ بأيديهن للفوز بجيوبِ أحد المارّة الذِين اعتَادوا زيارة هذا الحيّ من أجل إفراغ الشّهوة؛ أمَّا أنا فاستكنتُ بمكَاني خَوفًا وحَيطة وترقبًّا إلى أن تَوقفنا على وَهادٍ أمَام عمَارة عَتيقة، تجمّعت الجرذَان عَلى حَوافها لتَتقاسم مَع الفُقراء بَقايا طَعام المزَابل.

نَزلنا جَميعًا وولجنا إلى الدَّاخل في هُدوء تُسمعُ له الأنفاس، وعَلى عَكس ما توقَعت لم تَكن وجهَتنا إلى أعَلى بَل كَانت إلى أسفل عَبر سُلّم مَعدني حَجبتهُ بَوابة حَديديّة صَدئة ثُقِّلت بالأقفَال، وبَلغت نِهايته بيتًا كبيرًا عامرًا بالأطفَال!.. إنها "بيدوفيليا"... "بيدوفيليا العذراء"!

تقدَّم "داندي" أمَامنا وهَبط إلى أسفَل واضعًا كِتابه الرّفيع بين شَفتيه؛مُكَلِّفًا أحد رجَاله بإنزَالي على مَهل، كَان كَعب حِذائي الأسوَد يصنَع لحنًا بديعًا كُلَّما اصطَكَّ بالعمُود المعدَني للسلَّم، وقَد زاده جمالًا صَوت الصّدى العَميق المتكرّر. لحظَات فَقط كَانت كافية لوصُولنا إلى القَاع وبُلوغنا خطَّ الإنَارة القويّ، شَعرتُ بنوع من التَّوتّر صَاحبه وَخز مُستمر بمؤخرَة رَأسي؛ وهو شُعور عَادة ما يُراودني أثنَاء تَجربتي لشيء جَديد، شدَّت انتبَاهي مَجموعة من الثُقوب الدائريّة الكَبيرة المصْطفة بنِظام على حَواف الجُدران العلوية، استَقصَيتُ حَالهَا فَأخبروني بأنَّها ثُقوب تهوية مُخصصة لتَنفيس الغُرف، تُفتَح صيفًا لدَحر الرّطوبة وطَردِ الفِطريات والعَفن، ويُغلقُ بَعضها شِتاء حتَّى يسلم الجميع من لفحَات البرد.

أحببتُ تصميم هذا البيتِ الأرضي؛ خُصوصًا بعَدَ تَعمُّقِنَا في رواقِه الذي لاَ يَكَادُ يَنتَهِي، حَملَت جُدرانه أبوابًا زهريّة اللّون طُبعت عَليها قُبلات حارّة، وفَاحت من غرفها عُطور سَاحرة؛ فَرُغم

اختطافي ورَميِّي في بيتٍ مَجهُول إلَّا أنَّ لُعَاب الفُضُول قَد سَالَ وسَاحَ وأبَى إلاَّ النّزُول.

بلغنَا نهاية الرِّواق لنجدَ في استقبالنا شَقراء جميلَة تَضَعُ نظَّارات طبيّة وتَتَستَّرُ بلباس كلاسيكيّ أسود، صَافحتنِي وعَانقتنِي ثم سَحَبتنِي إلى جَوفِ قَاعة بيضاء يَتَوسَّطُهَا مكتب صَغير ومقاعد خَشبية اصطفَّت بإتقَان، تتَربَّعُ عَليها قُرابة الأربَعين طِفلة في سن الزّهور؛ دلَّتنِي على مَقعدٍ ودَعتنِي أن أربضَ عليه لأقدّم نفسي لكَوكَبةِ من البنات، كُنَّ يَجتررنَ العِلكة كبقَر المراعي الألماني، في لَحظَة واحدة من الثَّبات اجتمَع الخوف والتوتر في قلبي المنهَك؛ فصرختُ في الحضور دُون أن أعِي أو أعرف:

(( مَاذا يحصل هنا بربّ السّماء! أين أنا!.. أين...!!))

...وقَبل أن أوَاصِلَ.. أطبقتْ صَاحبة النَّظارات الرَفيعة بيديها عَلى ثَغري وحَرَمَت لسَاني من الكَلام، ومَا إن أرخَيتُ جِسمِي واستَكَنت حتى تركتني وصَعدت على منصّة خشبيّة حَاملة "مايكروفون"، وأردفتْ تَقول وهي تمرّر سِلكه الطّويل بَين سَاقيها النَّحيلتين صَانِعَة إيحاءات جِنسيّة لا تَسُرُ النَّاظِر:

((عَذراوات بيدُوفيليا".. ضَيفتنا اليوم طِفلة من أصُول عَربية تُدعى "سوزان".. بَدت للتّو كأنثى فيلٍ إفريقي هَائج!.. تحبُ القيَادة.. تَعشق التَّمرد وتستمتْعُ بعزوفِهَا عن تَنفيذ الأوامر.. جَمالها وقوامها أرغمَا "ماما" على تَصنيفها ضمنَ الصّفقات المربحة لمؤسّستِنا.. آخر إحصَائياتنا تَقول أنَّ ثمَانين بالمائة من زائِري شَبكة الويب المظلِم يتصفحُون مَواقع "البيدوفيليا"!.. فبانحناءات جَسدها المثير الذي يحتَاج قَليلا من المعَالجة سَتنجح في استمالة الزّبَائن الذين لن يتردّدوا في الدَّفع مُقابل التَّمتع بمشَاهدة عَرض مُغري لطِفلة يَافعة تَحمل قوام شابة بالغَة.. من اليوم فصَاعداً سَتشارككم "سوزان" الجلسَات التَدريبية الجنسيّة بجميع ضرُوبهَا.. وبعدَها سَنحسم في أمر انضمَامها كَبطلة للعرضِ الساديّ الشهير « My Little Wife ».. الذي سيُبثُ شهريًا على مَوقعنا الالكتروني المخفيّ.. ومن يَعزف عن مُواصلة التَّدريبات الجنسيّة بمؤسَّستنا سيُعرض للبيع في السُّوق السّوداء للنساء بأحَد أشهر مَواقع الويب المظلم إذلالًا للمرأة وانتهاكًا لحرّيتهَا)).

وقفتُ من مَكاني نِصف مُخدرة وكَأنّني أحَاكِي كَابوسًا يأبى الزّوال أفَاقَتنِي منه طفلة هنديّة تَربضُ في المقعَد الأمامي، كوّرت

قِطعة من العلكة بلسَانها ثم قَذفتها أرضًا مُبادرة بطَرح سؤالِ هَجرته نَبرة البَراءة، قالت:

((آنسة "فاليريا".. تُوجد بَيننا فتيات تَجاوزن الرابعة عَشر من العُمر.. ماذا لو حَدث لهنَّ حمل أثناء التَّدريبات الجنسيّة التي تشرفون عَليها!))

دَفعتني تِلك الشّقراء بعيدًا لتَتَرَبَّعَ بين أحضَان المكتَب، سَحبت سِلك "المايكرفون" إلى الأعلى وطَلبت منّي حمَله مُتعمدة إظهَاري كتَابعة لها، ثم استهلَّت في الإجَابة قَائلة:

((الأمرُ هَيّن ولا يَدعو إلى التَّفكير عَزيزتي.. إن صَادف وحَدث حمل بين الفتيات البالغات فهذا ليسَ بالأمر الجلَلْ.. نحنُ نتَعامل مع زَبون خَاص على الشبكة المظلِمة.. وهو مُدير أحد المواقع الإلكترونيّة الشبيهة بموقع «Stillborn baby[1]».. التي تُدرّ أرباحًا مُعتبرة من خلال نَشر صور لمولودِين جُدد تعرضوا لعَمليّات إجهَاض حَديثة.. يَستمتع بمشَاهدتها نخبة هَامة من الفُضوليين.. فأي فتَاة تحمِل جنينًا ببطنِها سنَقوم بإجهاضِه قَبل ولادته بشهر

[1] موقع الكتروني على شبكة الويب المظلم، ينشُر صورًا لمولودين تعرّضوا للإجهاض.

أو أقل.. حتَّى يتسنَّى لنا بيعهُ لمدير هذه المنظمة بهيئتِه المكتَملة.. عَليكنّ التَّضحيّة مُقابل جَمع المال.. فهذا قدركُنّ)).

ابتلعتُ ريقي حتَّى جفَّ حَلقي تَأثُّرًا بالأزمَة، وهذا ما تَوَسَّمَتهُ الرَّشيقة "فاليريا". استَقَامت من مَجلِسهَا ورفَعت يدها اليُمنى إلى الأعلى؛ فانتصبت الفتيات وكأنهنَّ فَيلَقٌ من الجَيش، نظَرت إليّ مُرخية جُفون عينيها كثَعلب أحمر يحضّر لحيلة سَافلة، ثم دَعتني إلى الانضِمام إليهن وهي تَقول:

((سوزان"!.. سَتنضمين إلى شلّة الفتيات الحسنَاوات اللَّائي سَيتنافسن مَعكِ على بُطولة عَرض «My Little Wife».. دَعيني أعرفكِ عليهن:

الشّقراء الأمريكِية "بيتي".. المدلَّلة اليابانيّة "هون اوك".. وأخيرًا السّمراء جنوب أفريقيّة "سيارا")).

غَرقت القَاعة في سُكون مُقلق كفُقاعة في عُمق المحيط، تَجاوَزَته "فاليريا" بكَلمات حادّة تعكِس وجهًا شاحبًا خَمرَهُ جمَالها، حيث قَالت:

(( لَقد بسَط اللّيل فِراش الظَّلام.. وآن الأوان للأكل والنَّوم بسلام.. قفوا جميعًا واصطففن كَزوجين.. واتبعِنَني إلى قَاعة

الطَّعام.. فَهناك تنتظركُنَّ وجبَاتكنَّ المعتَادة.. وجبات الأغنيَاء.. استمتعنَ يا بنات السّيدة "ماما"))

حَسَمَت حَديثها بصَرخة جَهورية امتزجت نَغماتها بانشرَاح، ثمَّ سَاقتنَا إلى نَفس الرّواق الذي أتيتُ منه أوّل مرّة، تَوقفت أمامَ أحَد البوابات الحديديّة الكبيرة وتوقّفَ معها طَرق حِذائها، أخَذت وقتًا طويلًا في فَتح البَّوابة ثم انسلَّتْ إلى الدَّاخل ونحنُ نَتبعها كفِراخ بطّ تَتسابق للقفز في حَوض السّباحة، أنَارت لنَا الفوَانيسَ ففرَّ الظلام مُفسِحًا الطريق على قَاعة شَاسعة جَمَّلَهَا نُورٌ بَديع؛ فتَجَلَّت طاولات من خشب الزّان احتوت كُل واحدة منها على أربع كراسٍ نَاظِرة للعيَان.

اختارَ كل فوجٍ طاولة مُنَاسِبة؛ بينَمَا وقفت مُحتارة لا أدري ما العَمل، أمسكَتنِي "فاليريا" من يدي وسَحَبَتنِي إلى مَقعَدٍ نَاعم الملمَس، أمرتني بالجلوس لأشَاركهَا وَجبة العشَاء على اعتبَار كوني حَديثة اللّجوء إلى هُنَا. تَبادلنا النَّظرات لدَقائق وثوان حتّى وصلت وَجبة العشَاء على مُستَودَعٍ من الأواني؛ والتي لم تَكن سِوى طبق من "بلح البحر" وآخر من "جريتان المحار"، تَتوسطهما ثمرة "أفوكادو" خضراء كَكَوكبٍ في عَرضِ الفضَاء.

ارتسَمت مَعالم الضَّجر على وجهي؛ فهَأهَأت "فاليريا" من ردّة فِعلي وهمَّت تقول:

((المحار والأفوكادو من الأغذية المسَاهمة في زيادة الشّهوة الجنسيّة.. لهذا يتم تَقديمه هنا ثَلاث مرات أسبوعيًا كوجبة رئيسيّة.. عليكِ بذل جُهدك في إنهاء الطبق والتعوّد عليه.. وإلا سَترسبين في امتحان القُبول الذي يلي برنامج التَّدريبات الجنسيّة مباشرة)).

تَذوقتْ نزرًا من المحار ثمَّ تعمَّدتْ لعقَ إبهامهَا في حركة شهوانيّة رَامية بحديثَها نحوي...

((لقد كنتُ أتحاشَى تناولَ الوجباتِ البَحريّة في صغري.. ولكن بعدَ عَمَلي فترة لصالح أحد مواقع "السَّحق الجنسيّ" تعلَّمتُ أنَّ المُتعة الحقيقيّة تكمُن في تَجريب ما يعَافهُ الوجدان.. ستضطربين قليلًا عند البدء ثمَّ سَتنتشينَ بعد التَّعودِ.. تمامًا كَسحقِي للحيواناتِ الأليفة من أرانب وطيور بِكعب حِذائي إبان تقديمي للعروض الجنسيّة المباشرة «sexual crush[1]».. فالأمر يا عزيزتي ينطبقُ على الطَّعام أيضًا)).

[1] عروضٌ ساديّة يرعاهَا الويب المظلم، تُظهرُ نساءً يَسحَقنَ حيوانات أليفة بأقدامهنَ حتَّى الموت.

أومَأتُ بالرّضَا رُغم عزوفي عن الأكل؛ فيمَا بَاشر الجميع التهَام الأطبَاق.. بل وطلبِ المزيد أيضًا، إلى أن دقَّ جرس القاعة؛ فَما كَان منَّا سِوى الاتجاه إلى أحد الغُرف العلوّية التي تُقَاربُ سَطح الأرض قَصد الخلود إلى النّوم بعد أخذ قياسات الوزن.. أمَّا نومنَا في هذا الموضع فراجعٌ لكون التَّهوية هناك أكثر إنعاشًا من الأسفل، وكمَا ظَنَنَتْ فالأسِرَّة نَظيفة ومُلائمة للسّباحة في بحرِ من الأحلاَم والأمل.

***

مرَّ على مُكوثي في هذا الوَكر شَهران من الألم والعَذاب، ابتغيتُ فيهمَا الموتَ ألفَ مرّة بدلًا من الحياة. لقدْ اصطدَمتُ بعَالم شائنٍ لا يَنبغِي له الوُجُود، عَالم ينعَشُ في الظّلام ويَضمُرُ بَعدَ الصُّبحُ، ثمَّ يَعُود ليَمتَّصُ بَراءة بَنات أترَاب لا يَزلنَ في سنّ الزهُور؛ فالدّروسُ التّي كنْت أتَوقّعها مُحاضرات تُلقى علينا في القاعاتِ لم تَكُ سِوى مُمارسات جِنسيّة يندى لها الجبِين! مَع شَباب في العشرينَ منَ العُمر لَفَظَتهُم "ساو باولو". لم يكن الأمرُ يُربِكُنَا رغمَ الأضرَار التي مستنَا؛ ولكن الرّعبَ الحقيقي الذي تَحَزَّم لنَا سَيَلتَقِطُنَا بعد الانتهاء الرّسميّ من مُهمَّتِنَا، حينَ تسهرُ المديرَة "ماما" شَخصيًا على تَجريدنا من ملابسنَا وَحَشرنَا بينَ أحضَانِ كُهول صَقلوا دنَاءتَهُم على عَرضِ الأطفَال ليمَارسوا

عليهم الرّذيلة أمَام عدسَات الكَاميرا وفي وضعياتٍ مُخِلَّة بالحيَاء تُجسّد اعتداءاتٍ ساديّة مُحرّمة تُثيرُ الشَهَوَات؛فهكذا تَقول إشاعَات سرّبتهَا بَنات يَكبرننَا، والتّي بَاتت تَرسُمُ لَنا كوابيسنَا قَبلَ الخَوضِ فينَومِنَا.

سَتَتغيّر المعَادلة بلا شك من مُمارسة جنسيّة لشبابٍ يَافعين يقومُون بمَا تمليه عليهم غرائزهُم إلى كُهولٍ في سنّ الآباء يَعتدون وَيُنَفِّذونَ ما تُمليهِ عَليهم شَهَواتُ الجُمهُور الذين سَيدفعون كُلَّ مَا يملكون من العُملة الرَّقميّة "البيتكوين" مُقابل الاستمتَاع بعَرضٍ فَريد لن تَضمَنهُ لهم شَبكة الويب العَادي؛فالأمر بذَاتهُ جَريمة تَستَدعِي تدَخُّلَ "الأنتبرول". لهَذا تَعتمد هذه المنظمَة الربحيّة على جنيّ الأموال وحِماية العُمَال من خَطَر السُّجُون باستخدَام "الويب المظلم"المـلعُون.

يَوم مُشرق رَبيعي ابتلَعَ غَيمَ الشّتَاء وبَسط دِفأه على أرض "فورتاليزا" الجَرداء. بَعد استشعَاري حَالة الطّقسِ من خلال الثّقوب الكَبيرة التي تَعلو جُدران المبنى؛ هَيّأتُ نفسِي وصَديقاتي للخرُوج إلى التَّسوق بَعد أن قُبلَ طلبنَا الذي رَفعناه إلى الإدارة العُليا ودُوِّنَ في الجدول الأسبوعي المعلَّق في حَرَمِ الرّواق.أفقنَا باكرًا وغيّرنا مَلابسنا استعدادًا للمُغادرة مَع أحد الأتباع؛ولكن الرياح تَجري بلا ما لا تَشتَهي السُفُن؛ فَقد تَدخَّلت "فاليريا" وأجّلت

مَوعدَ خروجنَا إلى إشعارٍ غير معلُوم، مُبَرِّرَة أن اليوم هَام بالنسبة لنَا؛ فقَد بُرمِجَ فجأة كَموعدٍ لتَخرُّجِنَا وولُوجِنَا عالم الاحترَافيّة في هذه المنظمَة الخَفيّة.

لم نَسعَد قَطّ بهذا الخَبر؛ ومَا كان منَّا سوى الذهاب معها إلى قَاعة الاجتمَاعَات لمعرفة ما تُخبؤُه لنَا النّتائج النّهائية للتّدريبات، كُنت أوّل فتاة تَلِجُ القَاعَة وتصطَدم بأريج عطرٍ سَاحر، رفعتُ رأسي قَليلًا لاستقصاء المكان؛ لأُفَاجأ بالسيّدة "ماما" تَقف أمَامي وبرفقتها رَجل طَويل بهي الطلعَة، يَضع على أذنيه قِرطين حَلقيّين كَبيرين، ويحملُ بيده حقيبة جلديّة سَوداء، كما أن السيّد "داندي" كانَ حاضرًا أيضًا حين فاجأني بقوله:

(("باميلا" لقد كبر صَدرك حقًّا!))

تجاهلتهُ ودَلفت إلى الدَّاخل وخَلفي فَيلقٌ من البناتِ الأترَاب، جلسنَا في أماكننَا وانتظرنا ما سَتبوح عَنهُ "ماما" التي كَانت تحملُ "مَايكروفونًا" لاسلكيًّا وتتحسَّسه بيدهَا لتتأكد من عمَله، ثم مَا لبثت أن استرسلت تَقول:

((يَبلغُ عددكنَّ الآن سبعا وثلاثينَ طِفلة.. وهَا قد نَضجتْ أعضاؤكنَّ الجنسيّة قبل البلوغ.. لقد نَجحت منكنَّ تسعُ فتيات..

أما الباقِيات فستحوّلن مُباشرة إلى قِسم «Savage babies».. كمسَاعدات في العُروض الجنسيّة الدّوريّة)).

التفَتَتْ إلى "فاليريا" وأشَارت لها بالمواصلَة؛ لتحملَ بدورها ظرفًا سَحَبَتْ منه ورقة طَافِحة وراَحت تَعرض علينا أسماء النَّاجحات من الرَّاسبات، وبَعد تفرُّغهَا مباشرَة أمرتنَا بالذّهاب إلى الوَسيم صَاحب الحقيبة السوداَء ليطبعَ أسفلَ ظُهورنَا وشومًا مُلونّة تحمل رمز ذكر حيوان "الرّنة" وهو شعار منظمة "بيدوفيليا العذراء".

كانت عَمليّة الوَشم تقليديّة ومؤلمة؛ ولكنهَا لم تَرمِ بتَفكيري عن قسم «Savage babies» الذي ذكَرته السيّدة "ماما" قَبل وَهلة، انتابني فُضول في كَشطِ غُمُوض القِسم واستِقصَاء الدور المسَاعد الذي كُلِّفَت بفعله مَن رسبنَ من البنَات، خُصوصًا وأنهنَّ قد فُصلْنَ عنَّا؛ ما يدلُّ على أن هناك أمرًا هامًا يُنسَجُ من وراء السّتَار.

فَرغنا من الاجتماع واقتُدنَا إلى الفحصِ الطبيّ دُون النَّفسيّ؛ فأروَاحُنَا لا تهمُهم بما أنهم يَستَثمرُونَ في أجسادِنا دَاخل مُجتمعٍ أعمَى لا يُبصِرُ إلَّا في الظَّلام.

دقائقُ قليلة أمضيناهَا في هذا الفحص لنُنقلَ بعدهَا إلى قِسم الجراحة؛ حيثُ قامَ الجرَّاح التَّجمِيليّ للمنظمة بأخذ قياسات دقيقة

لعرْضِ أثدَائنا وتباعُد المسافة بينهم؛ كمَا تَأكّد من سَماكة الأنسجَة ومرُونة الجلد، وهذا ليُحسن اختيار حَجم طُعم السّيلكون الملائِم لكُل طِفلة.

كَان الفحصُ دقيقًا يكادُ لا ينتهي، ومَا زاد الطين بلّة خُضوعنا أيضًا لتخطِيط القلب وتصوير الموجَات فوق الصوتيّة للثديين. كُل هذا من أجل تَحويلنا إلى نَجمات إباحة في سنّ الطّفُولة.

مرَّت أيَّامٌ منذُ خضوعنَا لجراحة تَكبير الصَّدر، صَارعنا خلالهَا آلامًا تورّمت على إثرهَا أثداؤنا قَبل أن نتماثَل للشفاء. أزمعتُ أنا وأفراد شلتي"بيتي".. "هون "..و"سيارا" على كَشف سرّ القِسم الغَامض «Savage babies» بعد أن رسمنَا خُطّة مُحكمة المعَالم للنَّجاح في اقتحَامِهِ منَ الدَّاخل؛ وهذا بعد إلحَاح "هون" على القيام بهذه المهمة اليومَ قبل الغد..

كُنَّا نُدركُ أنَّ أفكارنَا لا تَتسَاوى في الكفّة معَ أفكَار البالغِين؛ لكنَّ شَغَفَنَا بمَا نُحَضِّرُه يُعَدُّ عُنصرًا لَن يُحصِّلَهُ الرَّاشدُون، الشَّغَفُ بَابٌ للنَّجَاح لا يُدركهُ سوَى المغَامرون، ولا يُوجدُ من الأطفَال من يَهَابُ المـُغَامرة، في الأخير نحنُ لا نَملكُ شيئًا لنَخسَره.. لا زوج ولا زوجة.. لا مال ولا مَركَبة.. فالشَّغَفُ يُولدُ مع الصِّغار ويسقُط مع أسنَانِ الكِبَار!

تقاسَمنَا أدَاء المهَام بَعدَ اختلائنَا مع بَعضنَا؛ فكانت "بيتي" السّبّاقة حين رسمتْ خارطة تقريبّية للمَقر كما كشفتّ بدقة مَوقع هذا القِسم؛ أمَّا "هون"فأصَابت في تَحدِيد الفترة التي تَخُورُ فيها الرّقابة ويَهونُ فيها الزَحف إلى الدَّاخل، "سيارا" وافقت على لعبِ دور الطفلة البَريئة التي تَسير أثناء نومها أمَام الحرَّاس طمعًا في لفتِ انتباههم وحثِّهم على إرجَاعِهَا إلى السَّرير؛ أمَّا أنا فَبُويعتُ كقائدة لهذه المجموعة.

بَعد انتصَاف اللّيل ونزُول السّكينة انتشرنَا كالصَّراصير لأداء المهمَة. انتصَبت "بيتي" أمَام غرف النَّوم لمراقبة أي جَلَبة يمكن لها أن تُفشل مُخَطَّطَنَا، أمَّا "هون" فرَافقتنِي إلى نِهاية الرّواق أين تَقبع غُرف التَّجميل المقابلة لقسم «Savage babies»؛ في حِين أطلقَت "سيارا" قَدميها نَحو هذا الأخير مُرتديّة قَميص نَومٍ طَويل وشفَّاف مُبرزة أمَاكن حَسّاسة من جَسدها؛ مُتقمّصة شَخصية الطفلة المصَابة باضطراب النّوم "السرنَمة[1]"، الذي استقصَينا عَنه المعلومَات خلالَ جَلسات تَصفح الانترنت المسمُوح لنا حُضورها أسبوعيًّا تحت الرقَّابة.

[1] اضطراب نوم يقود إلى التَّنقل دون وعيّ في حالة مُتدَاخلة ما بين النوم واليقظَة.

كَانت سَاقاها تَمتدّان عَشوائيًّا مُرشدتان باطني قَدميها الحافِيتين إلى الأرضيّة لِتَلتَصقَا مع بلاَطَاتِهَا مُحدثتان تصفيقَات خَفيفة؛ ما حثَّ أحد حُرَّاس القسم الغَامض على الاقتراب منها ليتلَصَّصَ عَليهَا ويتفحَّصَ مَلمسَ فَخذَيهَا؛ فهذا ما كَان يفعله وزُملاؤهُ ليلًا لإفراغ نَزواتهم بعيدًا عن أعين السيّدة العجُوز وتابِعتها المشرفة.. الآنسة "فاليريا".

((دُميّة «RealDoll» الجنسيّة تَتجوّل وَحيدة في وقتٍ مُتأخر من اللّيل!))

خَاطبها الحارس الشَاب لحظة مدَاعبته لشَفتيها، ولكنهَا لم تَأبه له واستمرَّت في التمثِيل وكأنها نجمة إغراء فَاتنة؛ مَا جعل شُكوكه تزدَاد في كَونها ضحيَّة "للسرنمة" فقَرَّر اقتيادها إلى المرحاض والانفِرَادَ بجَسَدِهَا مُستغلًّا جَهلَهَا بالأحدَاثِ.

بمجرد اختفائهمَا عَن الأنظَار دلفتُ أنا و"هون" إلى القِسم المـحرَّم «Savage babies» ليَتَبيَّنَ لنَا خُلُوُّه من أية حركة، تَابعنا الزَّحفَ إلى الداخِل حتّى وَصلنا إلى قَاعة شَاسعة المسَاحة تستَوي على أرضيّتها سجّادة حَمراء فَاخرة، قَاعة قَد امتلأ جوفهَا بكَاميرات رَقميّة عَديدة مختلفة الضّرُوبِ والأحجَام، بَعضها مثبّتٌ

أعلى السَّقف بملاقطَ مَعدنيّة، والبعضُ الآخر شَدَّتهُ أعمِدَة بلاستيكيّة مُزدوجةُ العجَلات.

كَانت الكَاشفات الضوئيّة تَرمِي بنُورهَا على أحَد زوايا القَاعة التي جُهِّزَت بمهد رَضيع وزُجَاجَات قد انتهتْ أعنَاقها بمصَّاصات بَلاستيكيّة جَسَّدَت أشكالَ أعضاء جنسيّة.

دَنُونَا من مَهد الطّفل لـمُعَاينتهِ بأعيُنِ المـحقِّقِين؛ فاصطدَمنَا بدماءٍ مَائِعَة على نَسِيجه سُفِكَت مُنذُ حين، شَدَّ الغثيان قَبضَتهُ على أمعائي، ونَخَرَ الوسواسُ خلايَا دِماغِي لافِظًا أفكارًا بائِسَة عن آخر مَا وَقَع في جَوفِ هذه القَاعَة التي حَملت بلاطَات سوداء وبَيضاء متجانسة وكأنَّها مَعبَدٌ لعقد مَراسم ماسونيّة!

بَينما أحَضِّرُ نَفسي للعَودَة أشَارت لي "هون" بالاقترَاب. كَانت تحمل بيدهَا ظرفًا بنيًّا مخطوطٌ عليه عَنوان إلكترُوني لأحَد مَواقع شبكة «Onion[1]» مختومٌ بتاريخ هذا اليوم، فَتحَتهُ أمَامي وسحَبت ما حَملَ من الأوراَق؛ والتي ضَمَّتْ أسماءً ورموز مُشفرَّة لأطفَال رُضَّع دوّنت أعمارهُم بالتسلسل، لم نَقوَ على فكّ أسرَار هذه الأسمَاء نظرًا لصغر سنّنا ومُستَوانا الدراسيّ المـحدُود؛

[1] شبكة ذات توجيه بصلي، تدعم تشغيل المواقع الالكترونية الناشطة على الويب العميق.

فتَناسَينَا أمَرها وتَابعنا البَحث لنعثُرَ أخيرًا على الإجابَة الفَصْل التي أزَاحَت عتَمة غموض قسم الأطفال: «Savage babies»!

لقد كَانت جملة من الصّور الفُوتوغرافيّة عاليّة الدقة، حَبِلَتْ بمشاهد خليعة تُحبطُ الأنفس وتزرع النكدَ والشجَنَ، كيف لا والضحايَا رُضَّعٌ لم يُتـمُّوا حولهم الثاني، يَقبَعُونَ على مهودهم مستسلمين لأيادٍ ناعمة تعودُ لفتياتٍ كُنَّ صديقاتنا وشريكاتنا في الغُرف! ليتم تحويلهنَّ عُنوة إلى هذا القسم بَعدَ فشلهن في التَّخرج. تُظهرُ الصور كيف يساعدنَ علَى تثبيت الرُّضَّع في أحقَر الوضعيَات الجنسيّة ليُسَهّلنَ على أشبَاه الرّجال افتراس براءة أطفال لم يعُوا بعد دَماثَة النَّاس من خُبثهم!

اختَلَّ نَبضُ قَلبي وترَجرَجت أمعائي؛ فصُدِمتُ بقشعريرة الموت تَسري في أحشائِي، تَحسَّستُ الغثيان وأزمَعتُ على التَّقيُؤ، ثمَّ هممت بمغادرَة القاعة التي زُوّدَ بابها بعازلٍ للصوت؛ كما أُلصقَ عليه صورَة كَبيرَة مخلة بالحياء لأحد الرّضع وهم يصارعون الاغتصاب بدموع لن يسمعها أحد!

بلغت المرحاض أخيرًا وقبل أن أعبر بابه فقدت اتّزاني وألقيت ما في بطني على الأرضية اللاَّمعة، بَلَغَت الفَوضَى مَسَامعَ الحارس فانقلَبَ عَائِدًا إلى القسم المـحرّم «Savage babies»! للحظة

تذكرت أنَّ "هون" لا تزال تقبع في الدَّاخل، أردت لفتَ انتباهه وإعطاءها متسعًا من الوقت للفرار ولكنَّ الفَشلَ التقَطَنِي وكَبَح تَقَدُّمي إلى الأمام؛ أمَّا "سيارا" فكانت مُلقاة على أرضية المرحاض تُصارع ألم الندوب والكدمات بعد أن تعرضت إلى اغتصاب وحشيّ من طرف ذلك الحارس في سبيل إنجاح خطة سَاذجة أفقدتها عذريتها!

بينما أواسيها وأساعدها على الوقوف، دَوَّى جرس الإنذار وانتشر صَهيلُهُ بينَ فضاء الغرَف. دَفَعتنِي غريزتي إلى الهروب ولكن إلى أين؟.. الجميع قد استيقظوا من سُباتهم وعلى رَأسهم "فاليريا" التي لم تتوانَ في إرسال رجالها لتحرِّي الأمر؛ مُتداركة غياب الـ "ماما" التي فضلت إقامة النُزُل على المبيت في مؤسستها القذرة!

***

*"كان من المُفتَرَض تَأجيلُ موعدِ هذه الجلسَة العلاجيّة، لأنَّ مزاجَ الصّغيرة أخذَ يَتَقلَّبُ بتَدَرُّجِي في طَرح الأسئلة.. ولكن الأمور سارت بخير في نهاية المطَاف".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل الرابع: إسطبل "فورتاليزا" المـُحرَّم!

### الجلسة العلاجيّة الثالثة: الثلاثاء ٠٦ سبتمبر ٢٠١٦

ليلة حَمراء مَالَتْ علينَا داخلَ المنظّمة بعد أن كُشفَ تَخطيطُنَا ووَقعنَا جُملَة بينَ يَديّ "فاليريا". كان من المـُعضِل تَحريرُ الكُلِّ والإبقَاءُ عليَّ وعلى صَديقتِي "هون" التي تحلَّت بحَزمِ الرِّجَال وراَحت تَقذِفُ فَيضًا من الكلمَات الوبيلَة على كل شيطَان انتَهَكَ عَرض الرُّضّع. اقتدنَا صَوبَ غرفة خاصة بتَكليفٍ من العجُوز "ماما" التي عجّلت في إدراكِنَا من أجل عقَابِنَا قبل أن تَزفرَ الشمس أنفَاسَ الصَّباح؛ حيث دَخلت علينا بوجه جَهمٍ كَالِحٍ يستَشيط غضبًا، وكأنّها سَاحرة كنعَانيّة وهَبت جَسدَها غَصبًا.

((لم يكتمل عُهركما بَعد وقمتما بخيانتي..! لم تَبلغا دَرجة العهر الكاملة، ورغمًا عن هذا فضحتما مشروع المنظمة الجديد..! أيّتها البائستان ناما جيّدًا فصباح الغد يحضّرُ لكمَا مفاجأة حقيقيّة)).

ألقت كلماتها ثم انصرفت وريقها قَد لَجمَ شفتيها الرفيعتين.

بتنا اللّيل نَعدُّ الخرفان عَسى أن يَـتَجَلَّى لنا فَتيلٌ من خيُوط النُّعاس؛ ولكن الـ "ماما" قد شدّت عضلاتنا للتَّرقب عِوَضَ إرخائها للنَّوم، فما نَبَعَ منَّا سوى نهرٌ من البُكَاء والنَّحيب مَخَافة المـَوت، تذكّرْتُ والدَتي في هذا الموقف الشَّظِف فضاقت الدُّنيا عليّ، وسَقَطَتْ آمالي في النَّجاة من بين يَديّ.

أدركنا الوسن قُبَيلَ تَفَشِّي الفَجر، أردنَا النوم على أطرافَ الصُّبح ولكنّ رجال "ماما" قد شقُّوا طريقهم إلينَا ليأخذاننا مكبَّلتين بالأغلاَل، ولم يتركوا لنا الفرصة حتَّى لتغيير ملابس النَّوم بأخرى مُناسبة، لم تَكُ وجهتنا المطعم لشَفطِ وجبة الإفطار؛ بل إلى مَوضِعٍ غائِر سُحِبنَا إليه كالأنعَام،ب مُحَاذاة القسم الرَّحِيمَ للتَّعدِي على الرّضّع..«Savage babies»!

انزلَقنَا إلى الداخل في ثَبَات لِيَنقُلَنَا أحد الحرّاس إلى الرّكن الأيمن من هذه القَاعة الفسيحة التي استقرَّ منتصفها فَوجٌ كَامل من المصوّرين؛ يتزعَّمهم مُخرج طاعن في السّن، يعلو شفته شارِبَان كَثيفان أظهرَاه بهيئة "فريدريك نيتشه"، بمجرَّد أن وَقعَت عَينَاهُ علينَا حتَّى قفز من مَجلِسِهِ وأخذَ يُدَاعب جَسَدَينَا ولم يتركهمَا حتَّى استخدمت "هون" قَدمها لتُصيبه أعلَى السَّاقينْ، فانقلبَ يَتلوَّى من المـَغَص كأصَلة تُحتَضر.

((نحن متأخّرون كثيرًا.. لقد أعلنتُ ليلة أمس بعد تِلك الحادثة على موقعنا الالكتروني على شبكة الويب المظلم بأن العرضَ المباشر سَيذاع هذَا الصّباح على الساعة العاشرة.. أين السيد "تومسون"؟ أين التجهيزات؟ ماذا عن اللّوح الخشبيّ المثقوب! وهل وصل فريق الماكياج؟))

دلفتْ "ماما" القاعة مُكَّشرة الأنيَاب تلوم رجَالها على التَّقصير وقَرضِ الوَقت والتَّأخير. ولحسن حَظّها أنَّ الآنسة "فاليريا" قد أصَابتْ أثَرهَا ولَحِقتهَا رفقة عجوزٍ صَبُوحَة تحمل حقيبة بنيّة من جلد التمساح. ألقت التحيّة واقتربت منَّا بَاسِطَة دَفّتَيهَا لِتكشِفَ أمَامنَا عن مَخزنٍ مُتَنَقِّلٍ من موَاد التَّجميل، أخذَتْ قلمًا أسودَ استخدمته لرسم انحناءات جفون عينينا، ثم تَابعت تَجميلنَا بمسَاحيق مُسجلٌ عَليهَا ماركات عالميّة، واختَتَمَت لَمستَهَا بتمرير أحمر الشفاه على شفتينَا، ورشّتنا من زجاجة عطر «212 Sexy» العالميّة؛ كُل هذا ونحن مُكبَّلتان بالأصفَاد والأغلاَل، نَعِيشُ حَقيقة أقرَب إلى الخَيَال. توقّعنا أن تُغيِّر لنَا ملابس النَّوم بأخرى مُحتشمة؛ ولكنَّها أبَتْ وأعرَضَتْ.. بل وأنهت عَملها ببصقهَا على وُجوهنا، مُسترسلة تَقول:

((هكذا أفضل.. أظن أن البصَاق يزيد من إذلالكما أمام وحش المنظمة السيد "تومسون"!))

طَفِقَتْ "هون" في البكَاء وبَدَتْ سَقِيمَة أمَامهم وهي تُوَاري شُعُورَ الخِذلاَن، أظنها فَهمت المقصُود من سرّ هذا الماكياج ومن تجمّع فَوجِ التَّصوير والحُضُور. لابُدَّ أنَّ القَدَرَ سَيَحِيكُ لي ولهَا أوّل عَرض جنسيّ يَجمَعُنَا في بث مباشر باسم "بيدوفيليا العذراء"!

سَبقَنَا المـُخرجُ يَقتَادنَا خَارج مَوقع التّصوير الذي اعتقدنَا أنَّه المكان الفعلي للبثِّ المبَاشر الذي تحدّثت عَنه "ماما" قبل قليل؛ ولكن حَسب المـُخرج ما هو إلَّا مَحطَّةٌ للتَّدريب.اجتزنَا الطّريق المـُحَاذي للسّلّم المعدَني الذي أَلِفنَا ارتقاءَهُ، ولكنْ لم نَعتَمِده بل عَاودنَا سَيرَنا حتَّى بَلغنَا بَابًا خشبيًّا عَتيقًا؛ طِلاؤه الأخضر طَفِقَ يتقشَّر من زَحمِ الأمطَار التي أسَالتهَا ثقوب التَّهوية. فَتح لنَا البَاب فَلَهفتنَا رائحة سمادٍ حيواني، دَلفنَا إلى الدَّاخل فَلَجمنَا حزَامٌ الصَّمت وتَرَك هَمسَنَا يَسمُو وَيَنقَطِع، لنكتشفَ أنَّ موقع التَّصوير ما هو سوى إسطَبل للخيُول يَقبع بَاطِنَ الأرض، وقَد تأكّدّت من الأمر بعد سَماعي لصَهيل مُتواصل بُعِثَتْ نَغمَاتُه من الدّاخل... سألتُ "هون" عن السَّبيل لإنزالهم حيوانًا ضَخمَ البَدَنْ! فدَعتنِي أن لا أحشرَ أنفي في أمور لا يَنبغي عليّ التَّطَلُع لهَا. تَبيّن أنَّ هذا الإسطبل الشاسع حَديثُ التَّشييد؛ فمُنذُ استخدَامي السُّلمَ المـَعدني لَم تَتَحَسَّس أذناي أيّ أثرٍ للخيل أو للضَّجيج. كَانت هُناكَ سلسِلة من الفوَانيس العَتيقَة المشتَعلة، وزّعت جَميعُهَا في

حَيزِ ضيّقٍ بحَجم الغُرفة؛ فَوانيسٌ عكست بنورهَا الأصفر الباهتِ صُورة لأرضية إسمنتية فُرشَتْ بقشّ كَثيفٍ مـُبَلَّل!

لَحِقنَا فريقُ التَّصوير وبدَؤوا يُثَّبِتُونَ الأضواء الكَاشفة والكاميرات الرقميّة، دَنَتْ العجُوز "ماما" من الموقع مُرتدية سروَال جينز أزرقَ اللّون وحذاءً جلديًّا بُنّيّ اللون يمتد إلى أعَلى ركبتيها، بَدَت فخورة بما تَفعَلهُ لَحظَة تَفَحُّصِهَا الأدوات الملقَاة على الأرضيّة؛ من أصواتٍ صُنعت من أذنَاب الأبقار، وحِبالٍ وَثِيقَة لُفَّتْ بعنَاية لتُعلَّق على الجدرَان، وبعض المعدَّات الجنسيّة المتناثرة فوقَ بِسَاطِ القش.

بينما نحن منهمكَتان بمسح معالم المكَان دَخلَ الإسطبل رَجلان قويّان يجرَّان لوحَان خشبيّان كَبيران مُتَّصِلانِ طوليًا، يَظهَرُ بمُنتصفهمَا ثقبَان غائِرَانِ بحجم ثمرة البطِّيخ، تَجَلَّت على حَوَافِهمَا أقفالٌ حَديدية تَضمَن التحامَهما من تَفكُكهمَا حَسبَ الغَرَض والطَّلَب.

دقائقُ مَحسُوبة كَانت كَفيلَة لتجهيز المكَان وتحويله إلى موقع لتَصوير الأفلاَم، كَاميراتٌ رقميّة مُصَوّبةٌ إلى اللّوحين، أضواءٌ كَاشفةٌ رَكَّزتْ إنارتها على المعدّات الجنسيّة، حصانُ الإسطَبل جُرَّ عُنوة إلى زاوية التَّصوير وكُبِّلَ على أحد الأعمدَة المثبَّتة على

الاسمنت الوَكِيع حتَّى يضفي الطَّابعَ الرّيفي على البثّ المباشر الذي سأكون بطلة فيه رفقة "هون".. صورَة أمّي لا تكَاد تَهجُرُ خيالي، لقد اشتقتُ حُضنَهَا وعنَاقَهَا.. يبدو الوقت والمكان غير مناسبين لأبكي الأطلالَ على فراقها.. ولكنّي أفعلُ مُرغمة غير رَاضية.

أطَلَّ عَلينَا المخرج مُبادرًا باستلطافنَا للثَّباتِ عَلى قدمَينا ولَحَاقِه إلى مَوقع التّصوير، كان أمرًا شَاذًّا خَلعهُ حذاءينا وتَطَلُّعُه لِسَيرنا حُفاة على بِساط من التّبن الأصفر، وقد زاد الأمر غَرابة تلويثهُ لأقدامِنا بقطَعٍ من رُفَات الفحم حتَّى نَظهرَ كطفلتين مُثِيرَتينِ تزينتَا بأجوَد مَاركَاتِ الماكياج الذي رَسَمَ مع بُقع الفحم جَسدين مُغريَين سَيُقَدّمَان هِبَة للمدعو "تومسون" الذي دَلَفَ مَسرَح العَرض بمجرد أن ذَكَرهُ لسَاني.

كَان "تومسون" رَجلًا بدينًا يَضَعُ قِناع "جاي فوكس" أسود اللون كظَلام لَيل "فورتاليزا" ينتهي بشعرٍ أشقرٍ وطويلٍ، يَعتَمِرُ قبعةً من القش، وَهَبَتهُ منظر فزّاعة حُقول الذرة، اقترب منَّا بخطوات مُتثاقِلة.. حَملَقَ فينَا عَميقًا ثم مَرَّر يديه على وجهينا ليُزيح ضَبَابَ الذُّهُول عن مُقلَتينَا.. التفتَ على يمينه وأشَار للمخرج براحَة يَدهِ؛ ليَهرَعَ الفريق في تصوير البثّ المباشر، الذي افتتحَ

بمقدمة شهوانيّة تحُثُّ مُستمعيهَا في كل مَقَام على متابعة هذا العَرض...

((أهلا بكل مغامر اختار التّطرف على القوانين.. أهلًا بكلّ غريب فضَّل الحياد عن القطيع.. أهلًا بكلّ روح أزمعت التّحرُّرَ عن دينها.. نحن نكافئكم بأندر السلع التي حَصَدَتهَا منظمتنا "بيدوفيليا العذراء".. طفلتان لذيذتان كقطعتي جبن فرنسي فاخر تنتظران دخولكما البث المباشر.. هواة الشرق ستقودكم اليابانيّة إلى الالتصاق بشاشاتكم.. عشّاق الغرب ستحثّكم الأمريكية ذات الأصول العربية إلى الاستسلام لغرائزكم الجنسيّة... أعزائي.. سياسة الموقع باتت واضحة وتحويلات العملة الرقميّة "البيتكوين[1]" أمست أسرع من ذي قبل.. ادفعوا.. تستمتعوا!))

دقَّتْ قُلوبنا كَأجراس الكنائس، ودقَّت معها قلوب المشاهدين المتلهفين للتَّلَذُّذِ بالعروض الجنسيّة والساديّة التي تَعرضُهَا "بيدوفيليا العذراء". تقدَّم المقنَّع "تومسون" من السَّلاسِل الحديديّة، جَلجَلَ أقفَالهَا ودأب على فتَحها الواحدة تلو الأخرى، ثم عكفَ على فَصل اللّوحين الخشبيين عَن بعضهما مُتعمّدًا إثَارة

[1] العملة الرقميّة المُتدَاولة على الويب العميق، تتميَّز بكونهَا لا تخضعُ للرقابة البنكيّة بتاتًا.

الحمَاس في نُفوس المشَاهدين الشّاخصين بأبصَارهم نحو شاشات أجهزَتِهم.

اقتربَ قليلًا من جَسَدينَا ودَفَع بنَا أمامَ اللَّوح السّفلي المـُحكَمِ على الأرضيّة، ثم شَدَّنَا من خصلات شعرنَا وعَقدهُم ببعض وكَأنه يتعامل مَع حزمة من الجزر! وضَع رأس كل منَّا بين النِّصفين السُّفليين للفتحَتين اللّتين تستقران على اللّوح الأوّل، رَفع سَاقه اليمنى وأكَبَّ يُذِلُّنَا بالدَّهسِ على وَجهَينَا مُستخدمًا نَعلَه القَذر، بعدهَا قام بسَحب اللَّوح الثاني ووضعه على الأوّل مُشكّلًا منصَّة إعدام كَالنَمَاذج المـُستَخدَمة في العُصور الوسطَى. أوصَدَ الأقفال الحديديّة حتَّى يَحرمَنَا من الحركَة، وتركَنا ننتظرُ قدرَنا كَفأرتين صَغيرتين ابتَلَعتهُمَا المصْيدَة.

دَنا من كَاميرا التَّصوير عَارضًا إصبعه الوسطَى أمَام شَرذَمة المشَاهِدين، وكَأنَّه يَبعَثُ برسَالة تَحدٍّ لرجال الأمن الذين يتَابعون العَرضَ طمعًا في تَحصيل خَيط يَرميهم في قَلب الحَدَث. ظلَّ "تومسون" يُغيضُ من يُعارض بثَّ هذا العرض بالضَّحك الهستيري والتلذّذ بصفعنَا على خَدَّينَا والمنَاطق المـُمتلئة من جَسَدينَا، ثم أشعل سيجارة وأخذَ يدَاول على كيّنَا من بَواطِن أقدامنا ونحن نصرخُ ونتخبط من غَمْرَة الألم. لم يَكتَفِ القَذِر بهذا

الحدِّ بل بادَر بسَحب قُرصيّن رَفيعَين من جيبه وعَرَضهمَا أمام عَدسة الكاميرا صارخًا:

(("الفليبانسيرين[1]"! "الفليبانسيرين"!...))

كَان يقصد بهذا المصطَلح الحبتَين الورديتَين اللّتين سحَبهما للتّو.. أعرفُ جيّدًا مَفعول هذا الدّواء، فقَد دَرَسنا عَنه خلالَ أشهر مُكوثنا في المنظَّمة وعَلِمنَا بقُدرته على كَبح الكآبة والرَّفع من الشهوة واللَّذة الجنسيّة لدى أية طفلة أو شابّة. تناولَ "تومسون" قَدحَ مياه من أحد رجَال فريق التّصوير، ثم أرغَمنا على بَلع الحبتين وشُرب الماء خَلفَهُمَا حتَّى يَضمَنَ مُرورهما إلى الأمعَاء.

كان الوقت يمضي بخُطَى سُلحفاة حبلى؛ أما الدَّواء فأخذ مفعوله يسري بسرعة ليصنعَ في وجدَاني ساحة صِراع بين الشَّهوة والخَوف. تربَّعَ "تومسون" أمامَ وَجهَينَا وشَرَعَ يقهقه من خَلف القناع مُنتظرًا رُضوخنَا وانصياعَنا لغريزته الحَيوَانيّة. استَلَّ شفرةً من سُترته، شمَّر عن ساعده وأخذ يقطع بعضًا من الشُعيرات النَّامية على ذِراعه، مُتلاعبًا بعواطفنَا ومُنذِرًا دُنُوِّ ساعة القَرار. زَحف على القشِّ كرَضيع لفظهُ المهدُ، تابعَ الزَّحف حتَّى بَلغ

[1] دواء أنتجته شركة بوهرينغز أنغلهايم، يُلَقَّبُ بـ"فياغرا النّساء" لقدرته على رفع اللَّذة الجنسيّة لدى الإناث.

جَسدينا، ورَاح يمزِّقُ ملابسنَا بيديه مستخدمًا الشَفرة في تقطيع الأجزاء الصَّعبة. كَان يتعمَّدُ جَرحنَا ويتلذّذُ بسماع آهاتنا عند كُلَّ ندبة يُحدّثُهَا، وما إن فَرَغ حتَّى تركنا عاريتينِ كنعجتين تَمَادَى السَّارحُ في جزّ صوفهما.

***

تَعالت صَرخات فَريق العَمل خَلف الكَاميرات غَير آبهين بسَلامة البثّ الحيّ من التشويش؛ كَيف لا وقَد تدلَّتْ النُهود وبَرَزتْ كُنوزُ ما تحتَ السُّرة، في عَرضٍ فَاسقٍ لا يستلِذُّه المرضَى قَبل الأصّحاء. نَاوَلَ المخرج لـ"تومسون" كَاميرَا مُتنقِّلَة لتَوظِيفهَا في المشهَد المـُوَالي، تقدَّم هذا الأخير منًّا وأخذ يداعبُ أمَاكنَ حسَّاسة من جَسدينا مُلتقطا مَشاهد لَعَنتهَا الملائكَة وحَرَّمتهَا الأديَان، واظَبَ على فعلِ ذلك فَترات أطوَل حتَّى ألِفنَا فَيضَ اللَّمَسَات والهَمسَات، وبإشَارة من المخرج شَدَّ "تومسون" نَهدَينَا بملاقِط مَعدنيّة قَصَّتْ عنَّا الأنفاس، وجَعَلتْ من نَزيفِ دِمائنا بَصمَة نجَاح لهذا العَرض الغِلمَانيّ!

((لقد مَنعني شَعرُك من تحسُّس انحناءاتِ جَسدك أيتهَا الآسيَوية)).

لَفظَ "تومسون" تلكَ العِبَارة ثم نَزلَ على "هون" باللَّطم والصَّفع في المواضِع وَفيرة اللَّحم والشَّحم، استمَر يُمَارسُ مَا يَضُرُّ ومَا لا يُبَاح ليَختِم المَشهَدَ بِركلهَا صَوبَ الكَبد فَسَقَطتْ تَتَفُلُ اللّعَاب والدّمَاء. استغَل عُزوفها عن المقاومَة واستَهَلَّ في حَلق سَوَاد شَعرهَا، مُشَغِّلًا مَاكينة تَتغذَّى على البطّاريات، فتَساقطَت خصلاَته على بسَاط القشّ كَأوراَق الدّردَار، كَان مشهدًا مهينًا أذلَّ رُوحَهَا وأنهَكَ جَسَدهَا.

ذلكَ الوَغد لم يتوقف البتّة.. بل وَاصلَ إثمَهُ بفصلِه أذنها اليُمنى عَن مُحيطِ رَأسها بحَركة رَشيقَة من يده مُوظِّفًا شَفرته؛ فَلم أشعر سوى بسَوائلها الدّافئة تَرشُّني على خدّي الأيسَر وتَرسم على وَجهي لَوحة فنيّة مُخضَّبة بالدّموع والدّماء!

جَهَرتْ المسكِينَة بصَوتِهَا في فَضاء الإسطَبل وعلى أطرَاف الجُدرَان، تَلَفَّتتْ صَوبِي وقد اتسعت حَدَقتَا عَينيهَا مُنَادية بالاستغَاثة، صَاحب صُراخها نحيبًا لا يَكَاد يفنَى من الوَجع والآلام؛ الأمرُ الذي جَعلني أشَاطِرُها البُكاء مُنتظرة دوري.. أخَذ "تومسون" أذنها اليُمنى وقرَّبها من عدسة الكَاميرا، شَدَّهَا من القرطِ المعلَّق عَليها وكأنه يعرضُ سلعَة رَخِيصَة للبيع!.. سَحَبَ مقلاةً كبيرة من بَاطن كِيس بلاستيكيّ، وصَبَّ عليهَا نزرًا من الزيت احتوته قنينَة زجَاجيّة كَانت ملقاة بينَ سَاقيه، وضَعها على موقدٍ كهرَبائي

وترك الزيتَ يغلي على مَهلٍ، ثمَّ عَاد إلى "هون" مُضمّدًا جرَاحها بعدَ أن نزَفت حدّ الثَّمالة، قبَّلها من شَفتيها كما يَفعلُ العشَّاق، ثمَّ قال:

((لَم أجد أي حَلاوة في تَذوق شفتَين رفيعتين.. ربمَا أجد ضَالتي في هذه القطعة من اللّحم!))

رفعَ أذنهَا المقطوعَة أمَام عَينيهَا، ثم ألقاهَا على طُولِ سَاعده فاستَقرَّت على سَطح المقلاة وَسَبحَتْ في زيتها السَّاخن راسمةً مَشهدَ خُنُوع لا تَلفُظُه سوَى الأفلام؛ أمَّا "هون" فأرخَت جَفنيهَا واستَسلَمَتْ لقَدَرهَا رغم المُسكِّن الذي حَقنه طبيبُ المنظمة على ذِرَاعِهَا لحظة تَبديل زاوية التَّصوير. تخبّطتْ قطعة اللَّحم في بَحر الزَّيتِ الحامِي حتَّى استوت ونَضجتْ وأطلَقَت روائحهَا؛ فعَجّل الأرعنُ بالتهَامِ شَحمة الأذُن ثمَّ رمى الجزء الذي يُستعصَى مَضغه على الأرضية، كنت أرمُقُ الأحدَاث شبه مُخدَّرة وكَأنّي أعايشُ حلمًا يأبى الزوال، وكَما هو معرُوف.. فلَستُ هنا للمشاهدة.. بل لإحياء العرض.. دنَا منّي "تومسون" فاتحًا الحزام الجلديّ لسروَاله مُبديًّا النّية في اغتصابي. دَفَعتُه بقدمي لمَنع اقترَابه فلم يجد من سبيلٍ لبلوغ جَسدي سِوى خَبطِي بمَاكينة الحلاقَة على قفَاي، فخارتْ قواي وخَانَنِي وعيِّي لبضع ثوانٍ، وما

إن أفَقتُ حتَّى وَقَعَ نَظري عليه مُحَاصرًا"هون" ليغتصبهَا ويَنفُثَ غَضبه عليهَا.

ظننتُ الأمرَ قَد انقضَى في هذا المَشهَد، ولَكن هيهات!... فمَا وَقَعَ بعدهَا لم يخطُر حتّى على البَال، فَقد لَثمَ الوَغدُ وَجه الحصَان مُدَاعِبًا عُنُقَهُ العَريضَ الأملسَ.. ثمَّ جرَّه خلفَ "هون" التي أخَذت تَضمُرُ وتَيأس، وما لبِثَ أنْ دَفَعَهُ للاعتدَاء عليهَا!.. فاستجابَ وهَاجَ وأبَانَ رَغبَتَهُ للعَيَان، وما إن أزمعَ على تَنفيذِ الأوامِر حتَّى جَهَرَ طبيبُ المنظمة بِصَرخَة أذَابت شَمعَ الآذَان، شادًّا بيديه على مئزره الأبيضِ مُردّدًا:

((جسد اليابانيّة مُرهقٌ.. ويحتاج منَّا نقلهًا إلى العنايّة المـُركَّزة على جناح السرعة.. إدراجُهَا في العرض الجنسيّ الحيواني سيقودهَا حتمًا للموت.. لن أسمحَ باستمرَار العَرض)).

لقد كَانت كَلمات قويّة تلك التي أطلقهَا طَبيب المنظمة على مسامع "تومسون"، كلمَات استطاعتْ إرضاء الـ "ماما" وزيَادة ثبَاتِهَا؛ أمَّا أنا فتنفَّستُ الصُعداء رُغمَ افتقادِي الثقةَ في هذا الشخص. فبالرّغمِ من أنه قَد عَارَض استمرار العرض الذي حَاد عن هدفه الأساسيّ؛ إلاَّ أنّهُ سيبقَى في الأخير أحَد رجال الـ "ماما"، الذي جاء رفضُهُ لاستمرَار المشهَدِ نتيجَة خَوفه من فُقدَان "هون"،

الركَّيزة الأساسيّة في العروض الجنسيّة القادمة... رجَال "ماما" لا يملكُون بذُورَ الرَّحمة في قلوبهم.. لا يملكونهَا أبدًا... فهَذا ما تعلَّمتُه.

لم أُطِقْ المزيدَ من الخزي بَعدَ الذي أدركَنَا، فأطلَقتُ صَيحَة عَانَقت موضِعَ المـزنِ في قَلبِ السَّماء، مُرَدِّدَة:

((أنقذونا يا ناس! نحن نَقبَعُ تَحتَ أرضِ"فورتاليزا"...))

سُكون مقلقٌ شَلَّ الأفواه.. فَرَضَ السُّكُون وحَرَّم الكلام، ثوانٍ لم تُسمع فيها ولا ضَجّة سِوى صهيل الحصان استياءً من اللّجَام، لقد تَسمَّر الجميع في أمَاكنهم من هَول الصَدمة، بَعد أن فضَحتُ مَوقِعَهُم في بَثِّهم المباشر، فجأة! وبحركة خَاطفة.. ألقت الـ "ماما" وشاحَها على الكاميرا مُشيرة للمخرج بأن يُنهِي العرضَ فورًا، في حين بصَق على وجهي ذاك المقنَّع وأخذ يَدهَسُنِي بقَدَميه؛ ولكنّ غليله لم يُشفَ بعد. لقَد أرادَ إذلالي أمَام الجَمع بحمله لقصعَة من روثِ الخنازير، وإفراغ مَا ما بجوفهَا على جَسدي، جَاعلا منّي كتلة حيّة من القذَارة والأوسَاخ.. أخرَج الشَفرة من سُترته وأراد إنهَاء العرض الذي انتهى أصلًا، مسترسلًا يقول:

(("باميلا"! سأذبحكِ هنَا أمَام الجميع.. وأسهَر شخصيًّا على إطعام لحمك لحيوانات الشَّارع!))

مَيَّزَت الجديّة نبرة كَلامه، ما جَعلني أستَكين له وأسلِّمُه رَقبتي تاركة دموعي تَنصبُّ كمياه الوديَان، ولكن شعوراً دخيلًا قد ومَضَ في دمَاغي بعد أن نادَاني بهذا الاسم.. ترى أين سَمِعتهُ!.. تَساءَلت في دَاخلي لأجدَ الجواب الشَّافي على لسَان "ماما" التي صَرخَت في وجهه لحظة تأهُّبهِ لشَرم وريدي...

((أيّها الحارسُ الأسود.. لا تجعل غَضبك يُفقدُك صَوابك.. لديّ طريقةٌ جيّدة للتَّخلّصِ منهُمَا مُقابل عَائد ماديّ لا بَأس به.. تَريّث قليلًا واستعد أنفَاسك.. وإلا قطعتهَا عَنك إلى الأبد!))

عَزف "تومسون" عن قتلي أخيرًا، مُلقيًّا شَفرته الحادّة على القَاع مُوجِّهًا أصبعهُ الوسطى صوبَ الـ "ماما" وصَوبَ طبيبِهَا، تناول قُبَّعة القشّ وكَوَّرهَا بقَبضَتِه.. ثمَّ أمسَك قنَاع وَجههِ وأزاحَ ظلامَهُ ليتبَيَّنَ لي ولصديقَتي "هون" أن ذلك النَّذل لم يكن سِوى السيّد "داندي" بشَحمه ولحمه. تَأفَّفتْ "ماما" من فِعله، مُغَمغِمَة بقول لم أخطِفْ منهُ سوى كلمَات:

((مَا كَان عَليك فعْل هَذا يَا هَذا...))

أشارَتْ لأعوَانها ممّن قَصدُوا العَرض؛فسَارعُوا بتكبِيله وتجريده من لبَاسهِ، وبدل فَصل رأسه عن جَسده تعمدُّوا بَترَ وُسطَاه التي رَفعَهَا في وَجه الـ "ماما"، ثمَّ علّقوها بسِلكٍ نُحَاسيّ ولفّوهَا على

رَقبته كالسَّحرةَ؛ ليتمَّ جرّهُ إلى مَوضِعِ التَّأديبِ وسَط صُراخ عَظيم انتصبَ على أثرهِ تِبنُ الإسْطبل، وانتفضَ على نغماتهِ حصَانُ الجنسِ الذي أخذَ يصْهَلُ وينُطُّ من موضعٍ لآخر مُحاولًا فكَّ ربَاطِهِ؛ فيما تفرغَّت "فاليريا" لأمرنَا وقامت بفكِّ أسرنَا مُتحاشية السّير فوق خطّ الدّماء الذي خلَّفهُ جُرحُ "داندي" الغائِر.

أمرت العجُوز "ماما" بتَحويل "هون" إلى العيادة الطبيّة لتَعقيم جُرحِهَا وإنعَاش بَدَنِهَا؛ أمَّا أنا فأحَالتني إلى غُرفة معزُولة لأستحِم وأمضِي بَعضَ الأيام مُنتظرة الصّفقة التي سَتعقدها مع الزَّبون x.

كَانت الأيام تَتسَابق لتحدِيد مَصيرنا على أرض "فورتاليزا"، سَادت الغَوغَاء صالاتِ العُروض الجنسيّة داخل حَرَم المنظّمة؛ فحُظِرَ البثُّ المبَاشر وأضحَتْ إدارة الموقِع تُرضِي جُمهُورهَا بأفلامٍ مُسجّلة حفَاظًا على مَاء الوَجه، سَمعتُ أيضًا من أحَد الحرَّاس أنَّ قِسم «Savage babies» قَد كُبحَ نَشاطه بَعد الفَضيحَة التي رَجَّت مَقرَّ المنظَّمة أمَام عدسَات الكَاميرا، قَد يَبدو الخَبر سَعيدًا ولكن الضّريبة التي تَنتَظِرني قد تَحصُدُ رُوحِي وحَياتِي.

((اتبعيني.. سيَكون هذا آخر أيامكِ هُنا)).

كَلمات خَفِيفَة رَشَقَتهَا "فاليريا" في أذُنيّ لَحظَة نفَاذِهَا إلى الغُرفة التي أُسِرتُ فيهَا لأيامٍ، من الجيّد أني ارتديتُ ملابِسي على أنفَاسِ الصُّبح قَبلَ أن تَتَفَحَّصَ أعضَائي كما اعتادتْ فعله مع صَديقاتي، سَألتها إن كان مُتَاحًا حَمل أغراضي فصَدَّت طَلَبِي بالرَّفض، مُضيفة بأنّي سَأُحَصِّلُ في بيتي الجَديد أغراضًا أكثَرَ جمالًا وملابسَ سَوداء قُوطيّة تُعانق انحنَاءات جَسدي!

صَعدنا السّلّم المعدَني مُرتَقِيتَان إلى أعلى؛فَلَمِحتُ بَاب الإسطبل مفتوحًا على مِصراعيه، الإسطبل الذي أذَاقني مَرارة الموت ألفَ مرّة دون أن يَفعَل، كَانت كُلّ خُطوة أضَعها على عَمود السّلّم تُراودني خِلالها ذكرى مَنكُودَة عن ذلك العَرض المُحرَّم؛ فلم أفق من مُسَلسَلِ ذكرياتي إلَّا بعد أن دَاعبتني شَمس الرَّبيع بأشعتها الدَّافئة لَحظَة بلوغنا حَوَافَ السَّطح.

رَدَعَتْ انتباهي سيَّارة "فورد" مُصفَّحة رُكنتْ بجوار جِدارٍ مُهدَّم، مَا إن اقترَبنا مِنها حتَّى أطلقتْ بوقهَا وغَنَّت للفَوضى؛ وكأنَّ سَائقها يحُثنا على الإسّراع، فمَا كَان منَّا سوى الصُّعُودُ على عَجلٍ لنُقلع بَعدَها إلى "نقطة اللَّا عودة!".. وهو الوَصف الذي أطلَقهُ السَّائق العَجوز على مدينة "ريو دي جانيرو" العَاصمة الأولى للبرَازيل قبل تَشيّيد العاصمة الحاليّة "برازيليا". لقَد كَان شخصًا خَبيث الرَّائحة.. دَمِيمَ المظهر.. إلّا أنَّ ذاكرتَه القويّة وذَكاءه المُستَعر

جَعلاه يحفظُ هذه المدينة الفَسِيحَة شِبرًا شِبرا، وعلى سيَاق المثل الذي يقول:"ليسَ من الحكمة ادّعاء الحِكمة" خَرج السَّائق العَجوز عن نِطاق الرَّسميّة بارتدَائه قَميصًا داخليًّا أبلقَ مُشبّعا عرقًا، مَع سروالٍ قَصير نَسيجه الزهريّ قد تمزَّق من فَرطِ الغَسيل، وقُبعة رمَادية تَناسقت ألوانها مع شَاربيه اللّذين غزاهما الشّيْب. ليُخَالِفَ بذلك هَيئة المثقَّف التي حَجبَهَا عن الغَير.

استَقصَتْ رحلتنا البريّة من "فورتاليزا" إلى "ريو دي جانيرو" بَعضَ السُّويعَات، ترَجَّلنَا خلَالها فقط للأكل والارتوَاء؛ رغم أنَّ نفسيّتي لم تسمَح لي بتنَاول ولو قَضمة واحدة من كِيس الطّعام. حتَّى من المناظر الطبيعيّة السَّاحرة المَقرُونة مع المحيط العُمراني الشاسع لهذه المدينة لم تسمح لي بالتَّحرر من شعور الكآبة الذي حَجب رُوحي بظلام من اليأس والأحزَان؛ ولكنَّ رؤيتي لتِمثال "المسيح الفادي" شَامخًا على قِمة جَبل "كوركوفادو" أبَاءَ لي السكينة، ولفَّ قلبي بسيَّاج من التفاؤُل والطمأنينة بعدَ أنْ استطَاعت والدتي سلفًا أن تَزرع في عقلي فِكرة عَظِيمَة مفادُهَا أنَّ جُلَّ الديانات السَّماويّة باختلافِ عقائدِهَا تسعى لتَحقيق مُصطلح نَبيل واحدٍ يدعى "السَّلام".

رُغم الاكتظَاظِ الكَبير الذي ضَيَّقَ المدينة ومَعَ الارتفاع الخَانِقِ في مُعدَّلات الجريمة؛ إلّا أنَّ عَدَدَ السّياح الذين يدُقُّونَ أبوَابهَا

يَبعَثُ على الطُمأنينَة. سيَّاحٌ مُتَيقِّظينَ يَقضُون حَوَائجَهُم على عَجَل اتقَاءً لشرَّ صبية برازيليين يتمشون على شكل مجمُوعات منظَّمة خَلف كل أجنبيّ يحمل آلة تصوير أو حَقِيبة سَفَر، ليلتَّفوا حَوله كالكلاَب الأفريقية الضَّارية، أحدُهم يَصدمه من الأمام نَاويًا عَزله عن التَّجَمُّعَات، والآخر يَحجب عنه الرُّؤية مُمهّدًا الطَّريق لفرد آخر ليُجهِزَ عليه ويَنشلَ أغرَاضَه وَيُدبِرُ هاربً؛ فهَكذَا يُزَاحُ الستار المـُظلِمِ عن "برازيليا" كُل عَام!

بَعد صِراع كَبير مَع زحمة السيّر بَلَغنَا أحَد الأحياء الفَقيرة المتزيّنة بالنّساء؛ نساء وَهبن أجسَادهنّ لرجَال المال الذين يَشُقُّونَ طَريقَهُم يوميًّا لنَقلِ السَّاقطَات إلى أوكَار المـُضَاجعة، لفتَ انتباهي نَوعان من بَائعات الهوى على حَوَاف الطَريق؛ حَسناوات يَرتدين مَلابس بَسيطة وتَظهر على مَلامحهن ترسّبات الفَقر، وأخريات يتَجَمَّلنَ بمَلابس فَاخرة بل وَيَحتَمينَ بسَيّارات رُباعية الدَّفع يَقودها رجَالٌ يَعملون لصَالِحِهنَ. استغربتُ الأمر كما استغربهُ السّائق العجوز، ولحسْن الحظ أنَّ "فاليريا" تَدخلَت لكَشطِ الغموضِ قَائلة:

((غَريب أمرُك أيّها العَجوز "روبيرتو".. تَعبيرُ وَجهك يُظهر انبهَارك بفاحشَات الثّراء من بَائعات الهوى.. وكَأنك لم ترَ مِثلهن من قَبل.. ولكنّي سَأزيح هذا الغُموض الذي حَجب عَنك الرّؤية..

كَونك أحد السائقين الشَخصيين للسيّدة "ماما".. لذا يَنبغي عَليك مَعرفة كل صَغيرة وكبيرة تحصُل بين هذه الأحيَاء المعمُورة)).

لم أكن أعلم أنَّ اسمه "روبيرتو"، يَبدو اسمًا مُلائِمًا لشاب فتيّ، لا لشيخٍ أدركه الكبر واغتَصَبهُ الزَّمن. سَال العرَق على جَبينه بَعدَ أن أحرجَتهُ "فاليريا"، شَعر أنَّ مِهنته كسائق مُتمرّس لا تعدو عن كونها حبرًا على وَرق، ارتَدى نظّاراته الشمسيّة وحَجَبَ عينيه خجلًا مما أصَابَه، ثمَّ فَتَحَ أذنيهِ لسمَاع فُتَاتِ الحديث؛ حَيث تابعت "فاليريا" ما بدأته مُسترسلة تقول:

((العَاهرات اللَّائي يَظهرن بلباسٍ فاخر ينتمين إلى مُنظمة سريّة تَنشط على شَبكة الإنترنت المظلم.. زَبائنهنّ أشخَاص فقراء يَسعون لكَسب لُقمة العيش ببيع سَوَائلهم المنويّة.. بَعد الممارسة الجنسيّة مع عَاهرة يتمُ اختيارها حسب الطلب.. وعادة ما تُنجز المهمة في خَلفيّة السيارة.. حيث يتم تَجهيزها لتُوفر مُمارسة جنسيّة صحيّة تضمن كَميات وافرة من المني)).

تَدخّل "روبيرتو" قَائلًا:

((وماذا يحل بهذا المني؟.. هل يُعتبر عَملهم قانونيًّا!.. ما الغَرض من جمعه أصلًا!))

فتحتْ "فاليريا" زُجاج السيارة واستهلت في الإجابة، لحظة تلقِيح نَسمات الهواء لخِصلات شَعرها الذهبيّ...

((عَملية جمع المنيّ لا تعُدَّ جريمة في البرازيل.. بالعكس فبَنك الحيوانات المنوية يَشتري أغلَبها من أشخَاص أوروبيين وآسيويين.. في حِين تَعود النسبة الضئيلة المـُقدَّرة بثمانية في المائة من مُتبرعين سود.. أمَّا النّشاط القانوني الخاصُ بالمنظمات المرخَّص لها بالعَمل في هذا الميدان.. فَيستهدف زَبائن يُعانون العُقم أو شريحة خاصة من الأزواج مثليّي الجنس)).

((وماذا عن المنظمَات السريّة التي تعمل دون رَقابة قانونية؟))

تساءل "روبيرتو" لتجيبه "فاليريا" قَبلَ أن يَأخُذَ أنفَاسَه، وكأنها على يقين بطبيعَة ونَوع سؤَاله..

((تعتمدُ تلك المنظّمات على جَمع المنيّ لإنتاج أطفالٍ نسبهم مَجهول.. يتم بَيعهم لمنظّمات البيدوفيليًا قَصدَ استغلالهم مَدى الحياة.. أمَّا الضحايا المخطُوفون كَما هو الحَال مع "سوزان" فيتمُّ التّخلص منهم بعد عدّة عروض مباشرة.. كون عَائلاتهم سَتستعين بأفراد الشُرطة للبَحث عنهم.. وهذا أمر قد يُعطلَّ

نَشاطات هذه المنظمَات حتَّى وإن كَانت تَتَستَّرُ بغطَاء الشبكة المظلمَة)).

استدارت لي مبتسمة وتابعت حديثها:

((أظن أنَّ الوقت قد حان للتّخلص منكِ...))

كانت هذه العبارات آخر ما لَفَظَتهُ "فاليريا" قبل أن يدوس "روبيرتو" عَلى فَرامل السيارة مُعلنًا بلُوغَ مَعقَلِ الشيطان؛ المكان الذي حمِلَ في جوفهِ أسرارًا لا يَنبَغِي على الملائكة تِبيَانُهَا!

***

*"لقد وُفِّقتُ كثيرًا في اختيار توقِيت هذه الجلسة العلاجيّة، فأمطارُ الخريف المنهَمِرة أسقطَتْ السّكينة على قلب الطفلة، وجَعلتهَا تتَجَاوبُ معي بإيجاب".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل الخامس: "غِيغاكس" هويّة لوسيفر!

## الجلسة العلاجيّة الرابعة: الاثنين ١٠ أكتوبر ٢٠١٦

ترجَّلنا من المركبة أمام محلٍّ عَتيق لا يَزُفُّ الخير، دَلفنَا إليه عبرَ بَابٍ حَديديّ صَدئ مطأطئينَ رؤُوسنَا كي لا تُنقرَ من الأعلَى، دَنَّسَتْ الرُّطوبة حِيطَانهُا لدّاخلية، ولَملَمَتْ أركَانه كُثبَانَ نَامية من الغُبار انقلَبَتْ سُحُبًا بَعدَ زَفيري. التفتُّ خلفي فلم أجد "فاليريا" ولا السَّائق "روبيرتو"!.. زحَف الخوف إلى نَفسِي فشخصَتْ عَينيّ في محجرهمَا،ابتلَعتُ ريقي.. ثمَّ جمعت أنفاسي وألقيتُ خُطَاي للرِّيح مُستَغِلة غيابهما؛ ولكن البَاب اللَّعين كان مُحكَمَ الإغلاق.. لأظَلَّ عالقَة كدمية قُماش مُستعملة ألقِيت في صُندوق الألعاب. لم أجد من خيَار أمامِي سوَى شقّ طَريقي إلى نهاية الممرّ الضيّق عَسى أن أهتَدِي إلى منفذٍ أو أبلُغَ إشارة تدلّني على الغاية من حَجزي!

(("كسّوو"!.. "كسّوو"!..))

داعَبَت مَسامعي صَيحات طفلة صَغيرَة بَعدَ بلوغي الممر، ذَكَّرَني صدَاهَا برَفيقتي "هون" حَبيسة الأسْر.. فالعبَارة التي رَدَّدتها

يابانية بحتة، كانت تُوَّظِفُهَا عند استيائها أو تَذمّرها.. لابد أن تَكون هي.. فَلا أحد غَيرها يُجيدُ اليابانيّة من بين ضَحايا الـ "ماما". كان أمَامي سُلّمٌ أسود حلزونيّ يَعرجُ إلى الطَّابق العلوي، استخدمتهُ للصّعود كَابِحَة حذائي من الطَّرق أو النَّقر، وما إن بَلَغتُ العلِّية حتّى امتدَّت إلى عُنقي قَبضة قويّة رَفعتني إلى حُضنِ السَّمَاء ثمَ هَوَتْ بجسدي على الأرضيّة الإسمنتية. كَانت حَركَة خَاطفةً لَنْ يَتَوقَعهَا مُصَارعٌ ولا مُلاكِمٌ، رفعتُ رأسي استقصَاءً للوَضع؛ لأجِد نَفسي أجثُو بمُحَاذاة مكتبٍ ضيّقِ المساحة مملوء بملصَقات "فنّ الوشم على الجلود". رُغم الإنارة الزرقَاء الخَافتة إلّا أنّني استطعتُ تمييِّز تلك النماذج؛ والتي تَوَسَّطهَا رسمٌ لذَكَر"الرّنّة".. المـُطَابقِ لشعار "بيدوفيليا العذراء"!

حَملت الزاوية الشمالية من المكتبِ أقنعة"هالووين" مصنوعة يدويًّا، تجسّد ملامح شخصيّات دمويّة كـ"دراكولا" و"رجل العثّة"، أبرزها تجَلَّى على درعٍ فخم ينتهي بقناع أسود لمخلوق طويل الأنف هلاليّ العينيّن يدعى «Sojobo[1]»، كنت قد عَاينتُه على قناة "طوكيو"التلفزيونيّة. ألقيتُ بَصري على يميني لأفاجأ بطِفلة مَحلوقة الشعر ومقطوعة الأذن، مُكبَّلة من رقبتهَا ككلب

[1] مخلوق أسطوري من الفلكلور الياباني، معروف بأنفه الطويل وشعره الأبيض الكثيف.

الحراسة، والسيّدة "ماما" تَشدّ عَليها وتَزيد حتَّى تَستَلِذّ صوت الأنِين.

تَرَاقَصَتْ عينيّ من وَطأة الذُّهُول، خصوصًا وأنَّ الصغيرة لم تكن سوى المسكينة "هون"؛ فرُغم ما لحق بجسمهَا من تَنكيل وإذلاَل إلَّا أنَّهم لم يرحموا ضعفَهَا ومَارسُوا التَّكالب عليها، غلَبني لِسَاني فأبَحتُ بالصّراخ ولكن نفس القبضة التي رَمتني على الأرض أخرست لساني بكفّها الدّافئ المُشبع عرقًا، التفتُّ خلفي ليظهر لي من بين الأنوَار رَجل خَفيف السُّمرة يَضعُ حلقة معدنيّة بَينَ فَجوتي أنفه! تَراجعتُ خطوة إلى الخلف وزدتُ أخرى، ثمَّ ركَّزتُ في وَجهه؛ كان شعره أسود وطويلًا كاللّيل المُكفَهر؛ أمَّا لحيته الكثيفة فزادت وجهه بُؤسًا وشقاءً.. دفعني على الأريكة المقَابلة.. خَلعَ معطفه البنيّ ورماه على الأرض، ثم انحنى بجسده الضَّخم على أحد الرفوف الخشبيّة قَاطعًا النُّور عليّ، واستخرج من صُلبها منحوتة حَجريّة لامرأة مجنّحة عارية، تَعلو وجهَها ابتسامة عِفريتة، قرّبها من عينيّ حتى تَسلّل غُبارها إلى منخارَيّ، أرخيتُ جفنيّ وبدأت التَّأمل في شكلها العَويص، ولكن الغريب الذي يحملها أعَادها إلى الرّف بسرعة مُسترسلًا يقول:

((رغم كون هذه المنحوتة مقلّدة.. إلّا أنَّ رَائحتها تُمجّدُ لنا رُوح "ليليث" حَبيبة "إبليس".. والزوجة الأولى لآدم الذي تسلّط عليها

وقيّدها.. "ليليث" تهوى الحريّة والعبث.. لم تجد كيانًا أفضلَ من الشيطان ليحرّرها من قَوانين الطبيعة.. لذا اتخذته عَشيقًا تلدُ منه كل يوم مَائة صغير.. أمَّا أنت يا عزيزتي سَنُحيي فيك روح التَّمرّد والمجون.. روح "ليليث" أنثَى الشَيطان!))

سدّدَ كَلِمَاتٍ قاسيّة ببرودة وكأنَّ الجليد يَسري في عُروقه، دَنا منّي أكثر مُداولا على الشَهيق والزفير حتَّى عَبرت أنفاسه إلى باطِن رئتيّ.. أنفاسٌ تشبّعت برائحة التَّبغ الذي كُبِتَ دخانه بين جدران المكتَب. ثَوان قليلة كانت كافيّة لتلامس شَفتينا، لالتحَام جَسدينا.. لإعلان عَرض جنسيّ آخر!.. تَوقف قبل بِدايته بأمر من العجُوز "ماما" التي زَمجَرتْ في وجههِ مُردفَة تقول:

((أنَا لم أوّقع على العَقد بعد.. وأنتَ لم تطَّلِع على شروطي حتَّى.. لذا تجنّبْ لمسَها يا "مينوتور[1]".. ومَارس عَملك كَمحترف)).

ابتسم بلؤم ثم انطوَى على مَقعَدِهِ مُغمغِمًا بعباراتٍ غير بَيِّنَة؛ لترد عليه الـ "ماما" قائلة:

[1] مخلوق قويّ البنيّة من الميثولوجيا الإغريقيّة، يحملُ رأس ثور وجَسَد إنسان.

((لا تَتذمّر من لقبٍ كنتُ قد أطلَقته عليكَ عن حُب.. فأنتَ على قدر كبير من الشَبه مع وَحش جزيرة "كريت" اليونانيّة.. الثور البشري "المينوتور"!))

تَظاهر وكَأنه لا يُبالي بكلامها، وانتظرهَا لتَقوم بخطوتها الآجلة، وبالفعل فقد استخرجتْ من سُترتها سِكينًا وظرفا صغيرًا يحمل في جَوفه ورَقتين مَملوءتين عن آخرهما.. نَشَرتْ إحدى الورقتين على الطَّاولة ثم غَرست معدنَ السّكين في راحة يَدها.. لتَتساقط قطراتٌ من دِمائها على بَياضها. وقَّعت العقد ثم أشَارت له فاقترب. شَخَصَ ببصره على البنود المدوّنة ثم فعل بيده ذات الأمر.. ليُوثَّق الاتّفاق بينهما بالدَّم والحبر، فهَذه العادة مُتوارثة في تقاليد العصابات والمنظَّمات السريّة.

((التّخلّصُ من الطفلتين بقتلهمَا في ظرف أقصَاه ستة أشهر.. كان هذا شَرطكِ الوحيد!))

خَاطبها "مينوتور" لحظة انهماكِه بتَوقيع النُّسخة الثانية من العقد، والتي سَيحتفظ بها لنفسه، لتجيبه الـ "ماما" قائلة:

((بالطّبع!.. فبقَاؤهما على قيد الحيَاة قد يضعُنا في وَرطة حَقيقية)).

أومَأ برأسه مُظهرًا نَوعًا من الرّضا، استقَام على سَاقيه مُرتديًا مِعطفه الجلديّ الطَّويل، ثم أردَف يقول:

((لقد تمّتْ الصَّفقة أخيرًا.. يمكننَا المغادرة إلى أقرب حانة للشرب والاتفاق على موعد استلامكِ المبلغ)).

ابتسمت العجوزُ بِبَشَاشة بعد سماعها أمر تَسديد الديون، ثمَّ وقفت بشُموخ وكأنها المستَفيدة الأولى من هذه الصَّفقة، التفتتْ لنا وبصَقت علينا، ثمَّ قالت:

((عزيزي "مينوتور".. عليكَ بتكبيل رفيقتها إلى حين عَودتك)).

تجاهلَ الغريب كَلامها وراح يجرُّها إلى الخارج مُكتفيًا بإغلاق باب المكتب، ومَا إن تَباعدت خُطى أقدامهمَا واختفت أصوَاتهمَا حتَّى قفزتُ أعَانِقُ "هون" وأشكر اللّه على سَلامتها. سَألتها عن حَالها فاكتفت برَفع حَاجبيْها، حَاولت مُجدّدًا فتلألأت عَينيها وانهمرَت دُموعهَا لتَرسم على خدَّيها نهرين اقترنَا أسفَلَ ذِقنِهَا حُزنًا وأسًى، يبدو وكأنَّهَا ضَحيّة صَدمة نفسيّة أحَالت بينها وبين الكَلام السويّ؛ فلم تكن تجيبني سوى بِكلمات سَهلة النُطق لم تَقدر حتَّى على لَملَمتِهَا في جُمل مفهومة. المسكينة.. بَدت كَضحيّة من ضحايا "التّجربة المُحرّمة" التي مُورسَتْ سَلَفًا على الأطفال

بغيَة إدرَاك جَوهَر تَواصلهم دون تعلّم أيّ لغة بَعد عزلهم في غُرف خاويّة لفَترَاتٍ بعيدة المـَدى. رَفعتُ همّتي وتماسكت حتَّى لا أزيد من غُبنهَا.. مُخفية ألمـًا حادًا كان يَنخُرنِي منذ فراقي لأمي؛ ألمٌ جعل من المـُضغَة السَّاكنة بين أضلُعي عَضلة وَاهنة شَاخت خلاياها بكرًا قبلَ الأوان.

ألقَيتُ خُطَاي صَوبَ باب المكتب، أخَذتُ سِلكًا نُحَاسيًّا كانَ على الأرضيّة، عَقَفتُه وعَدَّلتهُ على قَدر مُعَيَن ثمَ أولَجتُهُ في مَوضع المفتَاح.. حَرَّكتُه في كُلِّ الاتِّجَاهات ولكنّه أفلَتْ ولم يَفتَح البَاب..استَسلَمتُ للفَشَل واكتفيتُ بتفحُّص بعض مُحتويات المكتب دحرًا للوقت. كان رَفُّ الكتب أكثر مَا شدّني منذ دخولي إلى هذا المكان؛ خُصوصًا وأنَّ تصميمه التَّقليدي حملهُ خشبٌ قاسٍ نادر الوجود، دَنَوتُ منه كنمر سيبيري يَتَأهَّبُ للقَنص، لتَقع عينيّ على مَخطوطة سَوداء كَبيرة تَرَبَّعَتْ على عرش الكُتب، أزحتُ أكوامَ الغبار العَالقة على كعبِ غلافها فبَان عُنوَانُهَا. "مَخطوطة الشيطَان"«Codex Gigas[1]»!

سَحَبتُهُ بقوة إلى مُنتصف المكتب مُوَاجِهَة كِبر حَجمه وثِقل وزنه، شمَّرتُ على ساعديّ وأخَذتُ أفتح صَفحاته وأتفحَّصُها الواحدة تلو

[1] مخطوطة غامضة يُعتَقَدُ بأنَّهَا كُتِبَت في القرن الثالث عشر، تُعرف أيضًا باسم كتاب الشيطان.

الأخرى؛ كُنت كلّما قلَبتُ صفحة أُثِيرَ وَرَقهَا مُطلِقًا طِيبًا عَبِقًا غَازلَ شُعيراتَ أنفي، أمَّا غُبَارُهَا فقَيَّدَنِي بكَحة خفيفة ورَغبة في العَطسْ تعمّدتُ كتمَانهمَا كي لا أوقظ "هون" من النَّوم؛ فَقد أخذها الإرهاق إلى عَالم الأحلام، عالم سَيهديها سعادة افتقدتها على أرض الواقع.. أرض الأوهام.

بَعدَ بحث عَمِيق خُضتُه لفَهم المخطوطة استَقرَّت عَينيّ على صُورة تُرخى لها عَضلات البدَن وهنًا ورعبًا؛ جَسَّدَت كيانًا من بُعدٍ آخر يَظهَرُ كَنوع من الشياطين!.. يَقف على رجلي طَير تَنتهيان بأظافرَ حادّة ومَعقوفة، رافعًا يدَيه أعلَى رأسه بَارز القرنيين، اكتسى وجهه خُضرة غَريبة زادته قبحًا وخبثًا؛ أمَّا جَسده النَّحيل فكَان عَاريًا تمامًا، لولاَ قِطعة قُماش أصفَر ستَرت مَا بَان من عَورته.

بَينمَا ألامِسُ وَجه الصّورة مُتَفحِّصَة المواد المُستَخدَمة في تَلوينها، وقع خنصري عَلى تحدّب واضِح مُنتصفهَا، في الحين قلبتُ وجههَا وصَوَّبتُ بصري نَحوهَا، لأجِدَ ظرفًا أسودَ طويلاً مختومًا بلون أصفر ذهبي. عَزفتُ في البَادِئ عَن فَـتحِهِ؛ ولكنّ فُضول الطّفُولة الذي سَفَرَ من العَدم وأزالَ عنّي الخوف ومكَّنَنِي من تمزيقه.

ظَننتُ أنَّ مُحتوياته سَتكون بَاقةً من الصور الفوتوغرافيّة كما صَادف وحَدث معي داخل قسم «Savage babies»؛ ولكنّي لم أحزر البَتة أنّي أحملُ بين يديّ دعوة رسميّة لحضور حفل كبير مَهول. دَقّقت نظري أعلى البطاقة لأجد رَمزين لنجمتين خماسيّتين تتوسَطان دائرتين، وبينهمَا عبارة مَخطُوطَة باللّغة الانجليزيّة جاء فيها: «Satanic Ritual Abuse» تَسعد بحضوركم!

جَاءت الدّعوة باسم "مارتن هنري"، كَما أنَّ تأريخها دُوِّنَ الجمعة الماضية؛ ما يؤكد أن هذا الشخص لَن يَعدُو كَونِه الـ "مينوتور". أعدتُ الظّرف إلى مَكانه وتَابعت تصفُّحَ ما بَقِيَ من أوراق المخطُوطة؛ فرغم خَطِّهَا المكتوب بلغة انجليزية سَليمة؛ إلَّا أنّ الغُموض قَد حَجَبَ نُصوصها التي بدَتْ وكأنَّهَا تُنوِّر عُقولنا ببعض الممَارسات الطبيّة القَديمة، والطرق الصَّحيحة للتّوبة وطرد الأرواح الشريرة!.. كَما بدا واضحًا تشبّع صَفحاتها بمفردات عَقائديّة سُحبت على الأغلب من التّوراة والإنجيل، ولعلَّ الأعجَبَ في "مخطوطة غيغاكس" تَدَعُّمُهَا برُسومات خَطِيرة تُمجّدُ الشيطان كَكيان قويّ ووَبِيل!

أذعَنَتْ مُحاولاتي في فهم المخطوطة للفَشل؛ لذا عَجَّلتُ في إرجَاعِهَا تداركًا لأي طارئ، رفعتُ قدميّ إلى الأعلى حتَّى استقمتُ

على رؤوس أصابعي، ثم حَاولتُ حَشرَهَا بَينَ الكُتُب. فَجأة!.. سَمعتُ صوتَ مفتاحٍ يلجُ في ثقب الباب ويَنفُضُ أحشاءَه، أردتُ إنهاء الأمر قبل أن يُكشفَ أمري فعجزت عن ذلك، ليلتوي كَاحلي وأسقطَ على أرض إسمنتية بَاردة استقبلتْ مُؤخرة رأسي بضربة جَامِدة، طرَقت جدرَان جُمجمتي وَجَمَعت واقعي بأحلامِي!

***

طَنينٌ وَبيلٌ دَندن طبلتي أذنيّ وأيقظني من كَابوس كنتُ قد عَايشته بعد فُقداني لوعيي، فتحتُ جفنيّ على مهلٍ لأستقصي هويّة الشخص الذي رفَعني من على الأرض ووضعني على هَذا السَّرير! كَانت جُدران المكتب تقفُ منتصبة أمامي وعلى شمالي؛ أمَّا على يميني فكَان هُناك لوحٌ خشبيّ كبير يحمي خَلفية مكتبة الـ "مينوتور"، بالصدفة اهتَزَّ تحتي السَّرير!خَفَضتُ رأسي مُتفحصة الأمر، فَلم أرَ إلّا ظلامًا مُحتدمًا يُذهِبُ البصر، دفعتُ بسَاعدي إلى أسفل مُتَحَسِّسَة فَضاء ما بين السرير والأرض؛ لأشعرَ بمعدن أفعواني بَارد يلامسُ سَطحَ يدي، أمسكتهُ جيّدًا واستخدمتُ قوتي في سَحبه إلى الخارج، لأفاجَأ بصَديقتي "هون" قد أطلّتْ عليّ برأس مُقيّد تَصرخ وتبكي من الألم. لَقد عاملتُها للتَّو ككلبِ حِراسة، لَجمَنِي حُزنِي ففَاضَ الدَّمعُ من عَيني، ولَم

أجِد من سَبيلٍ أمامِي لإرضائهَا سوى احتضَانهَا والتمَاسِ الصُّفحِ منهَا.

((أحسنتمَا!.. أحسنتمَا!.. لقد كان مشهداً دراميًا يَعصِرُ الفُؤاد ويَفطِرهُ)).

صَوت عَميق تَرَدَّدَ صداه خَلفنا، صَاحَبته تَصفيقَات مُبتذلة الغايَة منهَا الاستصغَار، لَم يَكُن صَاحبه سوَى الـ "مينوتور".. الذي كَانَ جالسًا على الكرسيّ يحملُ بين يديه "مخطوطة غيغاكس" ويَضع عليهَا كيسًا ورقيًا يَحوي وجبة شوَارع، ألقاهُ على السَّرير مسترسلًا يقول:

((تناولاَ هذا الطّعام بسرعَة وإلا فلن نَستَلذّ طعمَ دمائكُما مُستقبلًا.. لقد أحضرتُ لكمَا بعض الذرة المشويّة وأجنحَة دَجاج مقليّة.. يمكنكمَا غَمسها في الصلْصة الحارّة وأكلها.. ستجدونها دَاخل العلبة البلاستيكيّة البيضاء.. وبما أنّكُما طفلتان فقد فضّلت أن أقتني لكمَا عَصير الفواكه الطازج بَدلًا من الصّودا)).

تغلَّبَ جُوعِي على خَوفِي وأذِنَ لي بالأكل؛ فقَفَزتُ على كيس الطَّعام مُفرغَة ما في جَوفهِ لأتقَاسمَ محتواه مع رفيقَـتِي "هون". وقَبلَ أن نَنكبَّ على الوَجبة دنَا منَّا الـ "مينوتور" وشَاركنَا الطَّعام،

أخذ قطعة من أجنحة الدجاج المقليّ ووضعَهَا تحتَ رَحمة أضراسه واسترسَلَ يقُول:

((سوزان".. كنت أظنك طِفلة مدلّلة.. ولكنَّ الشجاعة والجرأة التي أظهرتهمَا بعد وصولك إلى هذه المخطوطة وتصفّحكِ لمحتواها.. جعلاني أفكّر في العدُول عن قتلك.. فتَجَمُّعُنَا الشيطاني يحتاج إلى فتاة مُختارة كل فترة من الزمن.. وقَد يجنّدكُ "لوسيفر حامل النور" كراهِبة جَديدة في كنيسة الشيطان بأمريكا اللَّاتينيّة.. من يعلم! قد نضربُ بشروط الـ "ماما" عرض الحَائط)).

قَال كلامه لحظة مُعاينته لـ«Codex Gigas» ، في حين صِحتُ مَذهُولة:

((عن أي كَنيسة تتحدث!أنا لم أقرأ تلكَ المخطوطة! ولم أُخْلَقْ لأكون راهبة.. أفضل الموت على خدمة الشيطان!))

رغم لَفظِي أقوَى العبَارات أمَامه؛ إلّا أنّ الحقيقة كانت مختلفة تمامًا، فلم أكن أرغب بالهلاَك قط. ابتسم الـ "مينوتور" وكأنّه أدرَكَ مَوَاطِنَ ضُعفِي، ثم تابع حديثه قائلًا:

((يمكنك استخدامُ الكَذب كَما تشائين.. لكن كَاميرا المراقبة المستترة في زاوية المكتَب تُثبتُ إدانتك.. فلو لم تكن المخطُوطة مقلّدة لما استطعتِ تَحريكها أصلًا)).

ابتلعتُ ما تبقى من الذرة المشويّة مطأطئة رأسي من الخجل، ثم بَادرتُ بسؤاله أمام عينيّ "هون" التي لم تَعِ ما يَحدُث...

((كيف لتلك النُّسخة الضخمة أن تكون مُقلّدة!.. وما علاقة الشيطان بتلك الصورة الغريبة المرسومة في أحَد صفحاتها!))

((النسخة الأصليّة من هذه المخطوطة تزن قرابة مائة وأربعُين رطلًا.. كَما أنَّ ثقلها يَعود للجُلود الحيوانية التي استخدمتْ في صُنع ستمائة وأربعة وعشرين صفحة من مُحتوياتهَا.. النّسخة الأصليّة يا عزيزتي تتواجد في المكتبة الوطنية بـ"ستوكهولم".. أمّا التي أحملها بين يديّ تُعدُّ التوأمة المـُقلَّدة لـ«Codex Gigas»))

سَحَبَ الظَّرف الأسود الذي توارى بين الصفحات العَتيقة، رفع يده اليمنى مُلوّحًا به إلى أعلى وكأنَّه يحَاول لفتَ انتباهِي، ومَا إن وَقعت عَينيّ عَليه حتَّى أردَف يَقول:

((يُعدُّ تصفّحك للمخطوطة أهون من فَتح هذا الظرف والاطّلاع عليه.. كمَا ترين عزيزتي.. فهذه دعوة رسميّة من كَهنة طائفتنا الشيطانيّة.. لحضُور مراسم تنصيبِ بعض الرّهبان الفتيان.. وبما أنَّ الحدَث لم يبقَ على انطلاقه الكثير..سأُعجِّل بدوري في طرح قَضيتك على كاهننا الأعظم اللّيلة قبل الغد.. ومن يَعلم.. قد يتمُّ الإبقاء على حَياتك مقابل خِدمة أبديّة لمخلصّنا "حَامل النور")).

أنهى حَديثه مُلقيًا دفترًا صغيرًا أمام ناظريّ، منوّهًا بضرورة اطّلاعي عليه حتَّى أبرعَ في دوري كَراهبة بكنيسة الشيطان. اقتَادنِي إلى مَوقع المرحَاض وأطلعني على مَعالم المكان ثم غادر مُحكمًا إقفال الباب.

اشتدَّ حبلُ الغَيْظِ على عُنقي بعد الذي سَمعتهُ للتّو، فلم أعِ إلَّا وقد حملت ذلك الدفتَر الصَغير وألقيته على مدّ بَصري تذمّرًا وسخطًا من تقمّص دور اللّعبة؛ ولكنَّ "هون" ضغطتْ على مرفقي وأشارت لي بإحضاره، فلم يكن منّي سوى الانصياع لرغبتها وفتحه لنتَشارك سويًّا في قراءته واكتشاف مكنوناته.

كَان دَفترًا أسودَ بحجم جَواز السّفر؛ يَظهرُ مُنتصف غلافه شعار محفور يجسّد الشّيطان "بافوميت" في هيئة رجلٍ مجنّحٍ برأس

تيسٍ تَقبَعُ على جبينه نجمة خماسيّة، يده اليمين مرفوعة أعلى رأسه، ويده الشمال مُتّجهة أسفل بطنه، مُسوّيًا بأصابع يديه إشَارات غريبة تحمل دلالات معيّنة. فتحتْ "هون" الصّفحة الأولى من الدفتر الذي كُتبت نصوصه بخطّ اليد مُزيحة الستار عن بنود وقوانين أزمعَ كاتبها على تمجيد الشيطان وعبادته، مُستعينًا ببعض التّعاليم المـُقدَّسة لرئيس كهنة "عبادة الشيطان"ومؤلّف "الإنجيل الأسود" الأقرع "أنطون ليفي"!

تعاليمٌ بائسة، محبطة ومقزّزة، تنشر الشرّ بدل الخير، تُبيح القتل بدل حماية الغير، والأسوأ دعوتُها لممَارسة الرّذيلة حتَّى الموت حُبًّا للشيطان عدوّنا وعدوّ الكون. حملَ هذا الدفتر اللّعين نقاطًا مهمّة تساعد المـُنتسبين الجدد لكنيسة الشّيطان على استيعاب السُّبل الصّحيحة لتكريس حياتهم في طاعة "حامل النور" مُخلّصهم حسب زعمهم؛ ولكن ما أثار حفيظتي بعض النُّصوص المـُتهكِّمة والمستفزّة الداعيّة إلى تحرّر الإنسان من العقائد والديانات المزيّفة التي تُرهب البعض بجهنَّم وتُبشر القلّة بالجنّة؛ فلا حياة بعد الموت ولا جزاء بعد البعث...

''عليكَ يا ابن آدم أن تزهق روح الحياة، تُمارس الجنس مع من تشاء.. حَيوانات بشر أو جماد! مارس الجنس بعمق ولذّة وعطاء، حَاول الوصول إلى نشوة الجماع كنشوة "ليليث" وزوجها "لوسيفر"

الشيطان، مع العجزة.. البالغين أو حتَّى الأطفال؛ فأنت.. أنَا.. ونحن نتساوى والحيوان، الكُل فاسدٌ والفساد من شيم الأحرار، مارسوا السّحر وعذّبوا الصغار، اقتلوا الأجنّة في الأرحام.. الطَّاقة يا مَعشَر النُّخبَة مَصدَرُها القُلوبُ والأحشَاء، والخلُود مَنبعُه دِمَاء القَرابِين الحَارّة لا أنهَار الجنّة، اطبخُوا لحُومَهم وانهشُوها في قُدورٍ صُنعَت من العِظام، واضربُوا حُماتهم بِقوّة حتَّى القَتل ولا تَرحمُوا الكِبار ولا الصّغَار، نحنُ الشِدّة وأنتُم الوَهن، نحنُ جندُ "لوسيفر" وأنتُم أنصَارُ "الرّب"''.

كَان هذا أخطرَ كلامٍ دُوِّنَ على دَفتر الشيطان، كَلام جَعل من فرائصي تَرتعب وتهوي على بطني بآلام لم تنتهِ إلّا بزحفي إلى المرحاض، واحتضاني له لأفرغ فيه ما بداخلي من وجع وذُلٍّ وأحزان.

عدتُ من المرحَاض أصَارع الخوف والخوف يُصارعني، أمدُّ قدَمي إلى الأمام لأجدها قد عادَت خَلفي! أنا.. ونفسي.. أطرافي.. وجسدي؛ نعلم جميعًا أنَّ ما قرأته للتوّ ليس خيالًا ولا قصصَ رعبٍ؛ بل طقوسٌ ساديّة سَنمارسها في حفل تَنصيب "الرَّاهبات" حتَّى نبلغُ اللّذة أو أن يُدركنا الموت.

كَان وَجه "هون" مُتقلبًا وعَابِسًا، سَألتها عَن حَالها فأشَارت بسبّابتها إلى الصّفحة الأخيرة من الدّفتر، ابتلعتُ ريقي مرّة ومرّتان وثلاث حتَّى جفَّ حَلقي من المعاودة والتّكرار، ثم هَبطتُ برأسي على مَوضع الصَّفحة وكأنّني سَاحرة عجوز تَسعى لتلاوة تَعويذة شرّ؛ ليقَع نَظري على الوصَايا العشر لطَائفة شياطين الإنس.. وصايا "الإنجيل الأسود"!

مُرغمة أنا رغم صغر سنّي على معرفة عدوّي حتَّى أسلَمه، مُرغمة على التَّعمق في القراءة لفَهم الفلسفة الآبِدَة التي دَسّها زعيم كهنة "عَابدِي الشيطان" بين أوراق الدّفتر.ما إن بَادرتُ بالتهام أوّل صفحة عرضتْ فحوى تلك الوصَايا حتَّى سَقطت بين فخذيّ قُصاصة صَغيرة كُتب عَليها:

''أيتهَا الكَاهنة الفَاتنة.. في منتصف المكتبة وخلف كُتبِ السحر والشعوذة.. يقبع جهاز تلفاز قديم استهلك الزمان روحه ولم يترك منها سوى جزءًا صغيرًا.. عليكِ استخدام هذا الجزء لتُرسّخي بعضًا من وصايا "أنطون ليفي"! بروحك وقلبك قبل عقلك.. فالقراءة لن تكفي لوحدها''.

"مارتن هنري"

بعدَ أن فرَغتُ من القرَاءة فاجأتني "هون" بقفزهَا من مكانها صَوب المكتبة، والسلسلة المعدنية المتَّصلة بعنقها تُسحَبُ خلفهَا كظلّها، أزاحَتْ الكُتب العَتيقة من مُنتصف الرَّف لتفسَح المجال أمَامنا على تلفاز صَغيرٍ قَديم الطراز، تَظهرُ على شاشته آثار حَديثة لأصابع بشريّة طُبعت على الغبار؛ ما يدُلُ على أنّ السيّد "مارتن هنري" والمعروف بلقب "المينوتور" هو الذي يقفُ وراء كل هذا اللَّهو منذ البداية. كل شيء بَات مدروسًا ومُخطّطًا له من قبل؛ فجهاز الفيديو قد وُصلتْ أسلاكه بالتلفاز وشريط الفلم قد وُضع في جوف القارئ الآلي لينتظر منَّا لمسة واحدة تدفعه وتَكشفَ لنا ما يكنُزهُ من أسرار.

التفتُّ إلى "هون" مُحَملِقَة في عَينيها، ثمَّ أومأتُ لها برأسِي ففهمتْ إشارتي وضَغطتْ على زرّ التّلفاز. أخذتُ نفسًا عميقًا سَحبتُ من خلاله جُلَّ هواء الغرفة الملوّث على قدر اتسَاع رئتيّ، ثم أطلقته بزفير طَويل يحُاكي مَرارة الألم الذي لحقني هذه الفترة، ضَغطتُ على شريط الفيديو بإبهامي وتركت القارئ الآلي يلتهمه؛ فبدأ بيَاض الشّاشة بالتّواري كاشفًا مقطعًا حقيقيًّا من فلم مُسجَّل بالأبيض والأسود، تظهر فيه طفلة شقراء في مثل سنّي مُقيّدة على كرسيّ بحبالٍ رفيعة تَكاد تأكُلُ فستانها الأبيض الشَّفاف، وشيخ طاعنٌ في السنّ تلاعب الزّمن بملامح

وَجهه؛ تربّعَ أمامها برداء أسود طَويل أبانَهُ كابن للشيطان. أخذ يملي عَليها جملة من النّصوص المُحرَّمة، وما يَكاد يفرَغ من نص حَتى يسألها وهو يَفركُ ما تحتَ لحيتهِ البيضاء: من مُخلّصكِ! فإن أجابت "اللّه" تناولَ نعله وأصابها ما بين عينيها، وإن ارتَدَّت في كلامها واختارت الشيطان قَام واستقَام وقَبلها وفعل معهَا ما يفعله العشاق في بيت الخلَاء؛ كَانت تلك النّصوص هي الوصايَا العشر المذكورة في "دفتر الشيطان".. وصَايا "أنطون ليفي" مؤلف "الإنجيل الأسود"!

خَلَعتْ "هون" حذاءها الجلديّ وأصَابت الشّاشة في المُنتَصف تأثّرًا منها بوضاعة المَشهَد؛ ولكن الوزن الثقيل للتلفاز مكّنه من الثبات ليرفضَ السُقوط ويواصل مهمته في تنويرنا بتلك الوصايا الوَسِخَة، وكأنَّ "المينوتور" قد تعمَّد نقلهَا إلى مَسامعنَا عبر مشاهد قاسيّة تُرغمنا على تمجيدِ الشيطان، أو الرُّضوخ لنزوات أبنائه من تحرُّش واغتصاب يَهدرُ الأنفسَ والأرواح.

***

*"كانت فكرة إهدائهَا كتاب Geek Girl[1] سديدة حقًا، فقد زادت ثِقَتُهَا في شخصِي أكثر، وأضحتْ الجلسات العلاجيّة معهَا أكثر تفَاعلٍ من قبل".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

[1] الرّواية الأولى للكاتبة "هولي سمايل" من نوع أدب الشّباب، بطلتها مراهقة إنجليزية.

## الفَصل السّادس: رحلة إلى مَخدع الشَيطان!

## الجلسة العلاجيّة الخامسة: الأربعاء ٠٩ نوفمبر ٢٠١٦

نَقلت لنَا الوصَايا العشر مَشاعر سِلبيّة يصعب كَشطُهَا من الذّاكرة؛ كَيف لا وهي تزُف لنَا خبر انتصَار "حامل النّور" على الرّب آخر الزمان بِنشره لقُوّة الثأر بدل التسَامح والأمان؛ قوة قد سَقطت من رَحم السّماء بعد نُزول آدم وحواء من الجنّة إلى آخر الأرض لتَقع على قَلب زاهق الرُّوح "قابيل" أبو الكِبَرْ الذي مُنحَ رحمة قد مُنعتْ عَن شَقيقه "هابيل"... رَحمة "إبليس" ابن "سوميا" الذَّليل!

عَانت الطفلة الشّقراء في مَقطع الفيديو مَرارة الضّرب بالنّعل.. التقبيل واللّمس، سواء آمنت بالشيطان أو بخالقه الرّب، لم يَكن أمَامها من سبيل سوى الرضُوخ للألم وسَواد القدَرْ؛ أما ذاك الشّيخ "جِلفُ الصّحراء" فَواصل نَقل الوصَايا على مهلٍ وكأنّه يخشى زوال النَّشوة بانتهاء المهمة. لفتَ انتبَاهي إلقاؤُه لوصيّة غَريبة جَعلتني أجترُّ الأفكَار وأعيدُ التَّفكيرَ في أمر انتسَابي لطائفة الشيطان كَراهبة، نَصّت الوَصيّة على أن الشَيطان هُو رفيق

الكَنيسة، والسَّاهر على استمرَارية نَشاطها ودَيمومتها، يجمَع الفَواحش ويُبيح الزّنا! يَنشر السّحر ويُبيد الخوَنة!

الخوَنة!... الخوَنة!... الخوَنة!... هل يعني هذا أن تَولّي مَنصب راهبة في كنيسة الشيطان سَيعرِّض حَياتي لخطر المَوتِ إذا ما خُنت الطَّائفة وعُدت إلى ديني وحَياتي! ومَاذا إن عَزفتُ عن الرّضوخ لهم وأفسَدتُ مَرَاسِمَ التّنصِيب ورميتُ بطقوسهم عَرض الحَائط.. هل سَأنجو أم ألقَ نفس المصِير!.. يَبدو وكَأنّ الفَرق بين الخيارين هو تَوقيت الموت، فامتثالي كَراهبة يَمُدُّنِي بعضًا من الوقت عَكسَ الرّفض... أشعُر وكأنّي والشقراء التي تَظهر على مَقطع الفيديو قَد تَقاسمنَا نفسَ المشَاعر. رَمَانِي التَّفكير بعيدًا حتَّى نسيتُ تَواجد "هون" بجانبي.. المسكِينة!..لا يَزال مَصيرها مَجهولًا.. خُصوصًا أنَّها لا تَملك خيارًا قد يُؤَجلُ سَاعة هَلاكها.

لم تَصمدْ "هون" أمَام شَاشة التّلفاز؛ فَقد استغلّت حَاجز التَّفكير الذي عزَل انتمَائي إلى الواقع، وقطعت تَدفق الكَهربَاء إلى جِهاز الفيديو، لتُنهي مُسلسل الخوف والتّرقب وتفتَح السَّاحة للرّاحة وأخذ قسط من النَّوم. لم أعَارضها فَقمت إلى الفراش ماسكة بيدها شَاخصة ببصري إلى الأمَام وكأنّني جثّة هامدة قد عَادت إليهَا الحياة. استكَنتُ على السّرير الخشبي الذي جَمعني مع "هون"، وضعتُ سَاقي على سَاقها وحجبتُ رأسها الأقرع بشعري

الطويل لأبعثَ في نفسهَا أمل عَودته إلى طَبيعته الجمِيلة. كُنت كلّما أردتُ سَحب طَاقة التَّفاؤل إلى مخيلتي أتَت أفكارٌ سلبية ونثرتها بعيداً؛ كَريح هَوجاء ألقتْ بغضبها على حُبيبات طَلع كانت ترقدُ في بَواطن الأزهار.

((لوسيفر".. "حامل النور".. تُرى ما سرٌّ تعلقهم بهذا الشيطان!.. أظنّكِ تَطرحين هذا السُؤال على نفسكِ في ليلة صمَّاء كهذه يا "سوزان"!))

صَوتٌ رُجولي مألوفٌ صُبَّ في مجرَى أذني؛ لوهلَة ظَننتُ أنّي أهذِي بَعد صِراعي مَع النّعاس، وكَأنّني أقف على برزخٍ يفصل اليَقظة عن النَّوم؛ ولكنّ الصّوت الذي تعمَّد صاحبه إخفاءه قَد توقّف واستَحَالَ إلى هَمس حَميمي يثيرُ حَواس الحبّ لدى العشاق.. فَتحتُ عينيّ على مَهلٍ لأبصِر على الجدار ظلًّا كَبيرًا لمخلوقٍ يَحمل أعلى رأسه قَرنين طويليّن!.. عَرقٌ بارد أخذ ينفَذُ من مَسامات جلدي، وضعتُ يديّ على بَطني مُتعمدة وخزهُ للتأكُد من أنّي أعيش الوَاقع لا الأحلام، شعرتُ بحرقٍ وآلامٍ توحي أنَّ "حامل النور" قد جَاء خصيصًا لزيارتي! يا إلهي ما العَمل! بحقِّ الإله ما العَمل!...

قُمتُ فزعة مُزمعة على الصّياح؛ لأشعُر بيدٍ باردة تلتفُّ حَول عنقي كالحيّة وتحرمُ عنّي الصّراخ، أغلقتُ عينيّ واستسلَمت للأمر راجية من اللّه الحماية. حَملني ذلك المخلُوق برفق ووضَعني على الكرسي.. أوقد المدفَأة الكَهربائية تداركًا لبَرْد "أبريل" ثمَّ قرّبها من ساقيّ المرتَعشتيّن مُردِفًا يقول:

((صوّبي نَظرك نَحوي يا صَغيرتي.. فأنا لستُ بتلك البَشاعة التي زرعَتها مُعتقداتكم داخل نُفوسكم)).

رَفعتُ رأسي بِزاوية مُناسبة.. حَدَّقتُ فيه.. ثمَّ وضعتُ كفَّ يدي على موضع قلبي الذي أخَذَ يَضُخُّ دماءً اسودَّ نسيجهَا من الخوفِ، كان وجهه وسيمًا رغم بروز قرنيه الطويلين أعلى رأسه؛ ولكنّ هذا الجمَال الشّيطاني لم يعِش إلى الأبدِ.. فبِمجرّد انتصَابي على قدميّ أمَام شَخصه قامَ برفع يديه إلى الأعلى وانتزَع جلدَ وجهه كَاشفًا عن مُخادعٍ مُنحرف يقبعُ خَلف القناع.. والذي لم يكن سِوى "المينوتور"..."مارتن هنري"!

((كَيف تجرؤُ على خِداعي بِطريقة لن يَقوى عَاقلٌ ولا مجنونٌ على هَضمهَا!))

ابتسَم في وَجهي ابتسَامة لطيفة ثم تَناول من الرَّف الذي يجاوره شَمعة بَيضاء، واستخدَم الولّاعة في إشعال فَتيلها، قطَّر خُلاصة

الشّمع الذائب على الأرضية وثبَّتَ قاعدة الشمعة عَليها لينِير ما تَيسّر من فَضاء الغرفة، نَظر إليّ بعضًا من الوقت ثم استرسل يَهذي:

((أردتُ بارتدائي ذَلك القِناع أن أُشعَّ قَلبكِ بنُور "لوسيفر".. وأجعلك تَتحسَّسينَ وُجوده وكَينونته.. أردتُ أن أظهره بالوجه الجميل الذي يجهلهُ النّاس.. ويَراه فَقط أعوَانه المـُخلِصين من الإنس والجان.. "سوزان".. زيَارتي في هذا الوقت المتأخر لم تأتِ صُدفة.. بل جَاءت لتَنويرك بمزايا "لوسيفر حَامل النور".. ولا أظن أنَّ هُناك وقتًا أكثَر وضوحًا لإطلاعك على أسرَاره سِوى هذا اللّيل البَهيم!))

لقد استطَاع هذا المجنون إقنَاعي بالإنصَات رغم من عُزوفي بادئ الأمر عن التَّعمق في حياة الملاك السّاقط من السَّماء؛ لذا لم أجِد من مَانع في السؤال حَيث أردفتُ قائلة:

((كيف لمخلوق أخرج "آدم" من الجنّة أن يكونَ مظلومًا!.. كيفَ لـ"حامل النّور" الذي تُقدّسونه أن يغدو بريئًا من الخطايَا!))

حمل زجاجة مُقَعّرة مفتوحة الجهتين وأسقطها على الشمعة ليحمي طفل النَّار من الانطفاء، ثم أردف يقول:

((لنفترض أنَّ الشمعة هي "آدم".. وأنَّ الزجاجة جنّة عدن.. وأنَّ "لوسيفر" هو نَسمة الهواء التي أزمعتْ على إطفاء الشمعة وإخراَجها من بين أحضَان الزجَاجة...))

وضعَ أحد الكُتب على فُوهة الزجَاجة فانطفأت نَار الشَّمعة، استَدارَ لي وقد سَفَرَ بياضُ عَينيه ناصِعًا بينَ ظَلام الغُرفة، ثم قال:

((الجنّة مُحرّمة على الشيطان.. لهذا لم تقوَ نسمة الهواء دخول الزجاجة بالقدر الكافي لإطفاء الشمعة.. لتبقى هذه الأخيرة مُشتعلة.. ولم يخفتْ نورها إلَّا بعد قَطع الأكسيجين عن مُحيطها بعد وضعي لهذا الكتاب أعلى الزجاجة.. وبما أنَّ نسمة الهواء بريئة من إطفاء الشمعة.. فـ"حامل النور" قد ترَّفع عن طَرد آدم من الجنّة.. دعينَا نقول أنَّ الكِتاب الذي عَزل الأكسجين هو "الوسوسة".. التي استخدمهَا الشيطانُ بحكمةٍ لفتح عينيّ آدم عمَّا أُخفِي عنهُ.. ولو لم تَكُن رسالتَهُ صائبة لما اهتمّ لأمرهَا الرّب ولما طرد آدم من الجنّة!))

بدأ الأرعَنُ يَستدرجني إلى مَتاهات عميقة بفَلسفته الغريبة، مُستغلًّا ضعفَ مستواي الثّقافي أمام تفكيره المـُتَّقِد؛ ولكنّي أزمعتُ على إخراسه فقلت:

((حتَّى وإن كانت الوَسوسة سَبيلًا غير مُباشر لطَرد آدم من الجنّة.. فستبقى ذنبًا يَستحيل نُكرانه)).

ابتسمَ لي مجدّدًا؛ سَحبَ عُود ثقَاب وأنار بلهبِه فتيل الشَّمعة وكَأنه يُعيد الزَّمن إلى الورَاء، دنى منّي قليلًا ثم خاطبنِي بثقة:

((سَأسرد على مَسامعك قِصّة الخلقِ عَسى أن تُنصفي "حامل النّور".. اقتَربي قليلًا وسَأخبرك بسرّ)).

فعلتُ ما أُمِرتْ وانتظرتُ حديثه؛ فباشر في الكَلام بصوت خافت يُوتِّر الأعصَاب:

((عَاش "الشّيطان" ابن "سوميا أبو الجن" بين الملائكة الأخيَار يعبُدُ الإله ويطيعهُ.. بعد أسْره فَترة من الزّمن جرَّاء حَرب هوجاء افتعَلتها الملائكة ضِد الجنّ أنصَار الشّيطان.. وبَعد أنْ خَلق الرّب "آدم" وبَعث فيه من رُوحه.. أمَر الملائكة أن يَسجدوا له تَبجيلًا واحترامًا.. أبى "الشيطان" أن يُذِلَّ نَفسه أمَام بَشر قد خُلق من طين.. فَعصي الرّب وطُردَ من بين الملائكة إلى الأرض مَرتع الأخيار والأشرَار.. ليَحمل اسم "لوسيفر" الجنّ الشيطان.. ويُكنَّى بالملِك السّاقط من السّماء.. فبعد هُبوطه من السّماوات السبع إلى قاع الأرض غَيَّرَ الطَّبعْ.. وانقَلب من أمينِ للرّبّ إلى عَدوّ له ولمن هبَّ ودبّ.. جَمعَ جَحافل الجنّ في البحار والوديان.. واجتمع

وشَياطين الإنس على السّحر والعصّيان.. أزمعَ "لوسيفر" على الانتقام لأنه عصي الإله مرّة فخرج من رَحمته.. وبالمقابلِ خَذلَ آدم خَالقه بالأخْطاء والزّلات.. فلَم يَطرده بل غَفر له ولا يَزال.. هل فَهمت لماذا "لوسيفر" مَظلوم الآن!))

كَان يحَاول تَبرير عِبادته للشّيطان بإلباسِه عَباءة المظلوم المذموم... لَقد ورَّطني صراحة وأغلق في وجهي بَاب الكلام.. كِدتُ أصدّق حَديثه لولا وَميض فكرة مرَّ على ذَاكرتي وكأنّه رسالة ربّانيّة.. جَعلني أطرَح عليه سُؤالًا لم يجد له الجَواب الشَّافي؛ حَيث بادرتُ قائلة:

((فَضَّل الرّب "آدم" على "الشّيطان".. لأنَّ هذا الأخير عَصى أمرَه ولم يتُبْ إليهِ.. أمَّا "آدم" فاعتَرف بذَنبه وخَرَّ سَاجدًا يَطلب المغفِرة من خَالقه.. لذَا لا تُحاول إلباس "لوسيفر" ثَوب المظلوم.. ولا تُحاول التَّأثير عليّ بخُدعك السّاذجة مُستغلًا صغر سنّي.. فإني وعَظَمَةُ الرّبِ لدُودة كُتب لا تَترك مَخطوطًا مرَّ على خَاطرها إلا والتهَمت حُروفه عن شَغف وحُبّ)).

تغيّرتْ ملامحُ وجهه من المـلَيحة إلى الغاضبة، وتداخلت انحناءات جبينه لتبرز عينين حمراوين سُرعان ما عَادتا إلى طَبيعتهما

الأولى؛ لينقَلب وحش الـ"مينوتور" إلى "مارتن هنري" من جديد وليرُدَّ عليَّ قائلًا:

((ستَنقلب دُودة الكُتب إلى دودة الكَنيسة في وَقت مَعلوم.. ثِقي فيمَا أقوله ولا تَستعرضي ثَقافتك أمَامي فأنت لا تزالين في وَضعية ضُعف لا قوّة)).

استكَنت مَكاني ولم أنبس ببنتِ شفة؛ خُصوصًا بعد تَجَلِّي مَلامحه الغَاضبة، فضّلتُ مسايرته في الحَديث إلى غاية انصِرافه وهذا ما حَدث بالفعل؛ فقد راح يتفنَّنُ في وصْف شَيطانه بعد أن أظَهرتُ له الخيوط الأولى الدَّالة على انسِجامي، في حين وجّهتُ عينيّ إلى سَقف الغرفة وأخذتُ أنسجُ شكل "لوسيفر" في عَرين خيالي... لحظة انهمَاك "المونيتور" برَسم أحسَن صورة يمكن أن تُجسّدَ له "حامل النُّور"...

((المظلوم "لوسيفر ابن سوميا".. رُغم بنيته الجسمَانيّة النّحيلة وطول قامته الفَارع.. إلَّا أنَّ له من البَهاء ما لا تَتحمله إناثُ الإنس والجان.. شَعره الأسود الطّويل يُحاكي ظَلام اللّيل من مَطلع الرّبيع حتَّى فصل الشّتاء.. عَيناه الحَزينتان تَحملان سوادًا لفظتهُ الأرضُ بعد امتلائها ذنوبًا وخطَايا.. مُنذ أنْ بُسِطَتْ إلى أنْ تهلَكَ أو تَذهب هباءً.. عَيناهُ سَاحرتانِ تُرضيانِ العُشَّاق..

تَستبيحان الممنُوع وتمنحَان اللّذة كالتّرياق.. يَختفي بِرداء أسود يُعَتّمُ الرؤية والإبْصار.. ويحمِي من نُور الرّب كُلَّ شيطان انسيّ عَاق.. يَتواصل مع الكَهنة بالطلاسِم وسِحر الكابالَا.. ليُقَّوي من عزائمهم الضعيفة والمـنُهَارة.. يَمُدّهم بخُطط الغد من قتل واغتصاب للضّحايَا.. ويمنحُ أتباعهُ من الجنّ والإنس بعضًا من العَطايَا.. الشجَاعة والشهرَة.. المالُ والثّروة.. فَذاكَ "لوسيفر" ذو البَأس والقُوّة!))

أغلق بابَ الحديث بكلام شَاعريّ تَستكين له الأنْفس والقُلوب، ثمَّ همَّ بالمـُغادرة كَطائر البوم.. يَختفي صَباحًا طالبًا للرَّاحة ويظهر ليلًا ليصطَاد في السَّاحة.

***

رياحُ الموت الحارّة تَعصفُ بِغضبها على "ريو دي جانيرو" راسِمة صيفًا شَاحبًا لم يَعتد أهلَ المدينة عَليه، كُنتُ مُغلقة عينيّ في الفِراش مُعَانقةً "هون" وفَاتحة خَيالي على الأجوَاء المتقلّبة خَارج جُدران المحل؛ فَهذه مُزنٌ تلبّدت في الأفُق تَنتظر وَميض البَرق لتُفرغَ ما بجوفهَا من أمطَار، وهذه ريَاح قَويّة تُحاول الدّوران لتشكّل قُمعًا قد يَنقلبُ إلى إعصَار، سُكّانٌ محليّون يُواجهون

غَضب الطّبيعة في فَصل لم يَعتد اغتصَاب جَمال هذه المدينة.. يَبدو أنَّ الرّب غَاضبٌ على عِباده في هذه البِلاد!

((من المؤسفِ إيقاظُك على بكرة الصّبح.. في طَقس يُشجّعُ على مُغازلة السّرير والاستسلَام للنوم)).

لقَد كَان "المينوتور" صَاحب ذلك الصّوت المَبحُوح الذي اعتَادَ دقَّ طَبلات أذنيّ كُل يوم. قُمت من فِراشي أتثَاءبُ كسُلحفاة مُعمِّرة تَتَحَضَّرُ للخَوضِ في سُبات الشتَّاء، استغفلني الحقير وسَحب لحافَ الفِراش من على قَدميّ فبرزَ فخذيّ أمَام نَاظريه ليُطلق صَفيرًا مُتواصلًا أيقظ "هون" من نَومها ورَاح يقول:

((لقَد ذكّرني المشهَد بالمقاطع "الغلمانيّة" التي اعتدتُ مُشاهدتها أيَام مُراهقتي على "اليوتيب")).

تَدخّلت "هون" بصَوت خَافت غلبه النّعاس بعدَ أنْ استعادتْ قُدرتَهَا على الكلام مُؤخّرًا:

((لقَد أخبرتنَا السيّدة "ماما" أنَّ العُروض "الغلمانيّة" مَمنوعة على الانترنت العَادي.. واعتماداً على ما تعلمناه هناك، فمُصطلح "الويب المظلم" لم يَدخل إلى قَاموس المعلوماتيّة فَترة

مُراهقتك ولم يحجز مَكانه وَقتَهَا في ثقافة الشُعوب.. فكفاك تلاعبًا بنا)).

((أرى أنّك استعدتِ القدرة على الكَلام يا صَفراء البَشرة.. كَان منَ الأجدَر قصّ لسَانك بَدل قَصّ شَعرك أيتهَا الدّجاجة اليابانيّة.. لستُ مُضطرًّا للكَذب عَليكمَا ولو من بَاب المـُزاح.. لَقد كَانت بعض قنَوات "اليوتيب" تَنشر مَقاطعَ سريّة تُجسِّدُ مشاهدًا للغلمانيّة دون الممَارسة الجنسيّة.. حيث تظهر فتياتٍ قَاصرات يرتدين مَلابس فَاضحة يتفننَّ في إظهَار مَفاتنهن أمام عَدسات الكَاميرا بطَلب من المصَورين.. والغَريب أن الخوارزميّة الآليّة لليوتيب لم تَتفطّن للأمر.. خُصوصًا وأنَّ العَناوين التي حَملتها مَقاطع الفيديو كُتبت بطريقة خاليّة من الشُبهات)).

((ما طبيعة هذه العناوين يا ترى!))

تَساءلت "هون" راسمةً ملامِحَ الذُّهُول؛ ليجيبها "المينوتور" بنصفِ ابتسَامة...

((تَأخذ هذه العَناوين المـُزوَّدة بتواريخ التَّسجيل تَسميّات مـُبرمجة آليًّا في صُلب أي كاميرا رقميّة.. فَنجدها على شَاكلة هذا العُنوان الغَريب:

«webcam video from january 27 2015».. ولِعلمك لا يزال هَذا النّوع من المقاطع مُنتشرًا على اليوتيب حتَّى هذه السّاعة.. رغم ظُهور مجموعات مُكافحة "بيدوفيليا اليوتيب" ويُطلق عليهم "انونيموس الغلمانيّة"))

فتقَ "المينوتور" نَسيج خَيالنا وأعَادنا إلى الواقع المزري الذي ينتظرنا بعدَ أن صفَّقَ بيديه لافتًا انتباهنَا لما سَيقوله.. ترنَّح من مكَانه قليلًا.. ابتلَع ريقه وزَاد.. جَحظ عينيه وأطلقَ على مَسامعنَا جَوهَر الخبر الذي جمَعنا من أجله...

((لقَد دَقَّت سَاعة المجد.. لقَد آن لِقاء عدوّ الرّب.. ألا يُعدُّ تَقلّبَ الجوّ وانتشار المـُزنِ الرّعديّة ما بين السّماء والأرض.. دَليلًا كافيًّا على قُدوم "حامل النور"!))

اقتربَ من "هون" على أقلّ من مَهلِهِ.. مرّرَ أصَابع يده على رَأسها، ثم شدَّ السِلسلة المعدنيّة الموصُولة بعُنقها واسترسل في الكَلام موجّهًا حَديثه لي...

((أتَذكرين بِطاقة الدّعوة التي كَشفتِ سرّها أوّل يوم قَضيته في هَذا المكان!.. تلكَ البطَاقة التي خَبَّأتُها بين دَفتيّ "مخطوطة غيغاكس" المـُقلَّدة؟))

أومَأتُ برأسي حتَّى يتابع الكَلام، فأردفَ قائلًا:

((ها قَد آن وقْت الجَدّ وانتهى مُسلسل التَّرقّب.. سَترافقانني حالًا إلى "كَنيسة الشيطان" المخفيّة.. أين ستُنَصَّبُ "سوزان" من طَرف الكَهنة كـ"راهبة" من رُهبان الفتيّان.. سَتمرُّ عَلينا ليلة طويلة تملؤها الدّماء.. ليلة خُصِّصتْ لتُنعشَ القُلوب وتُثير لذّة الجماع.. بين الذكور والإناث كبارًا وصغارًا على حَدٍّ سَواء)).

تَصلَّبتُ مَكاني كَعود الثِّقاب، استَدرتُ لـ"هون" لأجِدها فَاغرَة فيها من غَير حرَاك.. لقَد كَان الخبر صَاعقًا وغير مُتوقع البتّة، أو بالأحرى لم أكن أنتظِره في وقت كَالحٍ كهذا؛ كَيف لا وقد فَاضَتْ من مُقلتيّ دُموع الحنين اشتياقًا لوالدتي التي ما زلتُ أجهلُ مَصيرها.. كَيف لا وقد طُوِّقتُ صَبيحة اليوم وسُجِنتُ بين ذكريات الماضي التي رَسمت لي صُور أمي حبيبتي، وبَين قراءاتِ المستقبل حول ما ينتظرني اللّيلة في بهو "كَنيسة الشيطان"!

((لمَ تنظرين لي بنِصف عين!.. أتَشعرين بالغيّرة من رَفيقتك في الدّعارة!.. لا عليكِ لا عليكِ.. سَتحضين بدور ذَكَر النّحل أثناء مراسم تنصِيب الراهبات)).

نطقتْ "هون" عفويًّا...

((ذَكَر النحل"!.. ماذا تقصد بكلامك!))

((ما مصير ذُكور النّحل بعد التّزاوج يا صَغيرتي!))

كانت إجابته الأخيرة كافيّة لإخراس "هون" وحَظرهَا عن التّفوه بأي حرف أو كلمة، أمَّا أنا فأطنَبتُ في البكَاء بعد وعيي بالمعنى الحقِيقي لهذه العبارة. أرخيتُ عَضلات رَقبتي وتركتُ رأسي يَهوي بين كتفيّ مُسلّمة أمري للذئب البشري "مارتن هنري".

غَادر "المينوتور" المحل للحَظات ثمَّ كَرَّ مُحمّلًا بكيسين بَلاستيكيين يحويَان بجوفهمَا لباسين أسودين قد صُنعا خصّيصًا لجسَدينا، أشار لنا بِرأسه فقمنا ولبسنَاهُما أمَام نَاظريّه. لقد كَانتا تنورتين قُطنيتين دَافئتين تَرتبطان بجَوربين نِسائيين شَبكيّين، أضفيا علينا لمسَة العُهر والخَلاَعَة. وَجَّهتُ رأسي نَحوَ "هون" وبَادلتها نظراتِ الحزن والأسَى؛ أمَّا مُرافقنا خَادم الشيطان فقد اقتَادنا إلى الخارج لنجِد في انتظارنَا شاحنَة سوداء عَريضَة ضَيّقت أنفَاسنا بسُحُبٍ ظَلَمَاء استَفحَلَتْ في الهَوَاء، لم يَكن منَّا سِوى الانصياع للأوامِر والركُوب في الخلفيّة دُون أيّ كلام لنَمضِي بعدها إلى أحَد ديار الملكِ السّاقط من السّماء.. "لوسيفر" الزعِيم الروحِي لـ"كنيسة الشيطان".

كان الطّريقُ مُلتَويًا.. مُمِلًّا وكثير المنعَرجَات؛ ما زاد مِن رَغبتي في التقيّؤ وإرجَاع ما تَناولته ليلَة أمس. الشَّاحنة كَبيرة جدًّا والسّائق لم يقوَ حتَّى على تَرويضها لَحظَة عبوره الأزقّة الضيّقة؛ مَا جَعلنا نرتطمُ بحوافِها الحديديّة ونتدَحرج على أرضيتهَا المـُصفَّحة يمينًا وشمالًا ككُرَتَي "غولف".. حتَّى قِطعتي الحلوى اللّتين كُنَّا بِصدد تناولهمَا كإفطارٍ سَريعٍ اتسَخَتَا بشَوائب وأدناسِ الشَاحنة؛ لنَمضي طَريقنا حزينتين مُرهقتَين.. وجَائعتين. اختَرنا الزاويّة القريبة من كُرسيّ السّائق واحتضَنا بعضنَا البَعض في مُحاولة يَائسة للتّمَاسك حتَّى وصُولنا إلى مَقبرتنا.. أينَ سيُقضى علينَا أو يُقضَى علينا.. فالكفّة تُرجّحَ تفوّقَ الموت على الحياة في كلتَا الحالتَين.

رُغمَ أنَّ خَلفيّة الشاحِنة مُقفَلة وتحجبُ مجال الرؤيّة، إلا أننَّا استَرَقنَا السمْع كعفَاريت السّماء بعد أن تَنصّتنَا على "المينوتور" والسّائق "القَزم" الذي مَدَّنَا فُضوله المـُسرفُ بأسرَار لم نكن لنَعِي مَوطِنَهَا؛ فقَد أقَرَّ لنَا الحوَارُ الطويل الذي جَمعهمَا أنَّ "كنيسة الشيطان" بالبرازيل لم تأخُذ طَابع الرسميّة بَعد في مُمارسة نشَاطاتها، ويَعُودُ هذَا لرَفضِهَا الخضُوع للبنُود الأمنيّة التي تَمنع استغلاَل البَشر كقَرابين للتَّقرب من "لوسيفر"، فَضلًا على إعلاَن كَنيسة الشيطان "الأم" التي يترأسها حاليًّا الكَاهن الأعلَى "بيتر هـجيلمور" تَبرّؤها من كُل تَنظيم يخالفُ ما نصّت عِليه الوصايا

التي وَضعها المؤسّسُ الفعلي لكَنيسة الشيطَان "أنتون ليفي". سمعتُ أيضًا من حديثهمَا أنَّ "كنيسة الشيطان" البرازيلية تُخفي طَبيعة نشَاطها الحقِيقي وهذا راجع لمخَالفتها مَا جَاء في "الإنجيل الأسود" من بنُودٍ؛ فهي تستغلهُ فقط كَاسم رائجٍ بين عبدة الشّيطان في العَالم لتجمَع عَددا أكبَرَ من المـُنخَرطِين.

أبَانَ لي حَديثُهمَا بأنَّ وَصايا "الإنجيل الأسود" التي دَوّنَهَا "أنتون ليفي"لا تَدعو إلى الاعتدَاء على الأطفَال مثل ما جَاء في الدفتَر المـُزوَّر الذي قَرأتهُ.. كَما أنَّها لا تَعترف بوجُود الشّيطَان.. إنما اتخذَت اسمه كَرمز للتّمَرد وتمجِيدًا للذّات.. فَهم يُؤمنون بتأليه الذَّات من أجل بُلوغ مَراتب السُّمُو من الثّقة بالنفس.. على عَكس التّنظيم الذي تُجسّده "كنيسة الشّيطان" بالبرازيل الذي يَرتَكِزُ أساسًا على تَعذيب الأطفَال وقَتلهم والتَّنكيل بهم.. كَما أنَّ أفرادها يؤمنون بوجُود الرّب والشيطان؛ ولكنَّهم يَعبدون "لوسيفر" شَماتة في خَالقهم الفِعليّ. أمَّا بقيّة مَعابد الشيطان غير المـُتشدّدة والمـُعتمدة من طَرف "أنتون ليفي".. فيُمارسُ القَائمون عليها طُقوسهم مُحترمين مَا تمليه قوانِين البِلاد؛ مُعتمدين في ذلك على الأضَاحي الحيوانيّة وبعض الممَارسات الجنسيّة. حتَّى أفرَادها لا يَظهرون بأشكَال قَبِيحَة وأجسَادٍ مَوشومة ومشوّهة كمَا الحال مع كنائس الشيطان المـُتمرّدة، بلْ

يَرتدون بدلات كَلاسيكيّة ويتطيّبون بأرقَى أنوَاع العُطور الفَاخرة؛فأغلبهم يحمِلون شَهادات جَامعيّة ويتقلَّدون منَاصب حَسّاسة في المجتمَع على غرار السِيناتور الأمريكي "جون كيري"، والأنثروبولوجي الشَهير "مايكل هارنز"، والأديب البُولندي "ستانيسلا بريبوشسكي"...

تشتّتتْ الأفكَار في رأسي وحَرمت عنّي الكَلام لأجِد نَفسي سَابحة في بحر من التّفكير والخيَال مُحاولة إقنَاع نَفسي بأنَّ الأمُور لن تَعدو كَونها مُجَّرد تَنصيب للرَّاهبات؛ ولكنَّ صوتًا دفينًا بداخِلي يُخبرني بأنَّ مُمارسة كَنيسة الشَيطان مَهامها في السرّ والكِتمان بعيدًا عن الرسميّة يُنذرُ بسَفكٍ للدّماء وتَجاوزات خطيرة لن تجلُبَ سوى مَعدَنَ الهلاك.

تعَاظَمَ حِواري مع نفسي بَعد بلوغ وَابل التَّساؤلات ذُروته. لحظَتها..خَنَعَ مُحرّك الشاحنة..!فُتِحَ بابُهَا.. وسُحبنَا خارجًا على عَجل لنجدَ أنفسنا مُحتجزتين في جوف مُستودعٍ كَبير شَاسع المساحة وخَبيث الرائحة.. مُستودع عُزفَتْ ألحانُه على طَنطنة ذباب أخضَر كبير تحدَّى الظَّلَامَ وأزمعَ على التَّغذي بالدّماء وبقايا الفَضلات التي لم تدعَ موضعَ قدم على الأرضِ إلّا وملأته. أمرَنا "المينوتور" بلَحاقِهِ دون إثارة الجلبَة؛ فاحتمينَا بظهره وسرنَا خَلفه على مَسار مستقيم يَكادُ لا ينتهي.

قَبلَ بلوغنَا مَقصَدَنَا نَبَّهتني "هون" لضَوضاءَ مُلفِتَة تَغيبُ وتَعُود، حَاولتُ تَقَفِّي أثرهَا فأصَابني الجمُود، بَعدَ أن استَوقَفَنَا "المينوتور" وأردَفَ يَقُول:

((وصَلتُ بكُما مُتأخرتين.. ستَتلقّيَان اللّوم بدلًا عنّي يا بَائعات الهَوى)).

أطلقَ ضحكاتِهِ إلى عنان السّماء مُبرزًا ساعديهِ لفَتح بَوَّابة خشبيّة كبيرة احتمتْ جَوانبها بعَوازل للصّوت، ومَا أن دفعَ دَفتيهَا حتَّى اخترقَت مُوسيقى "الروك" المعدنيّة أُذنيّ وهزّت أطرَافي ودقَّت طَبلتيَّ؛ فارتَعبت فَرائصي وانتصَبّ شَعرُ رأسي. اجتَاحني الجَزَعُ فأطلَقتُ العنان لقَدميّ في مُحاولة لتَخطّي الدّخول، ولكن "المينوتور" شَدّني من ذِراعي بِقبضته القَويّة وأعَادني إلى جِواره. سَحبَ السّلسلة المعدَنيّة من مَلابس "هون" ثم أرفَقها بحلقَة جِلديّة أخرى، ما لَبِثَ أن أخَذ يُثبّتها على رَقبتي بِعنف وقُوّة، ومَا أن فَرغ منها حتَّى اعتدلَ في وقفَته وأردفَ يقول:

((منَ العَيب أن تبدو رَاهبة جَميلة مثلكِ كَجروٍ صَغير يَسعى للإفلات مِن قَبضة سيّده.. ولكِن تَفكيرك في الهرُوب قَد حتَّم عليّ اتّخاذ إجْراء وقائي كَهذا...))

أخذَ نفسًا عميقًا وصرخ فيَّ مُنهيًا حَديثه:

((يا كَلْبَة القُبور))

أصبَح الذُّلُّ عُنواني مُنذ أن وَقعتُ ضَحِيّة لهذا الأرعَن، لدَرجة لم أقوَ فيها حتَّى على البُكاء كالسَّابق؛ فبِذرة الكَرامة التي زَرعتهَا أمي في بَواطن رُوحي قَد سُلبتْ منّي إلى الأبد، والآن مَا عليّ سِوى الاعتياد على الوضْع فقد صَدق حِين نعتني بصفَة الكِلاب...

أرغَمنا على التَّنقّل أمَامه عَلى أربعة أقدَام.. تمامًا كمَا تَفعل البَهائم والأنعَام، عَزفنَا في البِداية ولكنَّنا عُدنَا ورَضخنا تَحتَ وطأَة الرَّكلِ والإذلال، وعلى عَكس ما ظَننت لم يكن جُمهور الحاضرين يُعيرنا أي انتباه، عَدا نَظرات خاطفةٍ حَاصَرتنَا لحظَة مُرورنا في حَيّز نَظرهم؛ فالكثِير من الفَتيات هنَا من مُختلف الأعمَار يتم اتخاذُهن كَحيوانات أليفَة، وكأنَّ الأمرَ برُمّته مَسرحيّة قَد أتقَن جَميع من فيها أدْوارهم وبرعُوا فيهَا.

نَزل بنا "المينوتور" عَلى أدراج حَجريّة كبيرة؛ كُنَّا نتخطَّاها بحذر واحتراز حتَّى لا يُجرَحَ مُحيط رُكبتينَا رُغم أن مَسارنا قد فُرشَ بشَريط من السّجّاد الأحمَر رَفيع النوعيّة، كَان المكَان شَاسع المسَاحة والجمِيع فيه يَرتدون مَلابس سَوداء ويَضعون أشرطَة أرجوانيّة على رُؤوسهم وسَواعدهم تَحمل ألوَانَ الدّماء، كَانوا يترَاقصون تحت وطأَة هِستيريا من الهَاهَاة والإهزاق، في حِين

حَضت مُوسيقى الروك المعدنيّة غُددهم الكظريّة على إفراز الأدرنالين.. أمَا أنا فلا أنكرُ استجَابتِي مع الحفل رُغم عُزوفي عنهُ بادئ الأمر، كَيف لا وقَد طرقَ الجنون أبوَاب عَقلي حين شُغّلت أغنيةُ:«Hammerfall, Destined For Glory»؛ لحظَتها أخذتُ أطرقُ الأرضَ بقدميّ مُوَازاة مع ضربَات الطبلِ، وتَناغمًا مع ألحَان القِيثارة الكَهربائيّة، ومَا إن عَاتبَت الأغنيّة النِّهَاية حتَّى زال عنّي الشُعور البَهيج، وعُوِّضَ بإحساسُ الغُمَّة والقَرف والضِّيق؛ وكَأنّني قد عِشتُ للتّو حُلمًا قصيرًا في حضرةِ اليَقظة!

((استقيمَا!.. استقيمَا وقومَا.. لقد حَان وقتُ التّغيير)).

أوقفنَا "المينوتور" على حِين غرّة طالبًا منَّا مُقابلة إحدى النّساء داخِل خيمة سوداء مُنتصبة تَحت الأدراج الحَجريّة. ولجنا إلى الدَّاخل وقَد حُشرنَا بين أكوَام من الأزيَاء التّنكّريّة المعرُوضة دَاخل هَذا المكَان الخَانِق. لاحظت "هون" مِرآة مُنتصبةً أمَامها فقَابلتها وأخذت تَتفحص شَكلها المـُزري بَعد أن قُطعت أذنها وحُلق شَعرها. كَانت تذرفُ دُموعها في صَمت كي لا أدركَ أمْرها؛ ولكنّي لم أتركهَا على هذا الحَال. تَقدّمتُ نحوهَا وأخذتُ أداعِب الشُّعيرات الصّغيرة الناميّة على فروة رأسهَا ودَعوتها للتَّفاؤل، أخبرتُها بأنَّ شعرها سَيعود إلى سَابق عَهده بعد مدّة ليست

بطويلة؛ وحينهَا سَتستطيع إخفَاء العَيب الذي لحقهَا في أذنها اليمنى بتَسريحة شَعر جَانبيّة.

((لدينَا رفقة هُنا...))

قَطع عنَّا خلوتنا صَوت أنثويّ مُحَرِّك، استدرتُ خَلفي مُستقصيّة مَصدره لأجدَها فتاة جميلة مُمتلئة الجسد بَارزة المؤخرَة والصّدر، تَرتدي بذلة سَوداء نَاعمة أبرزَتْ تَقاسيم جَسدها، تَضعُ أحمرَ شِفاه قاتم زَاد وجهَها النَّاعم نَظارة وبَهاء. مرّرتْ أصابع يَدها بين خصلات شَعرهَا الأسود واسترسلتْ تَقول:

((لقَد حَدّثني "مارتن هنري" عَنكما.. عليَّ تَجميلكما وإعطاؤكُما الحلَّة المنَاسبة لأدواركُما في حَفل تَنصيب الرَّاهبات المـُزمع افتتَاحه بَعد هَذا الحَفل الرَّاقص)).

لم يَكن باليد حِيلة سِوى تَسليم جَسدينا لهذه السَّمينة. وقَع اختيارهَا الأوّل على "هُون".. استخرجتْ عُلبة مُتوسّطة الحَجم من الكُحل وراحتْ تَرسُمُ جَفنيهَا مُستعينة بقَلمٍ أسوَد لتَحديد انحنَاءات عَينيها، بعَدها مُباشرة خَلعَتْ عَنها تلك الملابِس السَّوداء وغيّرتها بقطعتَين صَغيرتين من القُماش ستَرتا جُزءًا من صَدرها وأسفَل بَطنها.. شدّت السّلسلة المعدنيّة على عُنقها ونَاولتها لمالكنَا المينوتور "مارتن هنري".

***

*"تَعمَّدتُ إنهاء الجلسة العلاجيّة مُبكرًا، بعد أن أصبتُ بإسهالٍ شديدٍ جعل زياراتِي المُتكرّرة إلى المرحاضِ تُؤثّرُ على حواري مع الصّغيرة".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل السّابع: «Nude Altar» رمز الشّهوة!

## الجلسة العلاجيّة السادسة: الجمعة ٢٣ ديسمبر ٢٠١٦

اعتمدَت فتاة الخيمة في تَجميلي على النَّهج المستَخدم مع رَفيقتي "هون"؛ غَير أنّها زيّنت سَاعدي بِسوار جِلديّ أسود اللّون نُقشت عَليه شِعارات تُمجّدُ شيطانهم "لوسيفر"، صفّفت شَعري جيّدًا ومَوّجته بمجفِّف الشّعر، ثمَّ أزالت عنّي تلكَ الحلقة الجلديّة المعلقة برقبتِي لأتحرَّر أخيرًا من لعب دَور "بنتِ الكلب". رفعَت المرآة أمامَ وَجهي للحظَات لأرى شَكلي الجديد، ثمَّ سَاعدتني على الوُقوف لتقِيس محيط خَصري، بَعدها انتقلتْ إلى أكوَام القشِّ المتراكمَة على يمِينها واختَارت لي من هنَاك عَباءة سَوداء مُطرّزة بخيوط ذَهبية اللّون انتَهَتْ بقلنسُوة طَويلة تحجبُ عِند ارتدَائها مَلامح الوَجه؛ ومَا إن أنهَت عَملها حتَّى خَاطبتني قَائلة:

((أتعلمِين لمَ أنت مَحظوظة!))

حرّكتُ رَأسي يمينا وشمالا كإشَارة على افتقَاري الإجابة، فتُباشر حَديثها:

((تشتَركُ كَنيستنا المخفيّة المـُتمرّدة مع كَنيسة الشيطان الأصليّة بـ"سان فرانسيسكو" في الرُتب والدَّرجات.. فأوّل درجة يُمثلها الشّيطانيّون.. أمَّا ثاني درجة فتخصُّ السّحرة.. وثالث درجة تُميِّزُ الكَهنة.. وتَعود رابع درجة إلى الكَهنة العلويين.. وأخيرًا نصِل إلى الدّرجة العظمى.. درجة "الماجوس" بالنسبة للرجال و"الماجا" بالنسبة للنّساء...))

أطلقتْ ضحكة قصيرة، ثمَّ واصلَت حدِيثَهَا:

((ولكننَا تَقدّمنا على الكَنيسة الأم بإضَافة رُتبة "الرَّاهبات".. وبدلًا من تصنِيفك في خَانة الشَّيطانيّين تم اختيَارك كرَاهبة من رَاهبات "لوسيفر" المـُخلصَات.. ألا يَبدو هَذا مُثيرًا!))

أنهتْ الحديث ماسِكة بسَاعدي، ثمَّ أخذتْ تَسحبني خَارجًا وأنَا أمُدُّ ساقيّ بتَيَقُّظٍ كي لا تَعلقَا بأطرَافِ العَباءة.

أمَرنا "المينوتور" بمتابعة السّير في هَذا المكان الفَسيح.. وما أن أطلَقتُ خُطاي حتَّى استوقَفني قائلًا:

((لا..! لا..! لا..! لا تَسير الأمور بهذا الشَكل يا عَزيزتي.. عَليك جرُّ هذا الحيَوان الأليفِ معَك.. فالعرْض لن يَكون شيّقًا إن لم نَأخذه مَعنا.. فهو رَمز اللّذة والشهوات في حَفلنا المجيد)).

استدرت خُلفي فَلم أرَ الحَيوان الأليف، أردتُ الاستفسَار عن مَوقِعِه، فأجابِني بركله "هون" أسفَل ظَهرها حتَّى أوقعهَا أرضًا، ناولني السّلسلة المعدنيّة المُتّصلة برقَبتها وأردَف يَقول:

((لا يُوجد حَيوان أليف أجمَل من هذه الدَّجاجة اليابانيّة.. شُدّي طرف السّلسلة واسحبيهَا خَلفك.. وأيّ عُزوف عن الأمر سَتدفَع ثمنه رَفيقتك محلُوقة الرَّأس)).

عَلِمتُ أنَّ المُقَاومة لَن تُجدِي نفعًا، دَنوتُ من أذُن "هون" الوَحيدة.. همستُ فيها مُلتمسة الصّفح، ثم فَعلتُ ما أُمِرتُ.. كانت كلّ خُطوة أضَعها إلى الأمام تَسبقني إليها عَلى أربع أقدَام. كَانت عينا "المينوتور" مُثبّتتان على مُؤخرتها أثناء سَيرهَا بتلكَ الملابس الفَاضحة، في حِين كَانت عيناي مُصَوَّبتَانِ إلى بَوابة خشبيّة كَبيرة تحملُ دفتاهَا صَليبين مَعدنيين مَقلوبين... نحنُ نشقُ طريقنَا نحوهَا.. نَعم.. نحنُ نقتربُ منهَا.. إنهَا... إنهَا...

ليقاطعَ "المينوتور" مناجاتِي لنفسي قائلًا:

((وأخيرًا... قَاعة الهيكَل!))

أضحَى شَهيقِي يتمادَى في سَحبِ الهَواء مع اقترَابنَا من البَّوابة؛ والتي كَانت تُحرسُ من طرف رَجُل طويلٍ يَعتَمِرُ عَباءة سَوداء

مُطرّزة بلون الدّماء، يَضع على وجهه قناعًا قبيحًا لشَيطانٍ كَثيف الشّعر بارز الأنياب، بمجرَّد رؤيته لمرافقنَا "المينوتور" شمَّرَ عن سَاعده الأيمن وسَحب أحدَ دَفتي البوّابة مزيحًا السّتار عن قَاعة سَوداء شاسعة المسَاحة؛ زُيّنت حِيطانها بأقمشة أرجوانية طُرّزت برسُومات مختلفة الدَّلالات، كَدوائر متعدّدة الأحجَام حَملت في جَوفها نجومًا خماسيّة مَقلوبة، وصُلبانًا وُضعَتْ رأسًا على عَقب كَنوع من التَّهكّم على المسيحيّة وبعضِ الـمُقدَّسات.

جُهّزتْ القاعة بمَقاعد مُلِأت عَن آخرها بوُفُودٍ يمثّلون رتب هَذه الطّائفة. دلفنَا إلى الدَّاخل وأخذنا مَواقعنا قُبيل إحياء العَرض بلحَظات؛ في حين تَناول عنّي "المينوتور" السّلسلة المعدنيّة وأخذَ صَديقتي "هون" إلى مَكان غَريب يَقع على يَمين القاعة. حَاولتُ تتبّعهمَا مراقبة ولكنّي لم أقوَ على حِفظِهِمَا في مجَال نَظري، انتَصَبتُ مُعَاينةً المـوقِعَ الذي أُخِذتْ إليه رفيقتي لأفاجَأ بيدٍ مُترهلة الجلد تمتَد إليّ وتُجلسني عُنوة، استدرتُ خلفِي لأجد شَخصًا قويّ البنيّة لم يَظهر من وجهه سِوى لحيتهُ السّوداء الـمُجَعَّدة. ابتسمَ لي وأردفَ قَائلًا:

((لا رأس يُرفع هُنَا إلّا فَصلناه عَن الجسَد.. الزمي مَقعدك واثبتي فحَيوانك الأليف قَد جُرَّ إلى مَذبح الشيطان)).

كَانت لحظَة انقبضَت فيها عَضلة قلبي وتَقلّصتْ على أثرهَا أمعَائي؛ لأشعرَ بشجَنٍ ضاربٍ حَالك السّواد اجتَاح كَتفيّ نزولًا إلى أسفَل ظَهري.. وُصولًا إلى باطنِ قَدميّ؛ أحسَستُ بغربة لم أستَشعرها حتَّى في كَوابيسي.

لحظَتها!.. أغمضتُ عينيّ مُتَسائلة في داخلي... هل ستُقدّمُ "هون" كقُربان للملكِ السّاقطِ من السّماء؟

كنتُ على شَفا الغَرق في دوّامة من الكَوابيس والأحلاَم المسمُومة بَعد أن عَزفت عن رَفع جفنيّ والإبصار؛ ولكِنّ صَوت "المينوتور" العَميق قد أفشل خطتي في النَّوم هروبًا من الوَاقع بقوله:

((كَاهننَا الأعلى العَظيم.. ألتمسُ صفحكَ وصفح "حامل النور".. "لوسيفر المظلوم")).

فَتحتُ عينيّ لأفاجأ بالزَّمن قد تَوقف؛ فذلك الرّجُل الغَريب لا يزال مُنتصبًا خلفي ويأبى الذَّهاب، في حين يَستعطفه "المينوتور" ويلتمسُ عذره راجيًّا منه صُفح "لوسيفر" الشيطان.. استَدار له هذا الغَريب وقَبل اعتذَاره ثم انصَرف إلى مُقدمة القَاعة والجمَاهير تَتزاحم وتَرشِقهُ بعيُونهم؛ أمَّا "المونيتور" فهمَس في أذني قَائلًا:

((الرَّاهبات يلزمنَ الصَّمت ويتلُون صَلوات الشّيطان.. أمَّا أنتِ فَقد أبديت عَاطفة تجاه حَيوانك الأليف.. وهَذا ما لم يُعجب كَاهننا الأعلى.. السيّد "جِيفري قَرْنُ الخطيئة"))

أخذ العرقُ ينزفُ من جلدي بَعد أن عَلمت بهويّة الرَّجل الذي كَان يقف خَلفي، تَناولتُ إناءً عظميًا كَان مَوضوعًا بين سَاقيّ، ثم شَربتُ من مائه النّمِير حتَّى ارتويت.. رشَشت بعضًا منه على وَجهي، واستكنتُ في مَكاني مُنتظرة بداية العَرض الدّموي.

وَقف الكَاهن الأعلَى "قَرن الخَطيئة" على مِنصّة عتيقة تآكل خَشبُهَا.. فتعَالت الأعنَاق وشَخصَت الأبصَار نَحوهَا، رَفعَ قَبضتهُ الشمال إلى الأعلَى صَانعًا بأصابعه قرنيّ الشيطان، ثمَّ أنزلها ببطء أسفَل بَطنه حتَّى تَوارت عن الأنظار، ليَدخلَ القَاعة شَابان أسودانِ تَظهر عَلى ملامحهمَا غَوائلُ الدّنيا وغضَب القيَامة، كَانَا يحمِلان سَيفًا طويلًا قد طُمست زخارفهُ من فِعل الزّمن، وضَعاه على مَكتبٍ خشبيّ كَبير.. تزيّنَ بشمعتين عَريضتين عَلى زاويتيه، وجُمجمة بَشريّة استَقرّتْ بينهمَا.. ثم انصرفَا في هُدوء كنَسمة الصَّباح.

رفعَ "قرن الخطيئة" يَده اليُمنى هذه المرة، وأعَاد ما فَعله قبل لحظَات؛ فدَخلت القَاعة شَابة شَقراء فَاتنة الجَسد، تَراءت سِهامُ

شعرها الأمْلس تتراقصُ على انحنَاءات خصْرهَا كحقلٍ من سنَابل ذهبيّة لا تُحصِيهَا أصَابعُ اليد، حسناء سَاحرة أرخَتْ عضَلات ساقيهَا بنعومَة؛ فأصَابت نفُوس الذُّكور شَهوة وطَأطأتْ رُؤوسَ الإناث إذلالًا. كَبحتْ سيرهَا للحظاتٍ أمَام الكاهن الأعلى، ثُمَّ حيّتنا تحيّة "لوسيفر" وشقّتْ طريقها إلى مِنصّة كبيرة تعلُو الكُرسيّ الأعْظَم. استلقَتْ على لحَافها الفَاخر وألقَت بشعرها الذهبي على كتفها الشمَال، ثمَّ حَجبت نهدها الأيمن بكفّ يدهَا واستندتْ بمرفقهَا للثبات، لَفّتْ ساقيها المُـمتلئتيْن على بعضِهما ليظهرَا في صورة حَيتيّن تُمارسَان مُهمة البقاء، ثم أزاحت من ورَائهَا ستارًا أُرجوانيًّا ليظْهرَ خلفه رسمٌ أبيض كبير لرأس تيسٍ يستقرُّ داخل دائرة الخُبث والدّمار.. دائرَة "لوسيفر" ابن "سوميا" الشّيطان... لقَد كانتْ على دراية ووعي بكل خطوة تفعلهَا؛ مُراعيّة في ذلك توقيتَ حدوثهَا ومكانَ احتضانهَا، لتستقرَّ أخيرًا على وضعيّة حميمَة، اتخذتْ هيئة تمثالٍ إغريقيّ دقيق النّحت وبديع الجمال... لمْ تكنْ هذه الملعونة سوى تجسيدًا لشهواتِ شياطين الإنس وجحافل الجان... كيف لا وهي بصمةٌ للمعبد.. وقربانٌ للشّيطان.. إنها الـ «Nude Altar[1]»

[1] إمرأة عارية الجسد، لحضورهَا أثر قويّ في إحياء المُتعة الجنسيّة أثناء الطقوس الشيطانيّة.

في هذه الأثنَاء تَقدّم "قرن الخطيئة" من ذَلك المكتَب وتَناول السّيف بِيديه الاثنتين سَاحبًا رُوحه من غِمده العَتيق.. رَفعه إلى الأعلى ثمَّ وجَّهه نُصبَ أعيننَا في كل الاتجَاهات، أعَاده إلى مَكانه وخَاطبنَا جميعًا مُستخدمًا "المايكروفون"...

((أفتتحُ وإياكم في هذه اللّيلة المباركة طُقوس التَّعميد والتَّنصيب.. فالمباشرة في هَذه المهمة ليسَ بالأمر الهيّن.. كَون إرضَاء الشيطان واستحضَار كَيانه يُلزمنَا التضحيّة وسَفك الدّماء.. وكي نَنشر الأسوَد ونُبِيدَ الأبيضَ.. كَان علينَا إحيّاء تَرانيم الشيطان واختيَار قرابينَ تُشعِّ قلوبهم بطَاقة الحيَاة.. ولن يَكون هناك أفضَل من نَسل آدم وحوّاء.. فَلنعدم الجنّة ولنُشعل النار.. ولنُرعب الملائكة والإنسَ الأخيَار.. انزعوا مَا فوق الخصر من ثِياب.. وامرحُوا وارقصُوا ولنتلذّذ بالعذاب))

أنهى خِطابه مُزيحًا القلنسوة من عَلى رأسه فبَانَ أمامنَا عفريت يُسقِطُ الأجنّة من الأرحَام قَبل أوانِ المَخاض!.. كَان وَجهُه مخطوطًا بدوائر خَضراء من الوشْم تَحمل رموزًا شيطانيّة، وفُتحتا أذنيه الـمُتّسعتان قَد تداخلتْ إليهمَا حَلقتان كَبيرتان مُجوّفتان يَمُرّ عبرهما الإبهَام، أمَّا ثُقبا أنفِه فثُبّتتْ بَينهمَا حَلقة مَعدنيّة

مُتوسطةُ الحجم رَسمت على مَلامحه غَضب "الأُرْخُص[1]". صوّبتُ نَظري إلى جَبينه فتراءى لي قَرنٌ عظميّ مُدبّبٌ يَكاد يفتَح الجلدَ ويُمزّقُ اللَّحم؛ أمَّا عيناه فحملتَا عَدستيّن رماديتيّن زادتَا شَكله قُبحًا ونفورًا.

انتصَب الحضُور على أقدَامهم ورفَعوا أيديهم لتحيّة هذا الشيخِ القَبيح، ثم بادرَ بعْضهم بخَلع مَلابسهم العُلويّة تَيمُّنًا بفَحْوى الطقُوس؛ فبرزت صُدُور الرّجالِ وتدَلّتْ نُهُودُ النِّساء، أمَّا أنا فَلَجِمتُ ثَغري واستكنتُ في مَوضعي كَجذع دوحة السِّنديان، لاحَظ "المينوتور" تَوتّري وجَهلي بفحوى الخطَاب؛ فنوّر بَصيرتي قائلًا:

((لقدْ بلغتُ رُتبة "ساحر" مُنذ سَنوات.. وأنتِ سَتشغلين منصبَ "راهبة" بعد سَاعات.. كِلانَا غيرُ معنيّ بخلع اللّباس.. فالأقل دَرجة فَقط من يشغَلون هذه الأدوَار من بين جمُوع الأشرار.. "الشيطانيّون" من أقصدهُم بكَلامي يا فاتنة.. جُنود الإغراء والشّهوة واللّيالي الماجِنة)).

[1] نوع ضخم وقويّ من الثيران، انقرضَ في القرن السّابع عشر.

***

كَرَّ الحُضور على مَقاعدِهم نصف عُرَاة؛ فَخيّم الصَّمت من جَديد على قَاعة الهَيكل، استغَلَّ الكَاهن الأعلَى "جيفري قرن الخطيئة" الموقِف ليلقِي على مَسامعنَا أمرًا مهمًا.. حَيث قَال:

((بَسط اللّيل فِراشه.. ونَشر "لوسيفر" جنوده.. ولم يبقَ هنا سوى استقبال زعيمتنا ووليّة أمرنَا.. "الماجا" "زونا"))

قَعقعَ سكُونُ القَاعة صِيَاحًا وهتافًا بقُدوم "الماجا"؛ فانتَفضَ الشّيطان وبَسَط جَناحيه، وانطلَق حَائمًا بين الصُّفوف ملامسًا الأجساد ومُداعبًا النُّهود، ومَا إن هَفتَ الضَّجيج واستكَان الحمَاس ومرَّت القشعَريرةُ على كُل كَيان.. سَفَرَ لنَا ظلٌّ طويلٌ مَدَّدتُه نيرَان الشّمُوع وأنوَارُ اللَّهب؛ زَحَفَ إلى جدَار الـمَذبَح هُنيهةً ثُمَّ خَارَ وذَهبْ. وبَعدَ أن وقعَ فتيلُ الشَمْع بينَ الإبهامِ والسّبابة انطفأ طِفلُ النَّار واحتَدَم الظَّلام وخَيَّمَ الصَّمتُ وانقلَبَ الحُضورُ إلى أصنَام؛ فلَم يبقَ للسّكُون مَوضع سوَى طَرقَات نَعل أُنثَى واثِقة الخُطوات.

حَركة غَريبةٌ انتشَرَ صَداهَا بَينَ الظَّلام، جَعلَت كُرات الأعين تَتَراَقصُ هُنَا وهُناك وعلى الدَّوام.. فجأة! أُجِّجَت ألسنة اللَّهَبُ في أتونٍ محاطٍ بحَلَقة حَجَريّة أنَارت القَاعة كَشمسٍ صَغيرة مَركَزيّة؛

فبَرزَت أمَامهَا أنثَى شيطانٍ بَشريّة.. عَجوُزٌ سَمراء بَدينة تَرتدي سِروالًا أسود لامعًا، وعَباءة قُطنيّة ظلمَاء بلَون اللَّيلِ الحَالك.. وجهُها القَبيحُ قد زاده رُعبًا كُحلُ عَينيهَا المـُتمَادية في استِخدامه؛ والذي حوّل مَا بَين أنفهَا وجَبينها مُحيطًا مُكفهرًا من السَّواد، أبَانهَا كقرد "اللّيمور" حَديث الميلاد!

ألقَتْ التَّحيّة على "جيفري قرن الخطيئة"، تَناولت منه "المايكروفون" واستَرسلت تقول:

((اكتملَ القمرُ واستكانَ الشّجر.. وفرَّت حيوَانات اللَّيل إلى كُلِ جُحر.. فليتقدم سَاحر الهيكَل السيّد "مارتن هنري".. وليعلنْ افتتَاح طَقس المـَوتِ والعِبادة.. طَقس استحضَار "لوسيفر" يا سادة))

اهتزَّ قلبي بين أضلُعي وراحَ يضخُّ دِماء الخوف والتّرجي بَعد أن نادتْ "زونا" على "المينوتور" باسمه؛ فَقد خفتُ أن يَسحبني مَعه إلى تلك المنصّة لأقابل وُجوهًا قَبيحة لا قِبل لي حتَّى بالنّظر إليهَا.. ولكنَّه تَجاهلني وشقَّ طَريقهُ إلى "الماجا" وَحيدًا وسعيدًا رافعًا أنفَه بينَ جُمهور الحَاضرين؛ وكَأنه يَدعوهم لمراقَبته وهو يَفتتح طَقس العبادة الغَامض الذي لن يَبدأ إلاَّ بتَدخّله.. اعتبَار

كَونه السَّاحر المتمرّس الوَحيد من الدرجَة الثانية القَادر على استحضَار كَيان الشيطان.

قبَّلَ الأرضَ بين يدي "زونا" بمجرَّد وصُوله إليهَا، خَلع معطَفه الوَبيل ثُمَّ لفَّهُ وألقَاه جانبًا، تَناول من المكتبِ عَمودًا أبيض مَجهول المكَوّنات وانتقلَ يحملهُ إلى الزَّاوية المجاورَة لمَـذبَحِ الهَيكل، احتَضَنَ الأرضيّة بِصَدره مُثَبّتًا العمود الأبيض على فِرجار خَشبي طَويل السَّاقين، غَرزَ مِسمَارَهُ على طَبقة من الاسمنت ثم رَسم على السَّطحِ دَائرة بَيضَاء كَبيرة القُطر، حُوّطَ مُحيطها بأربعَة دوائر أقل حَجمًا وأرفَعُ خطًّا، وقَبل أن يُنهي مَا بدَأ أجهزَ على تلك الحَلقَات مجدّدًا راسمًا في جوفهم نجومًا خماسيّة تُمجّدُ شيَاطين الإنْسِ والجَان.

فركَ يَديه في بَعضهمَا مُتخلِّصًا من شَوائبِ الغُبَار، ثم استَخدم كفَّ قَميصه لامتصَاص بَعض العَرق المـُتجمّع على جَبينه الحَار. استخرجَ من الجيبِ الداخليّ لمعطَفه المـُلقى عددًا من الشُموع البيضَاء العَريضة، ثم ثبّتهَا على الزَّوايا الخمس للنجمَة المرسُومة دَاخل حيّز الدَّائرة الأم الكَبيرة. تَنَاول القدّاحة من جَيب سِرواله، فَرقَعهَا ودَأب عَلى إشعَال تلكَ الشُموع القَصيرة؛ ومَا إن فَرغ من عَمله حتَّى رفعَ يده فوقَ رأسِه شَاخِصَ العَينين ليتقدَّم إليه بَعض الشَيطانيّين مِن كِلا الجنسين؛ فاصطفَ كُل ثَلاثة

مِنهم في جَوف دائرة من الدَّوائر الأربعة وكَأنهم قَد تدرّبوا من قَبل على استخدَام أدوارهم ببَراعة.

بَعد إنهاء الخُطوة الأولى من هَذا الطقس السرّي تَقدّم الكَاهن الأعلى "قرن الخطيئة" أمَام أنظار "الماجا" مُتَّجهًا صوبَ موضع الشُّموع، ثم أشار قائلًا:

((على الجمِيع الوُقوف في أمَاكنهم تَرقُبًا لقُدوم "الشيطان".. واستعدَادًا لسَماع تَراتيل "المفاتيح السبعة"... تراتيلُ العبَادة وفجرُ استحضَار "الملكِ السَّاقط من السّماء"))

فرضَ "قرن الخطيئة" كَلمته على القَاعة كقَاضٍ قد أغلقَ الأفواه بطَرقِه على الطَّاولة؛ فخيّم الصّمت وشَخصت الأبصَار واتّخذت التراتيل سَبيلها إلى الآذان؛ كَانت نُصوصًا تُنطق بنغمَات كتلك التي تُسمعُ في تراتيل بعض الدّيانات. بعد تمعّنٌ جادٍّ في الكَلمات اتّضحَ لي بأنَّ الكاهن الأعلى يُرتّلهَا على شَاكلة قصص قصيرة مُلتحمة النّهايات، تَروي انتقامَ الشيطان وخَدمه من أعيَان الأرض، وسَعيهم لطرد الملائكَة من السّماء ووضع ديانة الشيطان كفَرض؛ فَموضعٌ ذَكر تخريبَ الجنّة وضَرب أرضها ضربًا، ومَوضعٌ أشار إلى خُروج السّاحرات لتسخير جنود الشيطَان طوعًا وغصبًا...

أطنَبَ جمُوع الحاضرين في تنَاول موادٍ مخدّرة وأقراصِ هَلوسة وشُرب النَّبيذ لحظَة احتدَام التَّراتيل وتدفّقِ هُرمون الأدرينالين؛ فمنهُم من جُنَّ جُنونه وأخذ يُحرّك جَسده عَشوائيًا، ومنهُم من صَمد حتَّى اللّحظة الآجلة التي شَهدت فَراغ "قرن الخطيئة" من تَراتيله الغبيّة، ومَا أن رفَع يديه إلى السّماء حتَّى جُلجلتْ القاعة وانتفَضَت برقص "الشيطانيين" نِصف العُراة!.. رَقص مَجنون حُرّكتْ فيه أطرَافهم تلقائيًا كما تُحرّكُ "عرائسُ الماريونيت"... قَفزٌ ودورانٌ ونطّ.. تصَادم وتزاحم كطيور البطّ! وما أن لحق النّصبُ أجسادهُم ومنع الإرهَاق تدفق أنفَاسهم حتَّى خرُّوا على الأرض يَتساقطون من أثر النَّبيذ كما يتساقط ذُباب الفَاكهة بعد رشِّه بالمبيد.

وقفتُ حَائرة أتفرَّج على أولئك المجانين وهُم يتهَاوون أرضًا وكأنّ الشيَاطين تتلبّسُهم. فَجأة ظَهر "المينوتور" من بين تجمهُرهم الغفير قاطعًا أشواطًا من المشي للوصول إليّ، ومَا إن أدركنِي حتَّى شدّني من ذِراعي قائلًا:

((لقد دَخل "لوسيفر" القَاعة أخيرًا.. فتَسَاقُطُ "الشيطانيين" بعد تَراتيل "المفاتيح السّبعة" ودخولهم في "نَوم العبادة" يُعدُ المـُؤشّر الأقوى على حُضوره)).

تساءلتُ قائلة:

((وما "نوم العبادة"؟))

ليردَّ عليّ وعيناه مُصوّبتان نَحو المنصّة وكأنَّه ينوي العَودة إليهَا...

(("نَوم العِبادة" يَفتحُ المجال للحِوار مع الشيطَان.. فَكلّ شَخص سَقط بَعد أدائِه ما يُعرف بـ"الرّقصة الحَمراء" سَيدخل في حِوار مُباشر مع "لوسيفر" أو مَع أحد أعوانه الأشرار.. أمَّا أنا فَقد جِئتُ لأبشركِ بموعد تَنصيبك "كراهبة".. والذي سَيحين بعد الدُّخول في طقس الشَهوة والجمَاع.. رُعب الموت ونشوة الحيَاة.. "القُدَّاس الأسوَد")).

ما كَاد يُنهي كَلامه حتَّى علتْ صَيحة أنثويّة هزَّت حِيطَان القَاعة، صَيحة عَظيمة أطلقتهَا "الماجا زونَا" بعدَ أن رَدّدتْ وراءها كَلمات لا تسرُّ الخوَاطِرَ...

"إنه القُدَّاس الأسود يا سَادتنَا العظام".. "استعدُّوا له يا أبناء الشيطان"..

ارتسَم الحبُور على وجوه الحضُور بعد هذه الصيّحة؛ فشُغِّلتْ الموسيقَى الصَّاخبة من جديد، وجُرّدتْ معها الملاَبس من الحِزام

حتَّى الأقدام؛ فَبرزت المفَاتن والأعضَاء الجنسيّة للعيان وانتشَرت الرَّذيلة هنا.. وهناك.. وفي كل مَكان... رجَال يمارسُون اللّواط باستحسَان، وبناتٌ فضّلنَ السّحاق على الالتحَام بالشُّبان.

لفتَ انتباهي مَجموعة من الرّجال قَاموا بطرح الحسنَّاء المـُستلقيّة أعلى المنصّة على الأرض بِكل قوّة وعُنفوان، ثم تَداولوا على اغتصَابها بعد أن ثبّتوا كمَّامة جلديّة على فَمها طَرحتْ لسانهَا وأبانتَ طَواحِنهَا وكَادت تَفصل فَكّيهَا!.. والغريب أنها انصَاعتْ لهم ولم تُبدِ أيَّة مُقاومة قد تُساعدُ على خلاصِها، فاستقبَلتْ بُصَاقهم وصَفعاتهم بابتسَامة سَاخرة تُظهر استمتَاعها بالجنّس رغم المذلَّة التي تُكابدُهَا؛ فتارة تَلعقُ أصابع أرجل مُغتصبيها وتشفُطُ الأدناسَ المـُتجمعة بينهَا، وتَارة تستقبلُ رشَّاشات بَولهم وقذارة فضلاتهم التي يطْرَحونها عَليها؛ ولولا رائِحة البخُور التي دَاعبتْ أعمدتها حِيطان القَاعة وأنوف الجمَاهير لأصابني الإغمَاء منذ اللّحظة التي وضَعت فيها قَدمي داخل هذا المعبَد الكبِير.

دامتْ عمليّة الاغتصابِ طويلًا مَا استدعى تدخُّلَ "قرن الخطيئة" مُفرّقًا جمُوع "الشيطانيين" عن تلك الحَسناء التي ذاقت ذرعًا من تناوبهم على هَتك عَرضها للمرة الألف، فانتصبتْ أخيرًا على سَاقيها المـُرتعشتين حَاملة جَسدًا جريحًا من غير روحٍ.. جَسدًا قد

ظهرت عليه مساحاتٌ من الكَدمات والجُروح الغائرة، واختلطتْ فيه القذارة بالدّماء الباردة.

كَان تَدخّلُ الكاهن الأعَلى أمرًا لابدّ منه كي يحفظَ ما تبقّى منهَا لزعيمِه الروحي "الملك السَّاقط من السّماء"؛ لذَا قرَّر اقتيادها إلى مَا وراء الجدران مُعلنًا للجميع أنَّ "لوسيفر" قد اختَار مُجامعتها اللّيلة، وهو الآن مُقبلٌ على تقديمهَا له كقربان ينتشي بمدَاعبته في عَالم الموتَى قبل عَالم الأحيَاء.

تَوارى "قرن الخطيئة" والحسنَاء المـُغتَصَبة عن الأنظَار تحتَ تَصفيقَات مُجَلجِلَة مِن جُموع الحَاضرين؛ أمَّا "الماجا زونَا" فأعلنتْ عن افتتَاح حَفل تَنصيب الرَّاهبات دَاعيّة من سَاحرهَا المـُدلَّل "مارتن هنري" التَّقدُمَ إلى المذبَح المـُقدَّس مرافقًا الفَتيات اللَّائي سيُوكّلنَ مُهمة خِدمة الشيطان؛ فقَام هذا الأخير بالاقترابِ منّي وجمعي ببقيّة البنَات القاعدات في أمَاكن متفرّقَة من قَاعة الهيكل. راودني الخَوف في اللَّحظة الأولى التي وقفتُ فيها من مَقعدي الدافئ مُتَّجهة صَوب المذبح المـُقدَّس؛ ولكنه توارى تدريجيًّا بعد اجتمَاعي بقريناتي من الفتيَات؛ فخفّ نبضُ قلبي بعد ازديَاد، واستكَان شَهيقي وزفيري بَعد عناد.. تقدّمتُ مع مَعشر البنات إلى مذبح القرابين وتنصيب الراهبَات. كَانت عينا

"المينوتور" لا تزيغَان عنًّا؛ وكَأنّه راعٍ يسهرُ على عدٍّ أغنامه قبل العَودة بهم إلى الزَريبة.. الأمر الذي أثَار فينَا بحرًا من التَّساؤلات.

وصَلنا أخيرًا إلى المذبح المـُقدَّس الذي كَان ضيّقًا عَكس ما تَوقعناه، احتدمَ دَاخله ظلام أدمسُ من سَواد القُبور حرَّم علينَا إرواء فضولنا واكتشَاف مَعالمه؛ فلم يَبرز منه سوى أوانٍ عَظميّة صُنعت من رُفات الموتى، وجَماجم بشريّة مختلفة الأحَجام مُلقاةٍ في الأركان، كَانت أرضيّةُ المذبح مَلساء رًخاميّة تمنع السَير المريح، أخذت هذا الشكل لتُسهلَ عَملية شفط دماء القرابين. بينَما نتَلاعب بأبصارنا يمينًا وشمالًا طمعًا في استقصَاء معَالم المكان، سَفَرَ لنَا نُور شَمعة أضَاء ما لا يُرَى، كَما كَشف لنا عن هُويّة الزائر القَبيح الذي لم يَكن سوى الكَاهن الأعَلى "قرن الخطيئة" يُجَاهدُ للدّخول إلى المذبح مُستخدمًا بابًا أسود صغيرًا ظهَر على الحائط الجانبيّ، أشَار بيده لسَاحر العَشيرة "المينوتور" فتقدَّم مُسرعًا إليه يُجفّفُ له العرَق الذي غَمر أجَزاء وجهه.

وقفتُ والفتيات مُستغربات عن سَبب هذا الظُّهور المفاجئ الذي لم يكن في الحسبان؛ فمَا كان منَّا سوى السُّكوت والتَّحديقُ في الأرجاء كَون الدقائق القادمة ستُجيبُ قطعًا على كل استفسَاراتنا وأزيد منها. اختَفى "المينوتور" للحَظات بعد دُخوله عبر ذلك البَاب الصّغير ثُمَّ كَرَّ حَاملًا بين يديه الحسنَاء التي اُغتصبتْ قبل قليل..

كَانت فاقدة لوعيهَا بوجه شَاحبٍ وأطراف مُتراخيّة، لم تَظهر عليهَا أية دلالة على الحياة سِوى صدرهَا الكبير الصَّاعد من ضَغط الشَهيق والنَّازل من فَرط الزفير. استعَان "المينوتور" بالكَاهن الأعلى لإيلاجها إلى المذبَح وإلقائها فَوق بلاطاته الرُّخاميّة السَّوداء والبيضَاء. التحقتْ "الماجا"بالشلّة حَاملة عَلى كفيّ يَديهَا سينيّة فضيّة استقَامت عَليهَا ثلاثةُ كؤوسٍ عَظميّة اصفرَّتْ حَوافها من فَرط الاستخدَام، كُؤوسٌ أخَذتْ أشكالًا غير هَندسيّة، كَأنها قد صُنعتْ على عَجلة لغَاية لم تُدركهَا حواسِي.

ثبّتَ "قرن الخطيئة" الشمعة على إحدى الجمَاجم البشريّة، واستَخدم كِلتا يديّه لفتح صُندوق حَديديّ صَدئ مُعلّقٍ على الجدار، نفَضَ كفيّه من الغُبار ثمَّ دفع سَاعده الأيمن إلى جَوفه مُستخرجًا مشرطًا حادًّا ذكّرني بالعرْض التَّعذيبي الذي أشرف عليه عديم الشرف "تومسون".

سحبَ "قرن الخطيئة" بعض الشُّعيرات من لحيتِه الكثيفة، ثم قَطعها بالمشرط مُستعرضًا قَابلية هذه الأداة الحادّة على أداء مُهمتها بنجاح. اقتربَ من تلك الحسنَاء وداول على صَفعهَا حتَّى استَفاقت ثم خَاطبها لحظة تَهاوي رأسهَا بين يديه الغَليظتين.

((عَزيزتي.. تَعلمين أن الشّيطان إذا مارسَ الجنّس مع فتاة فستَكون مِلكه.. وتَعرفين أيضًا أنّي جَامعتُكِ قَبل قليل دَاخل هذا القبو "مُشيرًا بإصبعه نحو الباب الصغير الذي دخل منه إلى المذبح".. لأنقُل لذّة النّكاح إلى سيّدنَا "حامل النور".. أمَّا الآن فقَد حَان الوقتُ لتذوّق سوائلكِ الدَّافئة قبل وأدكِ في سَاحة المُستودع.. فَهل قلبُكِ المُحطّم لا يزال قادرًا على ضَخّ دِماءٍ تَكفي لملءِ هذه الأكوَاب الثلاَثة؟))

ابتسمَ لـ"الماجا زونَا" ابتسَامة عَريضة رَسمَتْ خُبثْ جهنَّم؛ فَفهمت الأمرَ واقتربت من تلك الحسنَاء العاريّة بشَغَفٍ وضَغينة، تفحّصتْ شفَتيهَا بأنَاملها ثم أشَارت إلى "المينوتور" بِيدها، فَدنا منهَا حَاملًا قِطعتين خَشبيتين كَبيرتين وضعهُما على بِلاطات المذبح فَاصلًا بينهما بمسَافة قدمين أو أكثر، ثمَّ استخدَم قبضتيّه القويتين لرفع تِلك الحسّناء ووضَعها على الخَشبتين في وضعيّة سَمحت لنهدَيها بالتّدلي، لتظهرَ كعَنزة زريبة تنْتظر مَوعد الحلب.

وضعتْ "الماجا" السينيّة الفضيّة التي تَحمل الكُؤوس العظميّة أسفل النهديّن ثم جَثَتْ على رُكبتيّها مُستخرجَة موسَ المشرَط من حَامله البلاستيكي، خَضخَضت النَّهدَين جيّدًا وقرّبتهمَا من بَعضهمَا البعض، وبحركَتين بَطيئتين مرّرَت على حلمتيهَا الموسَ

فانفجرت من صُلبهمَا شَلَّالات من الدّماء، وبدل امتلاء الأكوَاب لبنًا.. حَمل تَجويفهم ألمـًا ودمًا!

كانَ مَشهدًا لئيمًا أثار حاجَتنَا للتقيؤ، المسكِينة رُغم الألم الذِي أخذ يقرُصُ جراحها إلَّا أنَّ صُراخهَا لم يَكن بالشدّة التي تَوقعناهَا، لا بُدَّ أن تكون مُخدرة لتَتجاوز عَذابًا أليمًا كالذي لحقهَا في هذه المنطَقة الحسَّاسة من الجَسد!.. استمرَّ جَحيم العَذاب للحظَات، ثم اختتم بحركَة عَنيفة من "الماجا" تَسبّبت في إغمَاء الفتاة؛ فَقد شمّرت عن سَاعديها المـُترهّلين ثم وَضعت كَفّيها أعلى نهديهَا، ضَغطتْ عَليهمَا بقُوة وأخذت تَسحبهمَا تَدريجيًّا إلى الأسفل حتَّى بلغَتْ مَوضع الحلمتين المقطُوعتينّ، الحلمتين التين بَقيتَا مُلتصقتَين بجلدٍ أبى أن يَترُكهمَا. ومَا إن تسَاقطت آخر عُصارة من الدّماء حتَّى تهَاوت معهَا الحلمتَين إلى جَوف كأسين من الكُؤوس الثلاثة؛ فزُلزلَ المَذبَحُ بصرّخة عَظيمة أطلَقتهَا تلك الحسنَاء قبل أن تَفقد وعيهَا وتُسحَبَ من قَدميهَا للدّفن في جَوفِ القَبو؛ ولعلَّ الحدث الأبرز هو سُقوط الفَتيات اللّواتي سيُنصّبن كراهباتٍ على الأرض من فظَاعة المنظَر، فارتطَمت الجَماجم برُخام المذبَح وتَصدعّت الرؤوس واستحَالت الوجُوه من القَبيح إلى الأقبحْ.

***

*"تأثَّرت سوزان بَعدَ سَردِهَا لأحداثٍ مُؤلمة، فظهَرَ عليهَا الإعياء، توقفتُ قليلاً لأعطيهَا وقتًا تَجمعُ فيه أنفاسهَا، ولمَّا عَاودتُ إحياء الجلسة العلاجيّة من جديد، فقدَتْ الصّغيرة ترتيب الأحداث... لقد كانَ أمرًا سيئًا عليّ تَدَارُكه في الجلسة القادمة".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل الثامن: "الماجا" تُروي المذبحَ دماء!

## الجلسة العلاجيّة السابعة: الثلاثاء ١٠ يناير ٢٠١٧

هَل كَان هذا كابوسًا؟.. ماذا يحدُث هنَا بحق الجنّة والنَّار!.. هل خُلقتْ لأشهد القِيامة قبل الأوان!.. أم لأُعذّب أو أُقتلَ أمام هؤلاء الأعيَان؟

فضَاء من التّساؤلات أخذ يتَّسعُ في ذهني؛ فأصبحتُ غير مُدركة لما يدُور من حَولي، اكتشفتُ أنّي أحَاول إقناع نفْسي بأنَّ ما أشَاهده مُجرّد كابوس يأبى الزّوال، ولكنّ الأمرَ حَال دون ذلك؛ فرائحة الدّماء قد استّقرت في الأمعَاء وكأنّي ابتلعتُها بدل استنشَاقهَا.. "الماجا" تَستمتِع وكَاهنها الأعلى بالشُرْب من كَأس الدّماء الدَّافئة، بخَار الموت يتَصاعد من السِينيّة الفضيّة التي انسَكبت عليهَا السَّوائل الحمّراء.

بينمَا أقفُ مُترقّبة الخطوَة التي تلي هذا القدَّاس الأسود دَنا منّي "قرن الخطيئة" وانخفض بجسَده حتَّى تَقابل وجهَانَا؛ صوّبَ نظره الحادّ إلى مُقلتيّ لحظة مضغه لحلمَة الصَّدر، بَصقهَا عَلى وجْهي ثم اقتربَ أكثر حتَّى لامسَ قرناه حُدُودَ جبيني، واسترسَل يقول:

((تبدين أكثرَ فتاة مُتماسكة في هذه المجمُوعة.. اخلعي ثَوبك وناوليني سَاعدك الشّمال.. لا أريد مُقاومة.. لا أريد كلامًا.. وبالطّبع لا أريد تماطُلًا)).

تراجعتُ خُطوة إلى الخلف، ثم سَحبتُ ذراعيّ من داخِل العباءة، خَلعتُ القُلنسوة الطويلة وتركَتُ الرّداء ينسَاب ببطءٍ من على جَسدي مُبرزًا مفَاتني للعيَان. لقد كُنتُ مُغرية في أعين الجَميع بعد أن تَلاعب أطبَّاء "ماما" بأعضائي الجنسيّة وجَعلوها أكبَر حتَّى قبل بُلوغي سنَّ الرّشد. لاحظ الكَاهن الأعلى انحناءات جَسدي فأطلق هَمهمةً طَويلة لفتَت انتباه "الماجا زونَا" التي حَدّقتْ في عينيه مُطوّلًا كأنهَا تُحذّره من أن تَغلبه شَهواته أثنَاء حَفل التَّنصيب.

أخَذ "قرن الخطيئة" نَفسًا عميقًا استَرجع من خِلاله رُشده الذي كَاد يَفقدُه، ثم تَابع مَراسم تَنصيب الرَّاهبات وعيناه الجَاحظتان لا تَزيغان عنّي. تَناول ردائي السَّاقط بيده وأغلق عينيه واستنشَقَ عَبيرَ روائِحي الطبيعيّة من نَسيجِهِ ثمَّ ووضَعه جانبًا، أنزلني على الأرض في وضعيّة القُرفصاء ثمَّ شدّني من سَاعدي الشِّمال بقوّة كَادت تخلعُ ذراعي، بَسطهَا على أحد الألواح الخشبيّة التي استخدمت في تَعذيب تلك الحسنَاء، وقفَز بسُرعة لاَهِثَة نحو الصّندوق الحديدي مُستخرجًا من صُلبه أداة معدنيّة طويلة

كالمسمَار تحمِل في نهايتها إبرة غليظة مُصفَّحة الرّأس. عَاد إليّ ماسكًا بسَاعدي، تفحّصَه بإبهامه حتَّى عثر على الشريّان.. عقَّمهُ بمُطهّر طبّي واستهَلّ في إدخال الإبرَة إلى بَاطن ذراعي وأنَا أتظاهر بالقوّة وأصرخ بِداخلي من حرَارة الآلام، ومَا إن فرغ من عَمله حتَّى تدخلت "الماجا" قائلة:

((قبل تَنصيبكن كراهِبات للشّيطان كان علينَا مَنحُكنَّ عضويّة الكنيسة.. هيا اقتربن والعقنَ قَطرات الدّماء المنسابة من سَاعدِ المـُختارة.. ومن لم يحَالفهَا الحظُّ منكنَّ في التّذوق عليهَا امتصَاصه قبل أن يَلحقه التَّخثُّر)).

أنهتْ حديثهَا مُشيرة بيدها لسَاحر الطائفة "المينوتور" ليتَابع عنهَا الكَلام رافعًا رأسه كمَا يفعَلُ الغضنفَر؛ فتَصاعد شعرُه الطَّويل إلى أعلى ونزلَ مُنسابًا على ردائِه الأغبر.

((بعد شُربكنّ من سَوائل المـُختارة ومع امتزاج اللّعاب بالدّماء.. ستُكوّنّ جميعكنَّ اتحادًا وتلاحمًا مع "الشيطان".. وبهَذا تأخُذن العُضويّة.. والآن لنُباشرُ في تَنصيبكن دون عصيان))

اقتربت الفتَيات منّي بخطوات مُتثاقلة ومُتردِّدة، تعَمَّدَتْ كُل واحدة منهنَّ المـُمَاطلَة في التَّقدُم حتَّى تَسبِقهَا زَميلتُهَا؛ وكأنَّهُنَّ مُرغمَات على اتخاذ قرَار لا ينبغِي إقرَارُه، شكلّنَ من حَولي حَلقة

دائريّة أخَذت تُنغِّصُ عليّ الخناق، كَان التَّوتّر مرسومًا على أعينهنّ البريئة قبل أخذهن للعضويّة، مسَكت أولى الفتَيات ذراعي وأخَذت تعلقُ بعض الدّماء المتجمعة على تلك الفُتحة؛ التي برَع الكاهن الأعلى في شقّها وكَأنه طبيب جرَّاح، اقتربتْ رفيقتهَا قليلًا وفعلت ذاتَ الشيء، وكانت كلّمَا جفّت دمَائي أو توقّفَ تدفُّقها من ذلك الجرّح الغَائر تقدَّم "قرن الخطيئة" واستخدَم الأداة مُجدّدًا ليزيدَ من اتّساع الجرح ويَسمحَ للدّماء بالتّدفّق بغزارة، وهكذا دواليك حتَّى فرغتْ جميعهنَّ من اللّعق والمص.. ليُختُتمَّ طقس الانتساب وأخذ العضويّة بنجَاح، قابله اختلال في تَوازني بعد استنزَافي الكثير من الدّماء.

لحظاتٌ من الهدوء والسّكينة فرضتْ لوائحُهَا على فَضاء القاعة، لحظَات أنذرتْ بقدوم الهدوء الذي يَسبقُ العاصفة؛ كيف لا و"المينوتور" قد استهَلَّ في شفط الدّماء المنسَابة من ثديي الحسنَاء وأخذ يُرُشُ المذبحَ بمواد خَبيثة الرائحة وكأنّه يُحضّر لاستقبَال ضَحيّة أخرى.

جسَّ الكَاهن الأعلى باطن القبو عَبر باب المذبح الصّغير، ثمَّ كَرَّ إلينَا ماسكًا بسِلسلة مَعدنيّة كبيرة.. أدَار ظهره إلينَا.. قلّص عضَلات سَاقيه وتَنَحنحَ ثم استهلَّ في سَحب السّلسلة إلى المذبح وكأنَّه يُصارع مَخلوقًا إغريقيًا قويًّا يأبى الدّخول، كما توقعتْ..

كانت السّلسلة مَوصولة بعُنق رفيقتي الوحِيدة في هذا المعبد الموحش..اليابانيّة "هون اوك".. كَانت في حَالة مُزريّة بجَسد مُرهقٍ غزتهُ زُرقةُ الكدمَات، وعَينان نِصف مفتوحتَان تكادان تغطسَان في سُبات؛ دَخلتْ تدبُّ على أربعٍ بعد مُحَاولات يَائسة للتملّص من هذا الكَاهن.. المسكينة..

صَاحب صُعودهَا فوق بلاطات المذبح صَيحات استهجَان واشمئزاز صَدرت من بعض الفتيات اللّواتي أخذن العضويّة قبل قليل.. فقدتُ صبري فصحتُ فيهنَّ قائلة:

((ألا يَكفي ما لَحقهَا من تَعذِيب! ألم تَستمتعوا بَعد؟))

ما كدتُ أنهي كَلامي حتَّى تلقّيتُ صَفعة قويّة من يد "الماجا" أردَتني أرضًا.. كانت صفعةً صلبَة أوشَكَ ثِقلُهَا على اجتثَاث رأسي من مَوضِعه. رفعتُ وجهي مُتحسّسة أذني اليُمنى بعدَ أن بلغ الطنين عُمقهَا وعزفَ الهواء على طَبلهَا؛ لتشُدّني "زونَا" من شَعري مُسترسلة في الحديث:

((لم ينتهِ أمر تَنصيبك بعد.. وأي خطأ جَديد سيقودك إلى الهلاك.. أمَّا الكَلبة اليابانيّة فقَد اخترنَا لها دورًا مُهمًّا في هذه الطُقوس المـُقدّسة)).

أطبقتُ فكيّ على بَعض حتَّى اصطكتْ طَواحني واستكان لسَاني، ثم انكمشتُ في مَوقعي منطويّة على نَفسي كبُومة الغاب رَهبةً واحترازًا من الوقوع في أحبُولة الكلام؛ حينهَا ستنقلبُ "الماجا" حتمًا إلى وَحش جهنَّم وتُزهقُ روحي.. تدُقُ عظَامي، وتُفرّقُ مفَاصلي.. فلا ينفَعَ النّدم عندهَا ولن يَعود الزّمن للوراء.

تناولتْ المايكروفون من عَلى المكتب وأخذَت تُخاطب الحضور داعيّة معاونيهَا إلى خفض مُستوى الموسيقى حتَّى تسترسِل في طرح الحقيقة...

((دمَاء القرابين مَصلٌ لحيَاة "الشيطانيّين".. سَوائلُ الأغنَام والأبقَار والدَّجاج تُطيلُ الأعمار وتبعُث طَاقة الحياة في الأجسَاد.. اليوم يا أبنائي ليس كسَائر الأيام الخوالي.. اليَوم ستَضُمّ طائفتُنَا راهبَاتٍ سقَطن من حضن الإله.. واخترنَ المكوث هنا لخدمة الشيطان ومَن والاه.. اليوم يا أولادِي لن نُضحيّ بالأنعام للتقرّب من "حامل النور".. لابدَّ من سَفك دماء أبناء جلدتنَا حتَّى نُظهرَ تمرّدنَا على الأديان السّماويّة والعَقائد والعَادات غير المـُجدية.. سنتحدَّى كَنيسة الشيطان الأصليّة.. ونخالف عاداتها الوضيعة في التَّقرُبِ من رائدِ الشرّ.. بحيواناتٍ أليفة لا تنفعُ ولا تضُر.. سنمتصُّ الحياة من أحد البشر.. سنُهلكُ الزَّرع ونَحرقُ الشَجر.. سنُقَدّسُ الأرضَ والقَمر.. نُمَارسُ القتْل ثم نُرسل الجُثة إلى القَبر.. فالقتلُ

على مَهل يا أعزائي يزيدنَا قُوّة عن ذي قَبل.. دَعوني أقدم لكمُ قُربان اليَوم الذي اختاره "لوسيفر" الزّعيم.. إليكم الصّفراء "هون اوك" ابنة أرخبيل اليابان العظيم))

أشَارت بيدهَا لـ"هون" لحظةَ لفظها لاسمها فأغميّ عليها دون أن تهمِس ببنت شفة؛ أمَّا أنا فأُصبتُ بصَدمة نفسيّة أخرَجَتْ عينيّ من مَحجرهمَا، في ذات الحِين فَقدتْ إحدى الفَتيات في الخلفيّة قُدرتهَا على المـُقاومة فغرقَت في بولهَا بعدَ الذي سمعتهُ لتوّهَا.

شدّتْ "الماجا" على المايكروفون بيديهَا حتَّى برَزَت عُرُوقهَا وكأنّها تتلهّفُ لإنهاء خِطابها والمباشرة في الطقُوس، ثم أردفَت قَائلة:

((كَانت لحظة اقتيَاد "هون" إلى خَارج القَاعة عَبر مَنفذ القبو مَلحميًّا بحق.. فقد سُحبتْ بفضل أعواننَا إلى نهر "غواندو" العَظيم.. هُناك تمَّ تشدِيد الحراسة المـُسلّحة ضِدَّ كُل دخيل تُسوّل له نفسه الاقتراب أو التّطفّل.. العرضُ برُمتّه اقتصرَ على تَطهيرها من الخطَايا.. وعَلى رأسهَا خَطيئة الإيمان بالربّ وتجاهل الشيطَان.. لقَد نجح كَهنتنَا في ما وُكِّلَ إليهم.. واستطَاعوا إرسَال "هون" في زورقٍ صَغير مُعبأٍ بالأفاعي.. ومُحاطٍ بستٍّ كهنة مُحمّلين بستٍّ شموع مَصنوعة من شَحم الخنزير.. فالرَّقم الروحيّ "ستة" مُقدَّسٌ لدينَّا.. لقَد نجتْ الطفلة اليابانيّة

من قَدر الموت وخَطر الفناء .. فغسلَ الكهنة ذُنوبهَا وعَادوا بهَا كأُضحيّة للملكِ السَّاقط من السّماء))

زمجرَ المذبح بهُتاف "الشيطانيّين" لحظَة استيقاظهم من "نومِ العبَادة" على وقْع كَلمات تُقعقعُ الآذان.. عَزفهَا لسان الزَّعيمة الأعلى رُتبة في كنيسَة الشيطان.. "الماجا زونَا"؛ وبينمَا اكتسحَت الهمهَمة فَضاء المكَان وتراصَّ الحضور على المذبح كحبَّات الرّمان، عقَد "المينوتور" خِصلات شَعره الطويل بقطعة قُماش؛ ذلك الشّعر النّاعم ضارب السّواد، ثم دلفَ إلى قبو العَجائب الذي لا زال يُبهرنا بالمفاجآت التي تَتمخّضُ من رَحمه مع كل مَأساة، واستخرَج من صُلبه عنزَة سَوداءَ ليستْ كباقي العنزات، لونُها أظلم تقشعرُّ منه الأبدَان، وثُغاؤهَا ذو بحّة تُقلقُ الآذان، حَملهَا بين ذراعيه كَرضيع في حُضن أمه، ثمَّ أنزَلهَا برفقٍ على البلاطَات النَّاعمة.

وضعَ رأسهَا على حَجر المذبح وأشَار بقبضته لأحَد "الشيطانيّين" العُراة من جُمهور المشاهدين، فَهِمَ هذا الأخير المقصُود فاقترب من ذلك الصّندوق الحديدي وسَحب من جَوفه سكينًا كبيرًا -يكفي لفصْلِ رأس "بيسونٍ" عن عنُقه- نَاوله الساحر وأنابهُ في تَثبيت العَنزة؛ ليُقدمَ "المينوتور" على ذبحهَا

من أسفلِ عُنقهَا بخفة ومَهارة، جَاعلًا مِن أوردتهَا المنحُورة رشّاشات دماء لوّثَت الوُجوه والجدرَان.

داولَ "المينوتور" على اجتثَاث رأس الحيَوان لحظة احتضارهِ وقَبلَ لفظِه لأنفَاسِه حتَّى نجَح في اقتلاعِه تَاركًا الجُثَّة تَتَخبَّطُ من حَرَارة النَّحر، استَلمهُ منه "قَرن الخطيئة" ثمَ شقَّ طريقه يحملهُ نحو صَليب مَقلوب يتوسَّط قاعة الهيكل، علَّقهُ عَليه ثم هرع إلى المذبح تاركًا شَياطين الإنس تُزاحم قُرناءهَا من الجنّ للعقِ الدّماء المُتقاطرة من عنُق الحَيوان في مشهد ظَننته لوهلة وليدَ الأفلاَم..

تقدَّم "المينوتور" من جثّة العَنزة بَعد أن ارتخَتْ عَضلاتُهَا وتَحرَّرت رُوحهَا، بَقر بطنهَا واستخرجَ أحشَاءها التي كانَ من المُقرّر دَفنُهَا؛ لكنَّ سَاحر الطائفة فَضَّلَ رميهَا على جمهور الحاضرين الذين أخذوا يتزاحمُون للعق السَّوائل المُنسابة منهَا؛ فمنهم من تقيّأ وانطَوى على نَفسه في زاوية القَاعة، ومنهم مَن لفَّ الأمعاء على رَقبته وأخذ يتَراقص مَعها مُظهرًا تفوّقهُ أمَام أقرانه من فِئة "الشيطانيين".

***

انتهى عَرض الرَّقص مع الأمعاء سَريعًا، مُخلّفًا من ورائه أرضًا إسمنتيّة تشبّعتْ ثُقوبهَا بسَوائل مَعويّة وبقايا جلديّة مع فَضالات حَديثة التَّصَلُّب، كَان البُخار يتصَاعد من الأشلاء المـُبعثرة بين الأقدَام، وكَانت ذبيحَة العنزة تَستقبل في جوفهَا خُرطوم المياه المـُتّصل بصنبور المذبح، رفع المشهَد من وتيرة فُضولي وبَعث فيّ الحيرة والذهول؛ فبَعد تَنظيف الحيوان من الأحشَاء وغَسل باطنه بالمياه ها قد تجنّبُوا سَلخ جِلده بَعد الذَّبح وسَفك الدّماء؛ ما الغاية من استخدَامه يا ترى!.. وهل تُقدّمُ القرابين الحيوانيّة بهذه الطريقة الهمجيّة أم أنّهم يحضرُون لمفاجأة لا يَستسيغهَا عاقل ولن يُدركهَا هَاربٌ !

اجتَاح الصُّداعُ حُدُودَ رأسي بَعد محاولاتٍ فاشلة لاستبصَار ما سيحدُث، كنتُ أُراقب على يميني نَحيرة العنزة وهي تُطيّبُ بعبقِ أجوَد أنواع البخور، وأصبُّ نظري على يسَاري مُتأملة في جسد "هون"، والخَوفُ يَستَفِزُ عَقلي وتفكيري ويَدفَعُنِي للبَحثِ عن الغاية من هذه الأفعالِ المـُستَنكَرة.. وأمل النّجَاة يُرَاودنِي في ظلِّ انشغالهم هذا. فجأة ضربتْ الكَهرباء عُمقَ دِمَاغِي بفكرَة مُريعَة انبثقَتْ من جُملة ملاحظاتي العَميقة، وقَبل أن أُقنع نَفسي بنسيانهَا لمـَا جَمعتهُ من هولٍ وهلاك أزمعَ "المينوتور" على تأكيدهَا بكَبحِه ضَجيج الكلام مُخاطبًا "هون"...

((تَبدين كسُلحفاة "غلابغوس" من دُون قَوقعة.. لذا كَان علينا أن نحمي جَسدك الهزيل ونحشُره في جَوف الجُثّة.. فتكتسِين عَازلًا يحمِيك ويُخفي حالتك الرّثة)).

وقع الخبر على أذنيّ كَلَعلَعة الرَّعد، خبرٌ خرّت على إثره ركبتيّ ونزلتَا بجسَدي على الأرض لأتسمَّر في مَكاني كفزَّاعة القش وأتَابع ما سيُسفر عنهُ هَذا العَرض المجنُون. تَعاون "المينوتور" وتابِعه على إدخَال "هون" إلى جَوف الجُثة، وقد سَاعدهم على ذلك جَسدها الهزيل الذي استجَاب لهمَا مُباشرة بانزلاقه برفقٍ إلى بَاطن الحيوان الميّت، كَان وجهُهَا كصنَم حَجري يأبى إبدَاء أية ردّة فعل؛ عدا تعكّر حَاجبيها أثناء تَثبيت الجُثّة على ظهرهَا بالحبال المتِينة، استغلَّ "قرن الخطيئة" انشغَالهما في تَجهيزهَا وقَام هو الآخر بجمع اللّوحين الخَشبيين اللّذين استُخدمَا لاستخلَاص عُصارة الدّماء من نهدي تلك الحسنَاء مُستخدمًا إيّاهمَا كمنصّة صَغيرة، ومَا أن فرغَ السّاحر ومعاونه من عَملهمَا حتَّى اقتربَ منهمَا الكَاهن الأعلى مُتناولًا عنهمَا "هون"، سَحبها بعنفٍ إلى حَوض المذبَح أينَ رفعهَا كَجديٍ صَغير فقد أمه، ثُمَّ وضعهَا على السّطح الأملس للّوحين. جمعَ أقدامهَا الأربع مع بعض مع خَفض رأسهَا إلى الأسفَل مُتعمّدًا إظهار أعضَائها الحسّاسة من فُتحة في مُؤخرة الجُثة؛ وما كَاد يُنهي عَمله حتَّى

صَدَحَ جُل من في القاعة فرحًا وحبورًا لحظة اكتشافهم حَقيقة اللّعبة.

أخذ "قرن الخطيئة" المايكروفون واسترسَل في دعوة كلّ من نجح في الرَّقص مع الأمعَاء وتجاوز خَطيئة الغَثيان. دَعاهم للتّقدم إلى بلاطَات المذبح ومُمارسة أندر ضُروبِ الجنس المحرّم... جِنس "بيدوفيليَا الأطفال"

تَزاحم الشّيطانيّون العُراة حُفاة أمام المذبح بوجُوه بائسة وأجسَاد مَوشومة، استطَاع قويّهم حَجز أوَّل مَكان للعبور والفوز بالطَّريدة؛ أمَّا الضّعيف منهم فاكتفَى بالانتظَار في مُؤخرة الطَّابور عَسى أن يُحالفه الحظُّ في إيلاجِ ذَكره قبل فُقدان الضحيّة لوعيهَا، كَانت أعينهم حَمراء دمويّة من أثر المـُخدرات، كُراتها تتراقصُ يمينًا وشمالًا بحثًا عن مَنفذ لبلوغ جَسد الفتاة؛ مَا جَعلهم يَظهرون كمصَّاصي دماء أفاقوا من سُباتهم وخَرجوا من تَوابيتهم بحثًا عن الغِذاء.

صَفَّقَ الكَاهن الأعلى بيده مُعلنًا عن بداية العرض؛ فتَزاحم الشيطانيون على "هون" كَطيور "الكندور" الجَائعة مُتجاهلين الأوامِر باحترام الطَّابور، تصاعد صُراخ المسكينة إلى عنان السّماء بعد أن أخذت تغرقُ في مُحيط من الأجسَاد والدّماء؛ حتَّى

من إناث هذه الطَّائفة لم يفوّتنَ فرصة مُمارسة السّحاق مع طفلة لم تبلغ بعدُ أشدّهَا ولم تُدرك الغَاية من ممارسة هذا الجنس الشَّاق.

أخذَ مُحيط المذبَح يغلي بالحركة والصّراخ مما جَعل "المينوتور" يقتَادنا بمحَاذاة المنصَّة كي لا تُصيبنَا الأيَادي الغلمانيّة المـُندفعة لممَارسة الجنس، كنتُ أراقب وأبكي في صَمت حتى جفّت الدّموع واحترقَ الفؤادُ، بقي الوضْع على حَاله حتَّى تدخلت "الماجا زونَا" مُفرقة جمعَهم بيديهَا القويتين، وهمَّت قائلة:

((كَفَاكم مُتعة الآن!.. ألن تَتركوا جُزءًا منها ليتذوّقه الشَيطان!.. أهكذا تُكرمون "لوسيفر" يا أشبَاه الخدم؟))

كَانت كَلماتُها القويّة كَفيلة بصدّهم وتفريق جَمعهم، فأزمعَوا على الانسحَاب الواحد تلو الآخر، ولم تمر سِوى ثوان حتَّى تَراءت لنا "هون" في مَنظر لا تُحسدُ عليه البتة؛ فقَد مُزِّقتْ جُثّة العنزة عَلى ظَهرها، وتَرسَّبت الدّماء من تحتهَا، ولم يبقَ منهَا سوى جَسد هزيل مُرهق أبى أحد الشَيطانيين أن يتَركه، ضاربا كلمَات "الماجا" عرضَ الحَائط. كانت رَغبته الجنسيّة تظهرُ في أوجّ اشتعالهَا، ما جَعله يَعصي الأوامر ويعرّضُ حَياته لخطر الموت.

جمحَ الغضبُ روح "زونَا" بَعد الذي حَصل؛ كيف لا وذلك الغريب لا يزال يَنتهك عرض الصَّغيرة "هون" التي أخَذت تُحتضَر في صَمت وألم، وعَيناهَا مُصوّبتان نحو الأعلى كأنها تَسأل ربّهَا أن يَسحب روحهَا ويعفيهَا من كونهَا أداة للمتعَة. شعرَ "المينوتور" بأنّ الوضع يحتَاج التّدخل، وما إن أطلقتْ "الماجا" إشارة القتل بيدِهَا حتَّى انقضَّ سَاحرهَا عليه مُمزقًا لحمه وراسمًا خَارطة العَالم على وجهه. ومَا إن سَقط أرضًا ليُصارع الوجَع حتَّى نزل عليه "المينوتور" بقَبضتيه القَويتين فكَسر عِظام رَقبته مخلّفًا وَراءه جُثّة هَامدة وعِبرة لكُل من يَعتبر.

لم تُلقَ جُثة الغَريب خارجًا كما كان مُتوقعًا؛ فقد قرّرَ "قرن الخطيئة" بَتر ذَكره وهُو على هَيأته المـُنتصبة، ترَكه جانبًا ودَلف إلى بهو القَبو للحَظات، ثم عاد حَاملًا بين يديه عصاة خشبيّة مَتينة. جثا على رُكبتيه وأخَذ يربط العُضو الذَّكري المبتور بنهاية تِلك العَصا مُستخدمًا في ذلك أسلاكًا مَعدنية رفيعة لئلّا يُزاح العضو عن مَوقعه.

استغرَق دَقائق قَليلة في التَّثبيت ثم قام برفعه إلى الأعَلى مُظهرًا أمَامنَا أداة غَريبة تَشمئزُ منهَا الأنفس، عَصاةً خَشبية طَويلة تنتهي بقَضيب رَجل حَقيقي مُحاط بأسلَاكٍ حَديديّة حادّة كثمرة التين الشوكي..

نطَّ الكَاهن الأعلى من مَكانه إلى مَوقعي كَضفدع استوائي، وَضع أمام قدميّ سكينًا مُسننة حادة، ثم نَظر إليّ بجديّة بَرزت من خِلالها مَلامح الغِيلان لا خليقة الإنسَان، واسترسَل يقول:

((تَقفين الآن أمام خِيارين لا ثالثَ لهمَا.. أولُهمَا مُر.. وثانيهُمَا أمرّ..))

أومأتُ برأسي دلالة منّي جَهلي بالمقصُود؛ فتَابع كلامه بحزم:

((يُمكنكُ الاختيَار بين حَمل هذه السّكين واستخدامها في طعن رفيقتِك بين القلبِ والكَبد.. فتُنصّبِين كَراهبة بشكل رسميّ وإلى الأبَد.. أو أنْ تَتغاضي عن الأمر وتتركيني أقتلهَا بهذه الأداة من الخَلف.. ثم أُرسلكُ إليهَا بإنهاء حيَاتك على عَجل))

أنهى كَلامهُ دافعًا تلك الأداء إلى عُنقي، أخذَ يُمرّرُهَا على بَشرتي مُـتعمّدًا تَرهيبي؛ حِينهَا أيقنتُ أن دورنَا قد اقتَرب ولا مجال لتخطّي الموت سِوى باتخاذ قرار صَائب يُخرجني من حَيز الخطر. كنتُ قد فَقدت ثقي فيهم نهائيًا؛ لذا كَان من الواجِب التَّعامل مع الموقف دون شُرود ذهنيّ ولا تأثر بما يفرضُونه عليّ من أوامِر.

الجميع يَرغب في مُشاهدتي أقتُل رفِيقتي بِيديّ هَاتين، ولكِن هَيهات... لن يَحدُثَ هَذا... لنْ يَنالوا مَا يُريدون.. لنْ أحقِّقَ رَغبتهم البتَّة...

((أرفضُ قَتلها))

كَانت هذه إجابتي الوَحيدة التي اخترقت مَسمعَ الكَاهن الأعلى "قرن الخطيئة"، وعلى عكس ما تَوقعت، ردّةُ فعله كَانت عاديّة لدرجة أدخلتني في دوامة الشّكّ، ومَا زاد الطين بلة مباشرتهُ تعذيب "هون" باستخدام تِلك الأداة الغَريبة فور سمَاعه لردّي؛ فَتارة يُولِجُ نهاية العصا في صُلبهَا، وتَارة يتعمَّدُ تحريكها في الاتجاهات الأربعة حتَّى يزيد من مسَاحات الضّرر. كَانت حَواف الأسلاك المعدنيّة بَارزة بحدّة لدَرجة تمكّنتْ فيهَا من ثَقب البَدن وتمزيق الجلد، كانت صَيحات "هون" المُستغيثة ضَعيفة تكَاد تَنقطع؛ فمَا لَحقها اللّيلة من اغتصَاب وتَعذيب تَأبى النّفوسُ استحضَاره حتَّى على شَكل كَوابيس.

استمرَّ مُسلسلُ الألم والصّياح لدقائقَ شَخصَ فيهَا الحَاضرون بأبصَارهم مُنتظرين بُلوغ رفيقتي عُنقَ الممَات بعدَ أن ضَاق صَدرهَا وتراجع تدفُقُ الهواء إلى صُلبهَا؛ بَرزت خُيوط رَفيعة من الدّماء على بَياض عينيهَا اللّتين أخذتَا تزيغان يمينًا وشمالًا بحثًّا

عن الخَلاص، فَجأة.. تهاوى سَاعداها وارتطَمَا بالأرض، تدلَّى رأسُهَا وتمايل بدنُهَا ثُمَّ وقَع، اقتربتُ منهَا لأتوقّعَ ما حَصل فأحسَستُ بلسعَة حَارقة تَلدغني وتُفرغُ في وريدي سَائلًا ليسَ بمصْل، بل مُخدّرًا مجهولًا انسابَ في نهر دِمائي، أزاح الخوفَ من قَلبي وأعَاد لي كِبريائي، كان "المينوتور" من وخَز رقبتي بتلك الحُقنة سَريعة المفعول، وما إن ظَهرت آثارُهَا على نَفسيتي وتجلى التّمرُدُ على شَخصيتي حتَّى عزفَ "قرن الخطيئة" عن تَعذيب الضحيّة، والتفتَ إليَّ واضعًا المشرطَ على رَقبتي مُسترسلًا يقول:

((لقَد تغيّرتْ المـُعادلة عَزيزتي.. ستَقتُلين هذه الدَّجاجة اليابانيّة بيديك هَاتين.. وإلّا فَصلتُ رأسكِ وعلّقتهُ ليُؤنسَ رأس العنزة مُنتصَف القَاعة)).

كَانت كَلماتهُ واثقة ضَاربة اللّهجة، التفتُّ حَولي مُتفحّصة نَظرات الشَيطانيين وهم ينتظرُون دَوري، يَبدو أنَّ المـُخدر قد غَالَى في العَمل؛ خُصوصًا أنَّ تَفكيري قد تغيّر من السيّئ إلى الأسوأ، لقد مَللت المكُوث بين جُثث الموتى وأشلاء الضَّحايا، بين دِماء القرابين المـُتجمّعة في الزوايا، أطلتُ النّظرَ في السّكين المـُسنّنِ المـُلقَى على الأرض فتَراءى لي وكأنه يخاطبني ويحُثّني على استخدَامه... هل وطأني الجنُون أم أدركني الغَضب ! هل أفعل

الصّواب أم أفتعلُ الخطأ؟ لا يهم!.. سأفعل ما يريحني ويريحُ هذه الطفلة.. لا وُجود للأصدقَاء الآن أو الرِّفقة!.. فَلترقدي في سلام يا "هون"... فَلترقدي في سلام...

تَناولتُ السكين بِيدي اليُمنَى ثُمَّ وضعتُ فوق قَبضته يَدي الأخرى، ارتعشتُ قليلًا عند البدء، لكنّ المـُخدّر قد تدخّلَ وكَبح عنّي شُعور الخوف، اقتربتُ من اليابانيّة "هون اوك" كَعفريتة لا إنسيّة، دنوتُ منهَا أكثَر حتَّى تداخلَ عطرُهَا الطبيعيّ النقيّ إلى حُجرتي أنفي،لم يَكن مُستخلصُ عرقهَا خَبيثًا كَرائحة الدّماء فَقد حَمل عبيرهُ روائح الزهر الذي يُفتحُ على أبوابِ المسَاء.

"هون"!.. على قَدر حُبي لشخصكِ.. هَا أنا الآن قد بَلغتُ كُرهكِ، أنتِ السبَب في كل ما حَصل لكلينَا، أنتِ الفرد الوَحيد الذي ألحَّ علينَا الخوض في مغامرة الكشفِ عن سرّ قسم Savage » « babies.. لولَا فضولكِ الصّبياني واقتراحُك الغبيّ لما حوّلتنَا السيّدة "ماما" إلى هذا الجَّحيم المنسيّ.

كَانت مفَاجأة حقيقية أضمَرَتْ وجُوه الحاضرين، حِين بدّلتُ ملامحي وهَزمْتُ مَلاكي؛ فعينيّ تحترقان غضبًا وتشعّان لؤمًا، ووجهي يلفظُ شررًا من نار جهنّم. لم أصب بمرضٍ عَقليّ ولم أتعرّض إلى أذى روحيّ؛ إنمَا هو القرين قد اتخذني وسيلة لطرحِ

ما حَمله جوفي من شر إنساني مَكنون، ودوافع للقتل وللانتقام عُزفَتْ عن التَّحرُّر سلفًا بعد أن قُيّدتْ برباط الدّين منذ سنون.. ها أنَا الآن حُرّة أفعل ما أشاء، سَأسفك الدّم وأغازل النّساء، سأنتمي اليوم إلى هذه الطَائفة من البُؤسَاء..

كنتُ أعلم أنّي أكذب على نفسي أثناء اختلاَئي معهَا، ولكن هَيهات... فلا أملَ في النجاة من هذا الموقف سِوى بممَالأة العدّو والتّخلص من المشَاعر الحقيرة التي لن تجلبَ لي سِوى ضُعف القَرار وقلّة الحيلة. حَدّقتُ في عيني الكَاهن الأعَلى بِنظرات غَاضبة حَزينة، ثم سَألتهُ قائلة:

((أمِنَ الضروري إصابتُهَا بين القَلب والكَبد))

أجابني بسُرعة، ووجهه الكئيبُ قد رُسمتْ عليه السّعادة لأوّل مرة...

((أكاد لا أصدّق.. هل رضختِ أخيرًا لرغبة الشيطان؟))

أجَابني بسؤال مُبتذل، فاكتفيتُ بالصّمت، ولكنّي لم أزح عينيّ الغاضبتين عنه، أمَّا "الماجا زونَا" فحالتْ بيننَا قائلة:

((لم ترضخ بإرادتهَا أيّهَا الكاهن.. بل رضختْ بإرادة "الملك الساقط من السّماء"))

طبعتْ قُبلة حارّة ما بين خدّي ورقبتي، ثم واصلتْ حديثهَا قائلة:

((عزيزتي.. ما الغاية من التضحيّة إن لم نحفظْ القَلب والكَبد من جوف الجُثث!.. فهَذين العُضوين همَا رمز الطَّاقة وطول العمر.. يضُخان القوّة والشجاعة في الأنفس منذ الحياة حتَّى بلوغ القَبر))

لا أُنْكر أنَّ رباطة جَأشي كَادت تُفكّ؛ فبمجرّد سماعي ردهَا وفهمي المقصود حتَّى عَاد صِراعي مع نفسي إلى الوجُود، ولكنّي أيقنتُ أنْ لا رُجعة في الأمر ما دُمتُ قد استرسلتُ فيه للتّو. جمعتُ الهواء في رئتيّ.. رسمت ابتسَامة خبيثة مزعُومة، ثم زفرتهُ دُفعة واحدة مع تنهيدة قويّة أزاحتْ عنّي مشاعر الخوف العَائدة.

***

*"مع تقدّمِي في العلاج ظَهرَت أعراض الدّوار على الطفلة، فارتَخَت عضلاتُهَا وامتَنَعت عن المُواصلة. لابُدّ من إنهاء سلسلة الجلسات العلاجيّة".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل التَّاسع: "حامل النور" أحرقَ نفسه!

## الجلسة العلاجيّة الثامنة: الخميس ٠٢ فبراير ٢٠١٧

رُغم حَجم السّكين الصّغير ووزنه الخَفيف، إلاَّ أنَّ رَفعه بثَبات قَد استعصَى عليّ وسَط عَاصفة من الخوف والتّردد، فكَّرت مليًّا للحظَات.. دَاعبتُ وجه "هون" بأنَاملي، ثمَّ صِحتُ فيهَا والدّموع تنزفُ من عينيّ...

((لستُ مُتأسفة على حَالك.. سأخلّصك الآن من جَسدك الهالك))

غَشِيَتْ صَيحتِي بَواطِنَ القُلُوبِ وفَضَاء المَذبَح، وَغَمرَتْ صَوت تمزُّق الجِلدِ وتَفتُّق اللَّحم؛ فَلمْ أشْعُر سِوَى بعَضَلاتِ بَطنِهَا تَتَقَلّصُ مِن حَرَارَة الطَّعْنَة وتَتَمَدَّدُ مِنْ مَخَاض الألم. شَخَصَتْ بِبَصَرهَا صَوْبِي قَبْلَ أن تَصرفَ الطَّرفَ عَنِّي، رَفعَت يدهَا اليُمنى وحَاولت لمسَ وجْهي كَفرصة أخيرة لتَوديعي، كَانت تَعلم أنَّ ما أقدَمتُ عَليه هو الحلّ الأمثل لبُلوغهَا الرّاحة بَعد انقطَاع الأمَل، لكنّهَا جَهلت بأنّي الآن رَاهبة "حامل النور".. الشيطان "لوسيفر" التجسيد الحقيقي للقتل..

تَأمّلتُ جَفنَيْهَا كَيْفَ أَخَذَا فِي الارْتِخَاءِ بَعْدَ أَنْ فُتِحَا بغْتَة قَبْلَ لحَظَات، تَأثَّرْتُ بِارْتِعَاشِ شَفتَيهَا وهُمَا تَلْفظَان دِمَاءً ضَخَّهَا القَلْبُ لَحْظَة الاحْتِضَار، سَحَبْتُ رُوحَ السِّكينَ مِنْ صُلبهَا؛ فَسحِبَ مَعَهُ نَسِيجًا دَاكِنًا مِنْ سَوائلَ حَمْرَاء. ارْتَعَشَ جَسَدُهَا الهَزيلُ هُنَيهَة ثُمَّ اسْتَقَامَ مُتَصَلِّبًا تَحْتَ تَرنِيمِ الشَّخِير وسَكَرَات المَوْت بَعد أن أخذَ الوَهن يُلاطفهَا واسترسَل أجلهَا يُغازلهَا حتَّى ارتخت مَفاصِلهَا واستسلمَت رُوحها لبارئهَا، مُودِّعة ظُلمَ هذا العالَم في مَرقد الشياطين ومَخدع الجمَاجم.

لقَد رحَلت "هون اوك".. غَادرت الحياة وترَكتني وَحيدة أجابه الموتَ بالموتِ، لم أشعر بالرَّاحة بعد قتلهَا كَما جَاء في النُّصوص المـُقدَّسة لهذه الطّائفة، لم أرضَ على ما اقترفَته يديّ منذ غَرسي السكّين مُنتصف صَدرها. أنا الآن مُجرمة صغيرة قَتلت رفيقتهَا، أنا مُجرّدُ طفلة حَمقاء فَقدت كَرامتهَا ثم إنسانيّتهَا.

كَانت ملامحُ القوّة والغضبِ تظهر نُصب عينيّ، أمَّا مشاعِر الخوف والشجَنِ فسكَنَتْ مُقلَتيّ؛ مَشاعرٌ أثارتهَا نظرات "هون" نَحوي وهي تلفظُ أنفاسهَا الآجلة.. من يعلم ! ربما ستنقلبُ هذه اليابانيّة القويّة من رَفيقة دربي، إلى بُعبُعٍ قبيح يزورني في كَوابيسي ليزيد من كَربي.

ما إن تَجمّدت الدّماء في عروقهَا وانسلخَت روحها عن جَسدهَا، حتَّى بَاشر "المينوتور" في سَكب الماء على دِمائهَا المُتكبِّدة لشَفطهَا إلى أعمَاق بالُوعَة المذبَح. أزالَ عنها جُثة العنزَة التي أرهَقتهَا، ثم استخدَم قَبضتيه القويتيّن لرفعهَا وتعليقهَا على صَليب خَشبيّ مَقلوب جهّزه الكَاهن الأعلى لحظَة احتضَارهَا. كَانت سَاقاهَا مُثبّتتان بإحكَام أعلى العَمود بواسطَة حِبال مَتينة؛ أمَّا ذراعاهَا فلامستا بلاطات المذبح لحظَة تهاوي رأسِها بينهمَا.

اقتربَ الكَاهن الأعلى من جُثّتهَا المـعلّقة مُتفحّصًا وريد رقبتهَا إن كَان ينبضُ بالحياة، ثم بَاشر في إتمام مَراسيم تَنصيبي كَراهبة؛ أخذَ نفس السّكين الذي أغرَقَهَا في الدِّمَاء واستخدمهُ في بَقر بَطنهَا واستخرَاج أحشَائهَا، لا أُنكِر إفراغِي ما حملتُه بجَوفِي من أثر الغَثيان؛ فرغم ارتكابي لجريمة قَتل في حق طِفلة من ربيع عُمري إلَّا أني لم أقوَ على مُواجهة مَشهد بُروز أمعائهَا وسُقوطهم في جَوف كيس بَلاستيكي أسود.. كيف لهذا الكَاهن أن يُقدم على هذا الأمر دون تَأثر منه بتَشريح الجُثّة ولا اشمئزاز يظهر عليه من فَرط رَوائح الفضلات والسَّوائل اللّزجة للأمعاء!

كَانت هذه أوّل مرة أرى فيهَا جَسد إنسَان يُشرّح أمام عينيّ، وأي إنسَان! رفيقة تَجَرَّعَت وإيَّاي المـَغصَ وكابدَتْ معي النّكَدَ والأسَى.. تَجربة قاسيّة كهذه جَعلتني أعي سبَب تجهُّم وجوه

الشَيطانيين، وأدركَ مَصدر قوّتهم وصَلابة مواقفهم عند مُواجهة العَذاب أو الموت. انتهت مُهمة "قرن الخطيئة" بعد وُصوله للقَلب والكَبد؛ حَيث استخرجَهمَا بعناية ووضَعهمَا داخل مرطَبان كبير يحمِل محلولًا شفافًا ليحفظهمَا من التَّلف.

((أراك مُشمئزّة في أوّل تجربة تَخوضينهَا دَاخل مَعبد الشيطَان!.. لا عَليك.. فالقَلب والكَبد يُقدّمان فَقط لزُعماء الطَّائفة من رُتب "الكهنة" و"الماجوس".. أمَّا أنتِ وباقي البنات فستَشربن الدّماء الدّافئة.. عَليكنَّ التّعودُ على تَذوقهَا فترة مُكوثكن هنَا))

لم أعد أكترثُ لشربي الدّماء من عدمهَا؛ فمنزلتي كَطفلة بريئة قد انمَحَقَتْ لحظة إزهاقي رُوح اليابانيّة.. أنا المُجرمة الشيطانيّة "سوزان".. أنا رَاهبة "لوسيفر" اليوم.. غدًا.. والآن.

تَقدّمت "الماجا زونَا" أمَام الجُثّة الآدميّة المُعلّقة؛ واختَارت أن تُحدث ثقبًا غَائرًا في رقبتهَا على أن تجرح ذِراعيهَا، تفنّنت بَعدهَا في ملء كُؤوس فضيّة بعصَارة من الدّماء، ثمَّ وزّعتهَا علينَا ونصحتنَا بتَخَطِّي استخدَام ألسنتنَا لتذوقهَا حتَّى لا نشعرَ بالغثيان. كَانت كُل فتاة تنظُر إلى مُرافقتهَا نظرة تطفليّة خَوفًا من خَوض غِمار هذه التَّجربة الآبِدَة، فكّرتُ لبرهة من الوقت ثمَّ تيقنّتُ أنْ لا جَدوى من انتظارهنّ لاحتسَاء العُصارة؛ فأزمعتُ

شخصيًّا على الشّربِ أوّلًا متَظاهرة بقُوَّة تُخفِي وراءَهَا جُبنًا ونَذَالة.

أدركت نَسمَات الهواء قطَرَاتِ الدّماء فرَضخَ نَسيجُهَا للتَّصلَّب آخذا شَكل الكأس الفضيّ الذي سُكِبَ في جوفه. كَتَمتُ أنفاسي بعَضَ الوَقت ثم سَحبتُ قدرًا جامدًا منه حتّى بلغ بُلعومي، ولكنّي لم أقوَ على تمريره في شَكله المُتراكم؛ لذا وَظَّفتُ أسنَاني ولسَاني لتميّيعه، فاستشعَرتُ طعمًا معدنيًا حارقًا لم يَكن كَلعق الجُرح باللّعاب؛ بَل كان كتَمرير اللّسان على أحد قُطبي بطّارية لشَحن الألعاب.. ابتلعتهُ مُرغَمَة ثم واظبتُ على كَتم أنفَاسي حتَّى لا يمتزج الهواء المُستنشق بتَرَسّبات الدّماء العَالقة بين أسنَاني لئلّا أشعرَ بالغثيان.

مَا أن فرغتُ من الأمر بنجَاح حتَّى انهمرتْ دمُوعي دون استئذان؛ وكَأن قلبي يُؤنبني على فعلتي، وعقلي يَزيد من همّتي... لقَد كُنتُ مُتيّقنة من أنَّ هذه بوادر أوّل اضطراب نَفسي يُزعزعني بَعيدًا عن أمّي.. فسُلوكي بَات متناقضًا مع تَفكيري.. أمَّا هذا الجسَد الصّغير الذي مَنحني إياه الإله فقَد يُعلنُ قريبًا خُرُوجه عن السيّطرَة!

أنهت الفَتيات شُرب الدّماء بمَشَقَة؛ فمنهنَّ من صَمدنَ إلى آخر رَمق، ومِنهنَّ من عَجزن عن ذلك وعزفنَّ عن الشُّرب أو ألقينَ ما حملته بطونهنَّ من غذاء؛ فتمَّ طردُهنَّ ولم يبقَ منهنَّ سوى طِفلتين.

اتجه الكَاهن الأعلى صَوب الصندوق الحديدي وأخرجَ من صُلبه قَصبتان خَشبيتان مُجوفتَان تنتهي كُل واحدة منهمَا بسكين مُنحني لولبيّ يضمن مرور الدّماء، ثم نَاولهمَا للفتَاتين وطَلب منهمَا فَتقَ مَناطق تجمّعُ الدّماء قَبلَ أن تَجفَّ، واستخرَاج كَمية كافيّة لإشبَاع جُوع ضيفي المعبَد.

انشغلتُ قليلًا بالتّفكير في طبيعة وهيئة هذين الضَيفين الغَامضين اللّذين تحدّثَ عنهُمَا "قرن الخطيئة"، إلى أن دخل بهو المذبح شَابتان طَويلتان كأرواح اللَّيل تَحملان بين ذِراعيهمَا رَضيعين جَميلين عَاريين في أشهرهمَا الأولى يظهرُ على وجهيهمَا البُؤس والشّقاء؛ كانتَا تعلمَان جيّدَا طبيعة أدوارهمَا فقَد قرّبتا الرضيعين من جُثة "هون اوك"، ثمَّ انتظرتَا الطفلتين الرَّاهبتين لتقومَا بمهمتهمَا؛ فما كَان منهمَا سوى غَرز السكينين اللّولبيّين أعلى منطقة الصَّدر وانتظار انسيَاب الدّماء عبر تَجويفيّ القصبتيّن؛ لتُبادر الشّابتان بتَجهيز زُجاجتين نصفهمَا يحوي قدرًا من الحَليب الدَّافئ الذي تَصاعد بُخاره إلى حُجرتي

أنفيهمَا بمجَرَّدِ إزالةِ الغِطاءينِ عَنهمَا، ثم انتظرتَا زَحفَ الدّماء إلى أسفَل القصبتين لتَنزلَ القطرات إلى جَوف الزجَاجتين؛ فتَتجلى خُيوط حَمراء رَفيعة أعلى مَحلول الحليب راسمةً على سَطحِه لوحة فنيّة ظَهرَت كَبَدنٍ تَتَخَلَّلُهُ عروقٌ آدميّة.

اكتفت الشَابتان بقدر قَليل من الدّماء قَبل تَخثرهَا في الجسَد، ثمَّ أغلقتَا الزجَاجتين وداومتَا على خَفقهمَا حتّى امتزاج السّائلين، ثم قدّمتَاهمَا للطفلتين الرَّاهبتين اللّتين لم تتردّدَا في إرواء الرضيعيّن الذّكرين اللذّين لم يَكونَا سِوى توأمُ الكَاهن الأعلى "قرن الخطيئة"

لم يَتقبّلَا بَادئ الأمر خَليط الحليب والدّماء؛ ولكنَّ عصَافيرَ البَطنِ دفعتهمَا إلى مُحَاولة الارتواء، ومعَ السَّحبِ الأوَّل للمحلُول، وقَبلَ وصُول خَليطِه إلى الأمعَاء عَبرَ البُلعُوم.. صَدعَ صَوتُ قَعقعة من خَارج القَاعة!.. تَلاه تَصاعدٌ لصَيحاتٌ عَظيمة وهُتافات عنصريّة تهدد بتَصفيّة كل نفس تتراقصُ روحهَا بين جُدران المعبد. أعَاد "المينوتور" جَمعَ شَعره الطَّويل ثمَّ لفّهُ أعلى رأسه وأمسَك بقَبضة يد "الماجا" لينفذَا معًا خَارج هذا المكَان الأظلَم رفقة الرضيعين، كانَا قَد استغلّا فتحة القَبو التي تُؤدي إلى الخارج ليفرَّا عَبرهَا مُردِّدَانِ عِبَاراتٍ تُذكِّرُ "قرن الخطيئة" بدوره المـَنُوط في حِماية المكان بصِفته "كَاهنًا أعلى".

نَوبة من الجنون أصَابت مَعشر "الشيطانيين" بعدَ أن حثَّهم شُعور الخوف إلى إجلاَء المكَان، بعَضهم تَدافع ليصل إلى بوَّابة القَاعة، والبعضُ الآخر سَلك طَريق القَبو على خُطى "الماجا زونا" وسَاحر الطَّائفة؛ ولكنَّ فَزعهم وتراصّهم دَفعهم إلى الانزلاق فَوق الدّماء المـُتجمعة على بلاطات المذبَح ليقعَ الجمِيع فوقَ بَعض عُراة حُفاة كَجنود الشطرنج..

ظنَنتُ لوهلة أنَّ الأمن البَرازيلي قد تَدخّل لينقذنَا من خَطر أتبَاع "لوسيفر"، ولكنّ تخمِيني كان خاطئًا كسَابقه؛ فقد اعترضَ طَريق "الشيطانيين" رجَال أقويّاء يرتَدون مَلابسَ جِلديّة سَوداء أظهرتهمُ كأفرَاد "الياكوزا" المـُتعطّشين للدّمَاء. لم تقوَ ساقيّ على رَفعي للهرُوب من هذا المأزق، وكذلك الرَّاهبتان اللّتان تَقفان خلفي؛ فاكتفينَا بالجلوس ومُراقبة ما سَتسفرُ عنه هذه المواجَهة.

تَدافع الفَريقان وتَداخلَ بَعضهما في بَعض كَلاعبي "الرُغبي"، وبعد تَلاحم قَويّ دام بضع دقائق تَبادل فيها الطَرفان اللّكمات والضَّربات مُستخدمين أدوات حادّة كالسّكاكين والبراغي فرّ أتبَاع "الماجا" من هذه المواجَهة الدّاميّة؛ ولكنّ أولئك الرّجال الأقوياء استَطاعوا اللّحاق بهم وأغلقُوا عَليهم منَافِذَ النجاة. أراد الكَاهن الأعلى إبدَاء نَوع من الشجاعة أمام أتباعه بَعد أن تمَت محاصرتهُ،

فصَدَحَ بصَوت مُبتذلٍ وكأنه يؤدّي دَور القائد البَطل الذي يَرتدي ثوب الضحيّة...

((كان من الواجِب التحَامكم معنَا لا أذيّتكُم لنَا.. تَهرّبكم من اتخاذ البشر كَقرابين يُشككُ في ولائكمْ لهذه الطَّائفة...))

ما كَاد يُنهي كلامه حتَّى رد عليه رجلٌ يبدو في الأربعين من العُمر سَفَرَ من خلف الصُّفوف، كان خَفيفَ السُمرة طويل القَامة وكَثيف الشعر، يَرتدي سِروال جينز أزرق اللّون قد تَرَهلَّ نَسيجُه من الغَسيل، ومعطفًا طَويلًا قاتم السّواد، أزراره العلويّة قد وقعت من مَواضعهَا بعد الاشتباكات:

((أنتم لا تُمثّلون كَنيسة الشّيطان الأم.. أغلبُ تَعاليمكم وثنيّة تَعتمدُ في صُلبهَا على قَتل البَشر رجالًا كَانوا أم نساءً... كُنتم تَستطيعون التَّعايش مع المجتمع دون التّخفي إن اتخذتم من الحيوانات مَلاذًا تتقربون منه إلى الشيطان بَدل البشر.. لكنكُم ضيّعتم الفُرصة وفضلًا على هذا تَنسبون طَائفتكم الهمجيّة لكنيستنَا الأم التي لا تَحمل في صُفوفهَا سوى الشخصيّات المثقَّفة.. من سياسيين.. فنّانين.. ورجال أعمال.. لا خِريجي سُجون.. سفَّاحين وقتلة وأنذَال)).

مرّرَ يَدهُ على ذقنه المحلوقَة مُزيلًا بعض الدّماء المـُنسابة من بَاطن فمه، ثمَّ استرسَل قائلًا:

((تَدّعون أن الدّماء البشريّة تزيدكم قوّة وصَلابة!.. ها أنَا ذا لم أتلذذ في حَياتي سِوى بدمَاء القِطط.. الكِلاب والطيّور الجَارحة.. ولا أزال صَامدًا هنَا رغم تَعرّضي لضربة بالرنق كَادت تخطف أسنَاني السُفليّة وتُغرقني في دِمائي.. أما رجَالك الذين نَمَتْ أجسَادهم بالتّغذي على دِماء الأبرياء.. فقد سَقطوا كالذُّباب بعد أن خَانتهم قِواهم))

***

أنهى حِوارا شديد اللّهجة مُطلقًا زفرات طويلة تُظهرُ معاناة جَسده الهزيل من هذا العِراك. يَبدو أنّه قَائد هذه المجمُوعة المـُتفرّعة من كَنيسة الشَيطان الأصليّة، المـُنبثقة من رُوح الأقرع "انطون ليفي"..

أطلقَ السُّكون رصَاصات الصّمت على القَاعة؛ فاستغَل الفَريقان إنهاكَهما لاسترجَاع الأنفاس.. هذا يلعقُ جِراحه الدَّامية باللّعاب، والآخر يلُفّهَا بقِطع القماش المتنَاثرة على الأرضيّة.

بينمَا الأربعيني و"قرن الخطيئة" يَتبادلان النَّظرات بعمقٍ وضَغينة لفَتَ انتبَاهي أمرٌ غريب زَاد من شكوكي حَول هويّة الطائفتين المتصَارعتين؛ لقَد انتبهتُ أنَّ الجميعَ هنا يتَحدّثون اللّغة الانجليزيّة، فَضلًا عن كون مَلامح وجُوههم أجنبيّة ولا تبدو لاتينيّة.

بينمَا أقفُ كالعَادة أحلِّلُ وأنَاقش الوضع في داخلي مُحاولة إرواء فضولي الزائد قَطع الرَّجل الأربعيني حَبل الصَّمت برفعه يده الشمَال إلى أعلى ضاغطًا بقبضته أمَام تابعيه وكأنه يأمرهم بتَدمير المكان ودَكِّ جُدرانه. تَبدّلتْ ملامحُ "قرن الخطيئة" لحظة إدراكِه خُطورة الموقف وأدَار ظَهره لمناصِريه وأخذَ يَرْملُ مُحاولًا اختراَق الجدار البَشري الذي يقف أمام بَاب المذبح المؤدي إلى القَبو، لكنّ ضَربة قويّة بسِلسلة معدنيّة كان يخفيهَا ذاك الأربعيني بين مَلابسه أذابتْ لحم وَجهه الخبيث؛ فازداد قُبحًا بعد أن اغرَورق في دِمائه الدَّاكنة التي حَجبَتْ حُدُد رأسِه؛ فلم يَظهر مِنه سوَى بيَاضُ عينَيه وَسطَ بَحرٍ أحمر قانٍ مائِلٍ إلى الظُّلمة والسَّواد.

زَرع "الكاهن الأعلى" بأنِينه الخوفَ والرَّهبة في قُلوب الشّلّة التي بقيت تُقاوم من "الشيطانيين"؛ فتَجرّدوا من أسلحَتهم وألقوهَا على الأرضية الإسمنتية، أسلحَة كان من بينهَا مُسدسات

آلية امتنعوا عن استخدامهَا حتَّى لا يلفتوا انتبَاه الشرطة؛ أمَّا رجال "الأربعيني" فلم يكتَفوا بهذا القدر بل تعدّوه إلى إحرَاق المكَان عن بكره أبيه بإشعَالهم القشّ والسَّتائر الشيطانيّة الحمراء مُغلقين مَنافذ الخروج على أتباع "الماجا زونَا" بما فِيهم أنا والراهبتين..

أخذَ قلبي ينقَبض من شَهيق التَّوتّر وزَفير القلق، أخذتْ النَّار تزحف مَعه مُضيّقة علينَا الخناق. تَجاهل "الكاهن الأعلى" ألسنة اللَّهب وحَاول اختراقَها لعبور المنفذ الوحيد المتبقِّي للنجَاة.. "قبو المذبح".. ولكِن قُلنسوّته الطويلة خَانته في آخر لحظة بعد أن احتضنت طَفلَ نارٍ ونَشرت شَرارات الموت على ردائه الطويل النَّاعم لتُحوّله إلى أشلاء رثّة مُتطايرة التصَقت أجزاؤهَا على لحمِه الموشُوم؛ تآكل أمَام نواظرنَا بعد أن تحوّل إلى كرة ناريّة مُبهرجة الألوان اشتعل فَتيلهَا للحَظات قَبل أن تَضمُرَ وتُخلّفَ من ورائها جَسدًا محروقًا ساقاه مُترهّلتان كعودي ثقاب..

ثبّتنَا المشهد المهول في أمَاكننا كالمسَامير الصَّدئة التي أبتْ الرضوخ لقَبضة النّجار والخروج من صُلب خَشب الأشجار، كَانت رَائحَة اللّحم المشويّ تملأ فضَاء القاعة، وصَوت الخشَب المُحترق تَرسم مَشهدَ احتضَاني لمدفأة الموقِد أواخر شتَاء يناير الماضي.

عَانقت النيران رقابنا وبلغ الدّخان حُجراتِ أنوفنَا؛ فامتزجَت أنفاسُنا بالسّموم القَاتلة. قَادتنا غَريزتنا في الحياة إلى الوُقوف لمجابهة اللّهب علّنَا نَنجو بجلودنَا، ولكنّ ثُلة من "الشيطانيين" سَبقونَا في هذا؛ بل وزادوا الطّين بله حِين فَشلوا في العبور تَاركينَ أجسَادهم ككتل ناريّة متَحرّكة حرَّضتْ ألسنة اللّهب على حِصارنَا؛ أذكر كَيف قَفزت شابة من «The Red Headed[1]» بين النيران فأفلَحتْ في العُبور، ولكنّ الجزء السفليّ من جسدهَا وَقعَ فريسة لنيرانِ اللّهب، فلم تجد من سَبيل لإخماده سوى العودة إلى شلّتهَا من "الشيطانيين" واحتضَان أحَدهم وكأنهَا تسألهُ الإغاثة؛ فَركبتْ أمواج النّيران صَدره وبَلغت رأسَه وشَعره، فانطلقَا يقفزان ويَدوران في مُحيط القاعة والدُّخانُ يَنفُرُ من جَسديهمَا ليظهرَا كشمعتين أطفأتهُمَا زَفرَات إنسان. واصلَا التَّعَثُّرَ والتَّخَبُطَ حتَّى خَارت قواهمَا واستسلمَا لموتهمَا حرقًا.

كَانت مجموعة الكَنيسة الأم تُراقب بقُلوب بَاردة فضَاء المَحرقَة، وبَعد أن تأكّدوا من نَجاح المهمّة بادروا بالانصرَاف تجنّبًا للاحتكَاك بأفراد الشرطة البرازيليّة، في تِلك اللّحظة أحسَست بشعور أمرّ من الموت يشدُّ على قَلبي. لقد كُنت خَائفة

[1] أفراد يتميّزون بشعرهم الأحمر المائل للبرتقالي، وببشرتهم النَّاعمة شديدة البياض.

من تذوّق ألم الموت حرقًا لدرجة أزلتُ فيها كَمامة من قُماش ردَائي كُنت قد وضَعتها على أنفي لأستنشِق الدّخان المسمُوم وأموت غَائبة عن الوعيّ قبل أن تَتمكن منّي ألسنة اللّهب وتلفحَ جلدي.

اجتمعتُ مع الرَّاهبتين واحتضنَا بعضنَا منتظرين دَورنَا، تلونَا مَا حَفِظنَا من صلوات "لوسيفر" فلم تستُرنَا.. زَحفتْ النِّيران إلى الصَّليب المقلوب وبدأت تَنخَرهُ، كان رأسُ "هون" يَحترقُ أمام ناظرنا؛ أمَا جُثّتهَا المـُشرّحة فأخذَت تنفثُ نيرانًا سَوداء مُعتمّة مُعلنة عن تفحّمهَا واكتفاء ألسنة اللّهب من أكلهَا. باتَت الرؤية صَعبة في ظل لفحَات النَّار واحتدَام الحرارة؛ بينمَا أرمي ببَصري صَوب بَاب القاعة لمحتْ صُدفة ظلَّ رجُلٍ غَريب يقتحِم المكان ببسَالة ويتّجه إلينَا كالفهد الصّياد مُكافحًا فَحيح اللّهب بذراعيه، مُطأطئًا رأسه لئلَّا تُصيبه شَائبة.

نبضَ قَلبي بنوع من الحب والحياة بَعدمَا نجح الغَريب في الوصُول إلينَا، تفحّصَ عُنقيّ الراهبتين الصَّغيرتين ثم تركَهمَا بَعدَ إغمائهمَا، دَقَ عظَامي بعنَاقٍ طَويلٍ وانطلقَ يحمِلني عبر مَنفذ القَبو الذي لم يَنجح شَخص في عبوره بَعد وُقوع الحريق، رَدَمَت النِّيرَان مَسَار الطَّريق.. فلَم يَكُن أمَامه من حلٍ سوى بلُوغ هذا القَبو العَتيق، كُنت أحاول التّمعن في مَلامحه وهو يُؤدِّي دَور

البَطلِ الخارق؛ ولكنّي فشلتُ في كَشف سرّه بسبب خوذة صُلبة كان يَضعهَا احتماءً من لسَعات اللّهب.

تجاوزنَا باب القَبو سالميْن، ولم يلحقْ جَسدينَا سوى بعض الحرُوق الطفيفة والنّدوب الصغيرة؛ ولكن ما كَان ينتظرنَا أمام المنفذ الوَحيد المؤدي إلى الخَارج غير سَار بالمرّة؛ فالنّار قد أغلقتْ علينَا السَّبيل وأحالتْ بيننَا وبين النفاذ سَالميْن، كان موقفًا يتطلّب تَدخّل قَائد يزخرُ بالشجاعة والقدرة على إصدَار قرارات حَكيمة وسَريعة، فرئتيّ قد امتلأتَا بسُموم الدّخان ولم أقوَ حتَّى على رفع رأسِي من فرط الهذيَان.

وضعَني ذلك الغَريب على الأرض للحظَات، تفلَ في يَديه وفرك كفيّه في بعضِهمَا البَعض، ثمَّ رفع خُوذته الصَلبة قليلًا واستخرجَ من جيبه ضَمّادة طبيّة نسيجهَا مُشبع بمحلول غَريب وضعهُ على أنفه واستنشقَ بقوة ما تيسرَ له من الهواء، ثم حَملني مجددًا وأردف يقول:

((آسف!.. أنا مُضطر لدفعكِ إلى الخارج.. تيّقني أنّي سَأعود حتمًا لمقابلتكِ..))

لفَّ ذراعيه على جَسدي مثل ما تَفعله أصَلة الأمازون بصَيدِهَا، تراجع خُطوات إلى الخلف ثم اندفع إلى الأمَام يجري كَلاعب

"البولينغ".. بمجرد أن وصل إلى حَواف ألسنة اللّهب حتَّى استدار بجسمِه وقَذفني بقوة كَانت كَافية لتخليصِي من هَذا المأزق. أغمضتُ عيني وأنا اختَرق نيران جهنّم الحارقة والتي اكتفت بلسعي دون افتراسي أو أكل ملابسي. لم أشعر إلَّا وجسدي يتهاوى مُتدحرجًا بقوّة على التراب النَّاعم لأرض نهر "غواندو" الكَبير. ما إن استَكنتُ مَكاني وفتحتُ عينيّ حتَّى فوجئتُ بذلك الغَريب قد لحقني مُندفعًا ومُطلقًا صَرخات استغَاثة فزعًا من غَضب النّيران بعد أن أخذت تَأكل الجُزءَ الأيمن من ثيابه وتتَصاعد مُسرعة لتبلغَ وجههُ؛ الأمر الذي حثَّهُ على خَلع الخوذة التي كَادت أن تطبخ رأسه بَعدَ أن انقلبت إلى قِدرٍ حديديّ ما مَكنني من كَشف هويته أخيرًا!.. ولكن بَعد فوات الأوان...

لم يكن مُنقذي سوى الرجُل "الأربعيني" زَعيم المجموعة التي هَاجت على هذَا المكَان.. في هذه الأثناء سلّمتُ جسدي للصداع وأبيتُ المقَاومة ثانية؛ لتخُور قواي وتَسحَب معهَا وعيي وإدراكي.. غطسْتُ في عُمق الهذيان مُودّعة "الأربعيني" برسائل الصّمت والخذلان.

أبلجَ الصُبح أخيرًا بَعد ليلة حاميّة بلهيب النّيران.. سيّارات الشرطة تُطلقُ أبواقهَا في الفضاء جاذبة القِيل والقَال.. وشَاحنات الإطفاء توجّه خَراطيم المياه صَوب مخدع اللّهب، موجَات من

الضّحك الهستيري أخذت تستهلكُ ما تبقّى من طَاقتي خصوصًا بعد وقوعي في مُحيط نَبش رجَال الأمن الذين سَيتهافتون حتمًا لإنقاذي حال رؤيتي؛كُنتُ ممدودة على بَطني دون حراك أراقب تجَمّع المركبَات أمام المبنى المُشتعل مُنتظرة عينًا تقع عليّ أو حدسًا يقودهم إليّ؛ وعَلى عكس ما توقعت فقد كَان همّهم الوحيد إخماد ألسنة اللّهب قَبل أن تأخذ معهَا الأرواح والممتلكَات.. بل والأدلَّة الفَصل.

أخذَت الابتسَامة تَهجُرُ شفتيّ بعد عَجزي عن الصرّاخ أو لفت الانتباه، كومة من القُمامة كانت مُلقاة بمحاذاتي حَجبت جَسدي عن أعين المارّة ومَنعت رجَال الشرطة من تَحديد موقعي. شمسٌ صباحيّة باهِتة أطلّت من وراء مُزنٍ كَادَتْ أن تَبتَلِعَهَا؛أخذَتْ ألسِنَتُهَا الصّفراء تُلاطفُ بشرتي بحرارة لطِيفة ودَافئة.. إحسَاس غَريب مختلط المشَاعر دأب يرخي عضَلات جِسمي ويدعوني للسكينة والاطمئنان.. لقَد كَان إحساسًا قويًّا جعلني أستَجيب له دون أي تَفكير؛ فبسَطت ذراعيّ على مدّ بَصري، ثمَّ استكنت لنسَمات الهواء التي تَداخلت بين ردائي وجَسدي. بقيتُ على تلكَ الحال بُرهة من الوَقت آملة أن ينتَشلني عَابر سبيل أو رجل نَبيل؛ فرجال الأمن قَد أعمت النّيران أبصارهُم فتناسوا استقصَاء أرجَاء المكَان.

بينمَا أصَارع النّعاس لئلّا يأخذني في سُبات لن أستفيق منه ظَهر أمامي ظلٌّ غَريب لشخص مجهُول!.. حَاولت رَفع رأسي لتفقّد الأمر؛ ولكنَّ يديه القويتيّن أعادتاني لوضعيّتي الأولى بَعد أن نزلَّ عليّ بجسده الدّافئ مُلتَمسًا منّي الصّمت والهدوء؛ فحسبهُ ما هو إلا رَجل مأمور جاء لإنقاذي من رجال الشرطة كي لا يتم استجوَابي وإرسالي إلى أحد المؤسسَات المـُتخصصة في إعادة التربيّة. بعد أن يتأكدّوا من كوني راهبة جَديدة في كنيسة الشيطان المـُتمرّدة.

كَان كلامه سويًّا ومنطقيًّا، حَاولت الوثوق في شَخصه ولكنّي لم أقدر، فكّرتُ في الصّراخ والاستنجاد بالشرطة كخيط أخير للأمل؛ ولكنَ صَوتي قد بحَّ واستعصى عليّ النطق من أثر المـُخدر الذي أخَذته داخل قاعة الهيكل، فَضلًا عن هذا فالغَريب قد وضع شريطًا لاصقًا على فمي وحَرمني حتَّى من الهمهَمة، ثم سَحبني بهدوء من تلك المنطقة.. وبعد اختلافنَا عن أعين الشرطة قَام برفعي على ظَهره وشقَّ طريقه يحملني إلى َسيارة خضراء صغيرة تركنُ على حافة نهر "غواندو".

أخذتْ عينيّ تتلألآن بالدّموع المكبوتة التي شارفت على الجريَان، لاحظ ذلك الغريب الأمر فأرخى قَبضتيه من على جَسدي الصغير ثم واصَل سيره حتَّى بلغ تلك المركبة. تأكَّد من خلوّ

المكان من أي عَين مراقبة، ثمَّ دلف يحمِلني إلى مُنتصف السيّارة أين لاحظت تَواجد امرأة سمراء ذات شعر بنيّ مُموّجٍ تجلس خَلف لوح القيَادة، تبدو من ملامحهَا كإحدى بنَات المنطقة.

استغلّيتُ الفرصة واستدرتُ مُصوّبة نظري إلى الشَّخص الذي اختطفني أو بالأحرى البَطل الذي أنقذ حَياتي؛ ولكنّي لمَ أقوَ على التَّعرف عليه بعد أن أنزل قبعته الرياضيّة السَّوداء على رأسه وحَجب عنّي لمعانَ عينيه لتظهر فقَط لحيته السوداء والقرط الفضيّ المُعلّق على أذنه الشمال.

((هل أرسلتموه إلى العيادة الخاصة))

سأل ذلك الغريب المرأة التي تجلسُ أمامنا؛ لتجيبَهُ بلغة انجليزية ركيكة:

((بالطبع.. ولقد حَشونَا جُيوب الطاقم الطبّي بمبالغ ماليّة تَكفيهم لقَضاء عطلهم السنويّة في جزيرة "هاواي"))

ظَهرت عَلامات الرّضا على وجهه بعد أن رسمَ ابتسَامة واسعة رَفعتْ شاربيه الطَويلين وأبَانتْ غمّازة جَميلة على خدّه؛ أمَّا السَّمراء التي كانت تكلمه فاكتفت بالضغط على البنزين والانطلاق بنا صَوب وجهة مَجهولة.

***

*"أضحَت الجلساتُ العلاجيّة تُشكّلُ خطرًا على نَفسيّة الصّغيرة، سأوقِفُهَا بمُجرَّد وصولي إلى نُقطة مُهمة لازلتُ أبحثُ عَنهَا".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل العاشر: موعدٌ مع السَّاحر.

## الجلسة العلاجيّة التاسعة: الاثنين ٠٦ مارس ٢٠١٧

ضقتُ ذرعًا من عَمليات الاختطَاف التي وقعتُ ضحيّة لهَا هذه الفترة حتَّى من « Olive Oyl » زوجة « Popeye » لم تُخطف بالقَدر الذي لحقني في أقل من سَنة. أغمضتُ عينيّ وبتُ أسترجع ذكرياتي الجَميلة مع والدتي هروبًا من الوَاقع وتفاؤلًا بغد أفضَل؛ أخذت سِنَةٌ تغازلني بالتثاؤب حتَّى استسلمتُ لها ونمتُ مُلقية رأسي على كتف الغَريب الذي استكان لي وقلَّلَ من حركته كي لا يفسد عليَّ قيلولتي فَجسدي المـُرهق يحتاج إلى تَجديد الطَّاقة لمواصلة الدَرب، ولن يَكون هذا سِوى بإعطائِه حَقه من الرّاحة والنَّوم.

يَبدو أنَّ الطّريق التي قَطعناها طَويلة بحَق؛ فالغَفوة التي أخَذتني قَبل سَاعات مَكّنتني من تَجاوز ضَجر السّفر كمخطُوفة لا كحرّة، أفقتُ منتصَف النَّهار ولم أجِد اللَّاصق المـُثبت على فَمي؛ لأستَرسل مُباشرة في طَرح الأسئِلة التي بتُّ أنَاقشُها بيني وبين

نَفسي قَبل نَومي المُتأخر عَلى بُكرة الصبح. فَكرتُ قليلًا ثم قلت:

((أعلمُ سرّ العَلاقة المتَوتّرة بينكمْ أنتم كَنيسة الشيطَان الأم.. وبَين الأخرى المُتمرّدة التي تنسبُ نَفسها تَحت لوائكم كي تحظَى بالحمَاية القَانونيّة رُغم ارتكَابها جَرائم لا تُغتفر في حَق النَّفس الإنسَانية؛ ولكنْ مَا الغاية من الإبقَاء على حَياتي بعد أن أنقَذني زَعيمكم فَجر اللّيلة الماضِية؟))

وضعَ الغَريب قُبّعته على فَخذيهِ وأخذ يَتمعن في تَفاصيل وَجهي؛ فاستكنتُ بسُرعة لنظراته العَميقة وترقّبتُ ما سَيفعله الحين. لامَس رأسي بكفٍّ يَده وأجَابني قَائلًا:

((ذكيّة أنتِ لأنكِ تفطنتِ لهويّتنَا.. يَبدو أنَّك قد أيقنتِ أخيرًا بأنَّ الشَخص الذي حَوّلناه إلى العيادة الطبيّة الخاصة ما هو إلا قَائد مَجموعتنَا الصَّغيرة المُكلّفة بمرَاقبة تَحركات أفرَاد الكَنيسة المُتمردّة.. صَدّقيني!.. أنا نَفسي لا زلتُ أجهَل سَبب إنقَاذه لشَخصِك؛ فَبعد إخمادنا النِّيران التي التهمتْ نِصفه أمرنَا بإنقاذك قَبل أن يَفقد وَعيه.. لَقد تلقّينَا اتصالًا سريًّا قبل قَليل من الطبيب المُشرف عليه.. أخبرنَا بأن حَالته الصحيّة مُستقرة حاليًا.. ولكنه سَيتماثل للشفَاء قريبًا.. حينهَا يمكنه إرواءُ فضولنَا جميعًا

بكشفه السّرّ الكَامن وَراء إنقاذ حَياتك؛ فلطَالما كَان سَاحر كنيستنَا رجلًا غامضًا يصعُبُ الاقتراب منه أو مصَاحبته.. ببسَاطة لأنه السيّد "بان".. "رجلٌ بلا ماضٍ"))

أنهى حَديثه مُشيرا بأصبِعه نحو عِمارة كَبيرة تَتوسّط حيّزًا سكنيًا لأحد الأحيَاء الفَقيرة؛ مُوضحًا بأنني سَأمكث هنَاك لعدَّة أسابيع حتَّى يتَماثل "بان" للشّفَاء ويعود ليفصِل في أمري، وأضَاف في محاولة لطَمأنتي بأنّي سَأحظى بعنَاية خَاصة من وجَبات أكلٍ مُحترمة، وألبسَة نَظيفة ولائقة؛ فَضلًا عن تخصيص طَبيب نفسي سيُكلَّفُ بمعالجتي طِيلة فترة مُكوثي هنا.

تَرجَّلنَا من السّيّارة قَاطعين مسَافات طَويلة سيرًا على الأقدام؛ كَانت أعين المارة تَتربّص بنَا لحظة ولوجنَا إلى مِنطقتهم الخَاصة.. منطقة شَهدتْ مِيلاد حيّ شعبيّ مُختلف البِنايات، تغزوه بيوتٌ قصديريّة أكَل الصدأ أبوابهَا، مُحيطه شَاسع وتَظهر على أرضيّتِه مسَاحات خَضراء وأخَرى جَرداء زالت أعشَابُهَا من أثر الإهمَال.. حيٌّ انشقَّ أبناؤهُ عن هَذه البلاد بعدَ معاناتهم الطّويلة مع الفَقر والبطَالة مُقابل عُزوف السّلطات عن النَظر إليهم؛ الأمر الذي جَعلهم يمقُتونَ تَواجد الغُرباء في منطقتهم.

لَقد كَان تَحليلي صَائبًا هذه المرّة؛فما كدنَا نَصل إلى بهو العِمارة حتَّى رشقنَا بعضُ الصّبية الذين كَانوا يتمرَّنون على كرة قَدم الشَّوارع بِوابل من الحجَارة.. لم تَكن نَواياهم إخَافتنَا أو إرهَابنَا؛ بل كَانوا يتعمَّدون إلحاق الضَّرر بأجسادنَا. هذا الوضعُ جعل السَّمراء سائقة السيَّارة تَدعونَا إلى الركضِ قَبل أن نتعرَّض للأذى؛ مُبرّرة بأنَّ غضب السّكَّان يُعزَى إلى زياراتهَا النَّادرة إلى هذا المكَان.. الأمر الذي جَعلَهم يجمعونَ على طَردهَا باعتبارهَا شَخصًا غريبًا.

دَخلنا العِمارة مُهرولين وكأنّنَا هَاربين من القَانون، رَفعني الشَّابّ صَاحب القُبعة الرياضيّة بيده ووضَعني على كَتفه، أمسَك بيد تلك السَّمراء وانطلقا مسرعينَ إلى الطابق الرابع غير آبهين بالبُصاق والشَتائم التي وَجّهها إليهمَا بعض الجيران. خِفتُ كثيرًا فأغلقْت عَينيّ منتظرة وصولنَا إلى الشقّة؛ ومَا أن بَلغنا بابهَا حتَّى تنفستُ الصُّعداء وأيقنتُ الحكمة من رَكن السيارة خَارج هذا المكَان؛ فلو استخدمَاها لدخُول المنطقة لحُطّمت بالحجَارة أو أحرقتْ على رؤوسنَا.

كَانت شقّة زَاحم الغُبار أثاثهَا العَتيق فلم يترك لنا من مُتنفّس لاستنشَاق الهواء النقيّ سوى نوافذ الغرف الصّغيرة؛ أما المرحَاض فكان في حَالة مُزرية وكأنَّ آخر من دَخله لم يُكلّف نَفسه عَناء

التَّنظيف.. فهذا بُراز مُتحجّر وهذه بَقايا وَاقيات ذَكريّة مُلقاة على حَوض الاستحمَام؛ فكأنَّها شقّة للدعَارة وليست للسَّكن أو الإيجَار..

استخدمَت الشابة السّمراء هاتفهَا الجوّال واستَدعت على جَناح السرعة سيّدة عَجوز تقطن في الشقّة المقابلة، نَاولتهَا ثلاثة آلاف ريـال برازيليّ «BRL» وأمرتهَا بتَنظيف المكَان جيّدًا والتَّكفّل بالطبخ؛ فَضلًا عن تَدبير أمور الشّقّة فَترة مُكوثي هنا؛ فرحّبت بالفكرة خُصوصًا وأنَّها قد تَعاملت مَعهم من قَبل وسبق لهَا تذوّق حَلاوة الأموَال.

استأذنتُ من تلك الشَابة السّمراء وسألتهَا عن اسمهَا بعد أن غَادر زميلهَا الشقّة؛ فدعتني لمناداتها بالآنسة "لوكا". اقتَادتني إلى غرفة صَغيرة تَحمل نافذة حَديديّة، وسريرًا مريحًا عَكفت تلك الخادمة على تنظيفه جيّدًا، ثمَّ قالت:

((بتٍّ اللّيل شاخصة العَينين.. حَاذقة خَائفة لم تَرخِ جَفنيك حتَّى.. إليك بالسرير.. خُذي قسطًا من الرّاحة ونامي بعد أن تَتناولي وجبة الغَداء التي تعدها الحين السيّدة العجوز))

استَجبتُ لأوامرهَا وشاركتهَا الطَّعام بعد استوَائه... مَرق بَطاطس بَيضاء وقطعٌ من عشّ الغرابْ مَع شَرائح مشويّة من لَحم البقر مُتبّلة ومُعالجة باللّيمون وبعض الأعشَاب المـُعطَّرة، كَانت وَجبة

منزليّة لذيذة أعَدّتهَا ربّة منزل مُمتازة؛ فَكلّ قَضمة تَقبَعُ بين طَواحني أتحَاشى تمريرهَا إلى مَعدتي حتَّى أتلذّذ مَذاقهَا الطبيعي بلسَاني مُتمنيّة أن لا تَنتهي.. أقف مُتسائلة في نَفسي لحظة انهمَاكي بالأكل؛ هل الطَّعام لذيذٌ وشهي؟ أم أنَّ تَعوّدي على تناول الوَجبات الرَّديئة الأسابيعَ الماضيّة جَعلني أشتَهي أي وَجبة عاديّة وأراهَا طيّبة!

أمضيتُ سِتّين يومًا في تِلك الشقّة الصغيرة؛ شعرتُ فيها بالانتمَاء لأوّل مرة مُنذ مفارقتي لوالدتي.. ستون يومًا أثبتت لي أيامها بأنَّ "لوكا" شَابة لطيفة بغضّ النَّظر عن الشعائر الشيطانيّة التي دأبت على مُمارستها فترة إقامتِها معي؛ فَقد وفت بوعدهَا وقدّمتني إلى الطبيب النَّفسي بغية العلاج وأخذ الدواء، هذا الأخير الذي لم يَتوانَ ولا لحظة في استقصَاء مَواطن الاضطراب النفسيّ إلَى أن تمكّن بجدَارة من تَشخيص بوادر الأزمَة التي أصَابت سُلوكي مؤخّرًا؛ بوادر "اعتلال الشخصيّة"التي تحدُّ من قُدرة المريض على التكيّف مع ضُغوطاته النفسيّة؛ خُصوصًا إذا ما كَانت مُستمرّة فيشهدُ مزاجُه تقلّبات مُفاجئة يترتبُ عنهَا خللٌ جليٌّ في التَّصرفات، بين برودة كَبيرة في العواطف واندفَاع جديٌّ لتَحريرهَا.

ستون يومًا.. أمضَيتهَا في التفكير بالغريب "بان" بَعد أن بتُّ أتساءل السبب الذي جَعله ينقذني من ألسنة اللّهب وسُموم الدّخان؛ إلى أن جَاء اليوم الفصل الذي كنتُ أنتظرهُ على أحرّ من "اللّافا" والجَمر..

طرقٌ خَفيف على باب الشّقّة الخشبي تلاه اتصَال هاتفيّ في جوّال الآنسة "لوكا". أجَابت على المكالمة كمُستمعة لا كمُتكلمة؛ لحظات من التَّرقب والانتظار انتهت بغلقهَا للخط مبتسمة في وجهي مُسترسلة في الكلام:

((مفاجأة!.. لقد قدم "بان".. قدم "بان"))

خَمدتْ نار الشوق في قلبي واحتلَّ مكانها شُعور الخوف والفَرح، شَفتاي ترتجفان على غير العادة، وعيناي تذرفان كُرات الدّمع وترصُدان الحبّ والسّعادة.. تَقدّمت "لوكا" من باب الشّقّة وفتحته بلهفة تجاوزتْ لهفتي، دَخل الغريب صَاحب القبّعة الرياضيّة أولًا، ثم تَلاه رجلٌ طويلٌ يَرتدي لحافًا أسود أخفَى مَعالم جسده، وقبعة كَلاسيكيّة كبيرة تعمَّد استخدَامها لحجبِ تَفاصيل وَجهه، كَان ماسكًا بسلسلة حديديّة موصولة بكَمامة جلديّة ثُبّتت أطرافُها على فكّي كَلب أبيض مَفتول العضلات قَصير الأرجُل قَليل الشعْر وكَبير الأنف، يَحملُ بُقعةً سوداَء كَبيرة على نِصف

وَجهه. تَراجعتُ إلى الخلف واختبأتُ ورَاء السيّدة العجوز؛ ولكنَّ "لوكَا" طمأنتني قائلة:

((هذا هو كَلب "بول ترير".. الفَصيلة المـُفضّلة لدى سَاحرنَا "بان".. يَستخدمهُ عادة من أجل المرور الآمن عبر هذا الحيّ الخَطير.. فهو غير مُرحب به هنا.. خُصوصًا بعد أن أبرحَ ضربًا قبل سنوات أحَد الشُبَّان الذين تَهجموا عليه من أجل سَرقة حَقيبته المضغوطة بالأموال...))

قاطعهَا "بان" لحظة جُلوسه على الأريكة وكَشفه عن وجهه:

((لا داعيَ للدُّخول في التَّفاصيل...))

سَحبني إليه وأجلَسني بجانبه ثم تَابع كَلامه قائلًا:

((صَغيرتي.. الكمامة الجلديّة تمنع الكَلب من أذيتك.. يمكنكِ التّصرف على طبيعتك في هذه الشقّة المتواضعة))

شَعرت بنوع من الارتياح وأنا أجلس بجانبه، رَفعتُ رأسي لأتفحصَ وجهه فوجدتُ الضمَّادات الطبيّة قد لُفتْ على جانبه الأيمن، تَأثّرتُ بذلك فانطلق الدّمعُ مُعلنًا بكائي حُزنًا وحسرة كوني السببَ في فقدانه نور وَجهه وضَياع جَماله.

فرقَع "بان" أصَابع يده الشّمال على ركبتِه؛ ثم افتَتَح باب الحديث:

((سوزان حطَّاب".. الطّفلة المُدلّلة للصحفيّة الأردنيّة "إلين سليم" التي أزمعتْ على العودة إلى حضن وطنهَا بعد تهديدات بالتَّصفيّة الجسديّة، والتي وصلتهَا فترة إقامتها بـ"كندا" واستمرَّت حتَّى بعد سفرهَا إلى الولايات المتَّحدة؛ تَهديدات تَبنّتهَا إحدى مُنظّمات القَتلة المأجورين النَشطة على شبكة "الويب المظلم" والتي لها عَلاقة بالموقع الإلكتروني التَّعذيبي "الغرفة الحمراء" الواقع في العاصمة "بانكوك".. لا أعلم إن كَانت والدتك قد أفصحَت أمَامك عن هذا الأمر.. ولكنّ واجبي يحتّم عليّ إطلاعكِ على الحقيقة))

يبدو أنّي قَد تلقّيتُ للتّوّ جُرعة زائدة من المفَاجآت، فَتحتْ أمَام عينيّ عدّة تَساؤُلات لم أتوانَ في طرحهَا عليه، حيث شخصت فيه قائلةً:

((سيّدي..لم تُخبرني والدتي قطّ بأية مَعلومة من التي أضفتهَا الحين.. ولكنّي تفطّنتُ قبل مدّة بكونهَا تَتعرّض للابتزاز من طَرف مَجهولين.. أرجوك أخبِرني من تَكون.. أين والدتي الآن؟.. لمَ أنقذتَني وعرّضت حَياتك لخطر الموت؟ هيَّا أجبني))

ما كدتُ أُنهي تَساؤلاتي حتَّى اجتَاحتني هستيريا من البُكاء والنُّواح اعتصَرت فؤادي وقطعتْ أنفاسي أخذتْ على أثرهَا بلاطات الأرضيّة بالتّراقص تحت قدميّ، أمَّا الجدران فبدأتْ تَنحني أمام عينيّ؛ فَلم تمضِ سوى ثوانٍ معدودة حتَّى أُغشي عليّ.

***

فَتحتُ عينيّ عَلى هَمسات الآنسة "لوكا" وهي تَطْمَئِنُّ على صِحّتي؛ فَقد أخبرتني بأنّي بخير وأنَّ الدّوار الذي أصابني ناجم عن استقبَالي لكم متراكم من الحقائق دُفعة واحدة.. طلبت منّي المداولة على الشَهيق والزفير حتَّى أتجاوز القلق الذي خَلد في قلبي؛ أمَّا "بان" فسَاعدني على الجلوس بعد أن نَصحني بشرب كَأس من عصير "الكيوي" قبل استرسَالنا في الحديث.

دقائق معدودة كانت كافية لاستعَادتي أنفاسي مُجدّدًا ودخولي لغمار الحديث الذي افتتحهُ السيّد "بان" بموضوع حسَّاس يروي الظّهور الأوّل لهؤلاء المجرمين في حياة والدتي "إلين" حيث قائل:

((كَانت تَربطني مع والدتكِ قبل مدّة علاقة صَداقة نمت روابطهَا بين جُدران "الويب المظلم"؛ حَيث تعرفنَا هناك باسمين مُستعارين وتسَامرنا كثيرًا في أحد مَواقع الدردشة السريّة.. كَانت

تُطلق على نَفسها الآنسة "فيرجينيَا" وتدّعي أنّها شابة يهوديّة الأصل تَعيش في بلاد اللّه الواسعة.. فَقد أبَت أن تَكشف لي هُويتها الحقيقية أو أن تُطلعني على مقرّ إقامتهَا إلا بَعد أن نلتقي وجهًا لوجه.. قد أكون غبيًّا إن أخبرتكِ بأنّي وقعتُ في حُبّهَا.. لهذا لم أجد من مَانع في لقائهَا ولمَ لا مُصارحتها بمشَاعري ونيّتي في اختيارها كشَريكة لحياتي.. ذَات يوم وبَعد أخذٍ وردّ في الكَلام اتفقنَا على اللّقاء في مدينة "شيكاغو" وتحديدًا في أحد المطَاعم التَايلانديّة.. أخبرتني بأنها ستحجزُ الطاولة التاسعَة في الرُدهة.. استجَبتُ لمطالبهَا وسافرتُ من مدينة "سان فرانسيسكو" مَقر إقامتي نَحو "شيكاغو" المكان المـُزمع لنَا أن نلتقي فيه...))

توقفَ عن الحديث وأخذَ يختلي مع نَفسه بكلام مُبهمٍ، تَأكّدتُ بعدهَا أنّه مُتردّدٌ في المتابعة؛ ولكنّ الآنسة "لوكا" شجّعتهُ على المواصلة بَعدما وضعت كَفَّ يدها أعلى ظهره وأخذت تُدلّكهُ قائلة:

((جميعنَا ينتظرك لتُفصحَ عن السّرّ الذي أثقل كاهلكَ منذ زَمن.. أنت رئيسنَا ونحن عائلتك.. كَما أنَّ هذه فُرصتكَ للفظِ أحزانك بعيدًا عن جَسدك الموجُوع))

كانت "لوكا" مُحاورة جيّدة؛ فقَد نجَحت خلال لحظات من إرساء سفينة السَّكينة في ميناءِ "بان" الذي لم يَجد من مَانع للاسترسال في طَرح أسراره الغامضة؛ التي جَعلت من رفاقه يُنادونه بلقبِ "رجل بلا ماضٍ"..

((ارتديتُ مِعطفي الأسود الطَّويل فوق بذلة كَلاسيكيّة سَوداء.. أزاحَ ظلامها ربطَة عُنق حَمراء اخترتهَا بعناية.. بدَت كالفوانيسِ الزيتيّة يدويّة الصُّنع التي يَحملهَا غِلمَانُ جرٍّ العَرباتِ في العُصورُ الوسطَى.. كَان الجوّ غائمًا وينذر بهُطول الأمطار.. لذا أسرعتُ بالمضيّ إلى المطعم مُبكرًا عَسى أن أحفظَ إطلالتي الأنِيقة من دُموع المـُزن.. دقائقُ فقط من الانتظار كَانت كافيّة لوصولها إلى الطاولة.. لقَد ارتدت نفسَ الألوان التي اخترتهَا لموعِدنَا وكأنّهَا تقرأ أفكَاري.. كُنَّا كطائريّ حبّ التقيا سويعَات وافترقَا لسنَوات.. بعدَ الخطأ الجسيم الذي قدَّرهُ الزمَن وثبّته المكَان))

شددتُ على فُستاني الأبيضَ بقبضتيّ وصِحتُ فيه قائلةً:

((عن أي خَطأ تتحدث؟ ماذا حَصل لحظتهَا!))

أجَابني والشجَنُ يُغرق عينيه في دموعٍ لا خَلاص له منهَا...

((ظننتُ أنَّ لقاءنا غراميّ بحت كَما وعدتني.. كُنتُ أنتظر منهَا موعداً للحب ففاجأتني بجَلسة للعمَل.. بل وزادتْ الطين بلّه حين وضَعت كفَّ يدها مابين ساقيّ مُلقية بكِيس بلاستيكيّ يحمُل مبلغًا مُحترمًا من المال.. تَعمّدت إخفاءه تحت الطَّاولة تداركًا لأعين الفضوليين))

((تابع أرجوك.. ما طبيعة العمل الذي جمعكُمَا؟))

((قبل أن ندخل في تَفاصيل العمل.. ظَهرت عليهَا عَلامات القلق والاضطراب بعد أن أخذت تشدُّ شعرهَا الأسود إلى الخلف كل هُنيهة.. وتغيّر من ملامح وجهَا بعد كُل كلمة تقولهَا.. كان حَاجباهَا الغليظان المُستويان يخْلقان توتّرًا ويرسمَان جَمالًا.. أمَّا عيناهَا الشاخصتان فأخذت حدقتاهمَا تَتسعَان وتمررَان رسَائل مُبهمة لا تفكُّ شفرتهَا سوى لغة الجَسد...))

استخرج من جيبه سِيجارة يتيمة انكسَرت من شدّ السروَال، وداولَ على لَعقها وجمع التَّبغ بداخلهَا، أصلَحهَا بإتقان ثمَّ فَرقع ولاعتهُ وأشعل رُوحهَا وهو يَقول:

((هكذا هو حَالي.. كهذه السّيجَارة المُنكسرة المحترقة.. انكَسر قلبي مع والدتك واحتَرق جِسمي في سبيل إنقَاذك.. ولم

يبقَ لي من هذه الدنيا سوى الاعتراف بخطئي وتَطبيب الجراح التي لحقَت حالكِ بسببهِ وبسببي...))

قاطعتُه قائلة:

((سببه وسببك.. من تَقصد بكلامك؟ أرجوك لا تتَحدث بالألغاز.. تذكّر أنّي لازلتُ طفلة تطرق أبواب المراَهقة.. وعقلي السَّاذج لن يستوّعب غموض أفكَارك وطريقة كَلامك))

تابع كلامه مُحترمًا وجهة نظري مُسترسلًا يقول:

((بعد أن نَاولتني والدتك كِيس المال أخبرتني بأن أحمِي ظهرهَا حتّى تسافر إلى بلدهَا الأردن في أقرب الآجَال؛ فحَسب كَلامهَا كانت هُناك منظمة سريّة تنشط على نظام «Onion Routing» تَنوي قتلهَا بسبب شَخص قد تعرّفت عليه في "كندا" يُدعى "قيصر رزقي".. وبمَا أنّ نَشاطي على الويب المظلم مُقتصر على حِمايتي لبعض الزَّبائن مُقابل مبالغ ماليّة بِعملة "البيتكوين" أو عن طَريق التسليم المبَاشر بالدولار.. فقَد وَجدتْ "إيلين" الأمل في خَدماتي بعد أن أوهمتني بالحبِ وسقتني بالخذلان))

((قيصر رزقي"... لقَد مرَّ هذا الاسم على مَسامعي من قبل.. تُرى ما حِكايته! وما طَبيعة عملكَ الحقيقي؟ ألم تَكن عضوًا في كَنيسة الشيطان الأمريكية؟))

أجَابني ساحبًا آخر ما تَبقى من رُوح السّيجَارة..

((فكرة انضمَامي إلى كَنيسة الشيطان جَاءت بعد اكتشَافي أنَّ أغلب روادِها من الشّخصيّات القويّة في البلاد.. فَتمركزي هناك سَيزيد من مَتانة عَلاقاتي مع رجال الدَّولة والنُّفوذ والمال.. سيُيسِّرُ عليّ عَملي ويحمي ظَهري من كيّد الأعداَء.. بعبَارة أخرى غَايتي كانت مهنيّة أكَثر لا عَقائديّة))

تَسمّرَ الجميع في أمَاكنهم بعد اعترَاف "بان" الذي يُعتبر اختراقًا صريحًا لبنود هذه الطائفة؛ أمَّا أنا فَدعوته للمتابعة حتَّى تَتجلّى خُيوط النّور من عَتمة الظّلام؛ فَراح يقول:

((أمَّا "قيصر" فَكان طَبّاخًا جزائريًّا مغتربًا بكندا.. التقَى بوالدتكِ أوّل ما وطَأت قدماه تُراب القارة الأمريكية؛ حَيث قدّمت له النُّصح والمعونة وناولته بريدَها الإلكتروني ليتَواصل معهَا عند اللُّزُوم.. وحَسب ما جَاء على لسَان "إلين" فَرفيقها "قيصر" كَان شابًّا فضوليًّا لدرجة سَاذَجة جَعلته يخُوض تجربة أليمة مع مُنظمة خاصة بالقتلة المأجورين تَنشط على الويب المظلم؛ فَقد

تحوّلَ من صيّاد إلى فريسة بَعد أن أقدم على خُطوة مَجنونة غَايتهَا البحثُ في صِحة أعمَال هذه المنظَمة من عدمهَا.. ليقَع في الأخير ضحيّة لهم بعد سِلسلة من الأحدَاث الغَامضة التي لخّصَها في رسَالة طويلة أرسلها إلى بريد "إيلين" الإلكتروني قَبل أن يتم قَتله طعنًا وحرقًا أثنَاء مغادرته "تايلاند"))

((قُتلْ!...وهل العصَابة التي أزهقَت روحه هي نَفسها من تَعرضت لـ"إيلين" مؤخرًا وحَاولت تَصفيتهَا؟))

تَساءلت "لوكا" مُحتارة من غرابة هذه الحكاية؛ فأجَابها "بان" قائلًا:

((بالطّبع.. فرسَالة "قيصر" التي بَعثها إلى "إيلين" رافقتهَا قصة طويلة تَروي ما حَصل له بالتّفصيل مع هذه المنظّمة.. ابتداءً من مَحطّته الأولى في "كندا" وصولًا إلى مقبرته في "بانكوك".. لقَد ورّطتْ "إلين" نَفسها مع هَذه النُّخبة من المجرمين بَعد أن أزمعتْ على تَحقيق طَلب صديقهَا "قيصر" والمتمثِل في نشر قصّته على الصحيفة الكنديّة التي تَعمل مُحرّرة فيها؛ الأمر الذي أغَاظ العصابة وجَعلهم يحوّلون أنظارهم نحوهَا حتَّى يمنعوهَا من نَشر هذه الحقَائق التي قد تَستهدف نشاطاتهم

مستقبلًا.. وقد سَهر على إيقافها شَخصيًّا زعيم المنظَّمة المدعو "بيل الأرنب"))

عزَفَ عن الحديث للحَظات، ثم استقَام على ساقيه وتقدَّم صَوب النافذة، فتحَ دفّتيهَا واتّكأ على حَافتهَا مُتابعًا ما كان يقوله:

((بَعد أن أدّت "إيلين" واجِب العزاء لأهل الفقيد في الجزائر قرَّرت العودة ونشر حِكايته في الجريدة التي تَعمل فيها بأسرَع وقت ممكن؛ فلم تتوانَ في إعلان طَلب للتَّواصل مع مُدقق لغويّ يساعدهَا على تَصويب ما لحق القِصة من أخطاء نحويّة تؤثر على فَحوى النص وسمعتها كَصحفيّة.. وبمَا أنَّ جُلَّ تحركاتها مُتابعة من طَرف رجال "بيل" فَقد تلقت في ظرف وَجيز ردًّا بالقبول من طَرف شاب بارع في لغة الضَّاد.. لم يكن هذا الأخير سوى تابعًا وفيًّا من أتباع "الأرنب" الذي استطَاع في أوّل مهمة له السطو على حَاسوبهَا الشّخصي.. وسَحب جُلَّ بياناته لكَبح خطّتهَا في نشر القصّة؛ ولكنّها كانت أذكى منهم.. بعد أن احتفَظت بنسخة منها على قرص «DVD» قامَت بنشرهَا في كتَاب يدعى "شياطين بانكوك[1]" باسم كاتبٍ وهميّ قبل أن تُغادر "كندا".. لقَد

[1] رواية من نوع أدب الجريمة للكاتب عبد الرّزاق طواهرية، تناولت موضوع الغرفة الحمراء.

زاد عِنادهَا من تعنُّت العصابة التي لم تهدأ حتَّى اختَطفتهَا وابنتهَا.. ثم فصلتهمَا عن بَعضهمَا في فترة وجيزة))

ومضَ اسم "الأرنب" في ذَاكرتي بمجرّد أن نَطقه السيّد "بان"، فَرُحتُ أعتَصر دماغي وأسحبُ ما ترسّبَ فيه من أفكار وأحدَاث؛ حتَّى وُفّقتُ أخيرًا في تَذكّر أمر هامٍّ كُنت قد عَايشته قُبيلَ حَادث اختطافنا؛ ألا وهي الرسَالة المـُبهمة التي دُسّت في حَاسوب والدتي باسم "بيل الأرنب".. الحاسوبُ الذي سُرقَ أمام ناظريّ قبل فترة من الزمن... أيعقل.. أيعقل أن يَكون السارق هو نفسه الشَخص صاحب معطفِ "الكشمير" الذي أعاده لنا لمـَّا زارنَا في "شيكاغو" مُهدّدًا والدتي !

يبدو أنّي نَجحت أخيرًا في جَمع الحلقات المفقودة لهذه القصّة المحيّرة التي أخفَتها عنّي والدتي وحَرمتني من حشر أنفي بين ثناياها.. هَا أنا الآن أكتشف أسرارهَا الغَامضة وأزيح اللّثام عَن شخصيّاتهَا. كان هذا سببًا قويًّا دَفعني إلى طرح أهم سؤال حملته هذه الجلسة.. أخذت نفسًا عميقًا وأطلقتُ صَقر السُّؤال لاصطياد الإجَابة قائلة:

((سيد "بان".. بَعد أن علمنَا ماهية الخطأ الذي ارتكبهُ "قيصر".. ألا يحقُ لنَا الآن التّعرف على طَبيعة الجُرم الذي اقترفتهُ أنتَ في حقّ والدتي؟))

ابتلَع ريقه بصُعوبة وكأنه يَسحبُ ثمرة تفاح لا سائلَ اللّعاب، أغلَق النافذة التي كان يَستند إليهَا واسترسل قائلًا:

((رغم كون الاعتراف بالذّنب شيئا مُحرجا ومؤُثرا.. إلا أنَّ إخفاء الحقيقة بات أمرًا لا يُطاق.. بدأ الشيطان يَتلاعب بخيوط عقلي بعد أنَّ أقرّت والدتك شعورهَا بالانجذاب نحو شَخصية "قيصر" رغم فَارق السنّ الكبير بينهمَا.. فَضلًا عن هذا فقد لحقت بها عدّة أشهر باسم الحب ثم فَاجأتني برغبتهَا في استخدَامي كَدرع بشري يحمي ظَهرهَا مقابل مَبلغ من المال.. لا أنفي أنَّ هذا عَملي الذي اخترته بنفسي؛ ولكن كَان عليهَا قول الحقيقة قَبل وقوعي في حُبّها.. فالمشاعر خدّاعة.. تظهر فجأة وتأبى الزوال.. فتقهر الرجال قبل النّساء...))

سَكتَ للحظات حتَّى تجلَّى صَوت السكون، ثم تَابع كلامه:

((... لم أقوَ على إقناع نَفسي بنسيانها إلَّا بإزماعي على أذيّتهَا؛ فبعد أخذٍ وردٍّ بين قلبي وعقلي غَلبني شيطاني ورَسم في ذهني خطّة الانتقام التي زارتني أفكارهَا حين أطلعتني والدتك

عَلى البريد الإلكتروني الذي تتَواصل عبره مع هذه العصَابة.. وقتهَا قمت بتَدوينه في مُذكرة هاتفي ودَأبت على مُراسلتهم بين الحين والآخر لأفيدهم بخُطط "إيلين" المـُسطَّرة وأوقات تنفيذهَا.. ثمَّ تماديتُ كثيرًا بعد أن سَرقت مفتاح شقّتهَا وصَنعت نسخة منه في ظَرف وَجيز.. وأعَدت الأصليّ إلى حَقيبتهَا اليدويّة بعد أن عَزمتهَا على فنجَان قَهوة))

ابتلعتُ لساني دَهشة ممَ سمعته للتّو، أمَّا "لوكا" فنابتني في السؤال قائلة:

((كَيف فكرّتَ في فعل هذا؟ أكنتَ تنوي مُساعدتهم على قتلهَا وابنتهَا داخل شقّتهَا؟))

((بالطبع لا.. لقَد سَهلّت عليهم الطريق للوصُول إلى شقّتهَا فترة غيابها حتَّى يَتسنى لهم زَرع كاميرا مُراقبة صَغيرة في أحد أركانهَا لاستخدَامها في نشر الألاعيب النفسيّة وإفقَاد الأم اتّزانها ورصَانتهَا في التَّعامل مع الأحداث القادمَة.. وكَانت هذه آخر مُهمة لي معهم قبل أن أهجُر هذه القَضيّة نهائيًا))

بَعد انتقامه القَذر.. وجُرمه الذي لا يَقبل أيّ عذر، أيقنتُ أخيرًا سرّ نَجاحهم في التقَاط صُور حيّة من داخل شقّتي تُظهر طريقتي العفويّة في قَضمي قطعة الخبز التي أثارت نُفوسهم الضعيفة

وطَرقت رُؤوسهم الخاويّة بفكرة تحويلي إلى منظمة "بيدوفيليا العذراء" مُقابل عَائد ماديّ مُغرٍ.. لهذا لم يَقتلوننا رغم قدرتهم على إنهاء اللّعبة مُبكرًا؛ بل فضَّلوا الاستفادة منَّا في بلاد العمٍّ سَام.. لقد كنتُ ووالدتي كَقطعتي لحم تنضجان على مَهل فوق نار العذاب ولحيف الموت..

***

*"لقد كانت هذه آخر جلسة علاجيّة جَمعتنِي مع الصّغّيرة، لَقد حَصَّلتُ معلومَات كثيرة عن ماضيهَا الأسود.. أخيرًا اتَّضحَت الرؤية".*

*الطبيب "توم مالكوم"*

## الفَصل الحادي عشر: "كوميت بِنج بُونج"!

## الناحية الغربية من"شيكاغو".. الاثنين ٠٦ مارس ٢٠١٧

*"بان" يَروي ما حَصل بعد آخر جَلسة للتّنويم الإيحائي.*

((... "سوزان"... سَأعدُّ تنازليًّا بدءًا من الرّقم ثلاثة.. وبإنهائي العدّ سَتستفيقين من الجلسة العلاجيّة التّاسعة))

أومأتْ برأسهَا تعبيرًا منهَا على الاستجابة ليَسترسل "مالكوم" في مخاطبتهَا بصَوت عَميق هادئ يبعُث على الكرى.

((ثلاثة.. تَشعرين برَاحَة وانسجَام.. اثنَان.. هَجرك التَّثاؤب وترَكك النّعاس.. واحد.. افتَحي عَينيك واطردي الوَهن))

أنهى كَلامه مُصفّقًا بيَديه الغَليظتين لتَستيقظ "سوزان" من بَحر الذكريَات الذي كَانت تَسبح في أعمَاقه بعد أن سَردتْ لنَا ما يَحمله جَوفه من حَقائق لفظهَا قلبهَا بعد أن أنكرهَا عقلهَا.

كنتُ أذرفُ الدّموع على الوَرقة الأخيرة التي كتبتُهَا في آخرة جَلسة علاجيّة أذعنَتْ لها صغيرتي "سوزان"؛ فبعد أن أضحتْ زيارتنَا إلى هذه العيادة شبه دوريّة واعتياد "سوزان" على

الخضوع لما تُمليهِ عليها أوامر الطبيب "مالكوم" استَطعت في هذه الفترة مَعرفة ما جَرى تحديداً داخل مُنظمة "بيدوفيليا العذراء"، ومَا تعرَّضت له "سوزان" ورفيقَتها بين جُدران "مَعبد الشيطان"؛ اكتشفتُ حقًا أن عَالم الويب المظلم لَيس مُجرّد مواقع مخفيّة تَسعى لنَشر الجريمة المنظَّمة؛ بل عَالم أسود يتعدَّى كَونه كابوسًا لا يَرحم لا صغيراً ولا كبيراً.. أبيضَ ولا أسودَ.. دينيًّا ولا مُلحداً.. عَالم يقود إلى اللاَّ عودة.. تَماماً كالثّقب الأسود إذا ما سَحب فرداً إلى جوفه.. أفقَده اتزانه.. شَخصيته.. أعَضاءه ثمَّ سَحبَ حَياته.

لَملَمتُ تلك الأوراق المُبعثرة ووَضعتها في حَافظة شفّافة بعد أن سَكنتْ جَوف الدُّرج لأشهر؛ كمَا لم أنسَ القُصَاصات التّي دَوَّن عليها الطبيب "مالكوم" ملاحظاته لحالة الطفلة بَعدَ كل جلسة علاجيّة، ها قد آن الأوان لحَملها وتنقِيحها وإعادة صِياغتها وحِفظها لاستخدامها إذا مَا اقتضى الأمر ذلك؛ على الأقل لن أنْشُر ما دوّنتهُ في كتَاب.. لن أعرِّض حَياتي وحياتها للخَطر مجدّداً كَما فعلت أمها من قَبل.. يكفي"سوزان" أنَّ والدهَا ميّتٌ منذ فترة، وعَائلة جَدّها التي تمكثُ في الأردن لا علمَ لهَا بما لحقهَا؛ لذا سَأكون أنا السّند القويّ لهذه الطفلة الثائرة، سَأصوّب أخطائي وأعالج جراحهَا النفسيّة والجسديّة، سَأعيد إدخَالها في الحياة

الاجتماعيّة وأضعهَا مَوضع ابنتي البيولوجيّة. حينهَا يمكنني التَّكفير عن ذنبي والموت راضٍ بما أقرّهُ القدر.

بينمَا أختلي بنَفسي واضعًا نهاية القَلم بين أسناني الأماميّة، دَنا منّي الطبيب "مالكوم" وهمس في أذني قائلًا:

((أعدهَا إلى المنزل حَالًا.. واحرصْ على تناولها الأدويّة التي وصفتها لها قَبل شَهر.. لأدخل معهَا في العِلاج النهائي.. أمَّا أنت فأودّ مُقابلتك اللّيلة قبل بزوغ فجر الغد في مَتجري))

أمسكتُ يد "سوزان" وانطلقنا سويًّا إلى الشّارع المقَابل، ألقت نَظرة خاطفة تَحت معطفي الطويل واستفسَرت سرّ تلك الأوراق التي جَمعتها في الجيب الدَّاخلي لئلّا يَلحقها بُكَاء أمطار الرّبيع التي أخَذت تَتساقط بمُجرد نزولي إلى سَاحة مدينة "نابرفيل"؛ فأخبرتُهَا الحقيقة بمَا أنهَا بلغت من الذَّكاء والتَّجربة ما يضعُهَا في منازل الراشدين. كبحتْ خطواتها على مَهل ثم تَوقفت قائلة:

((أيعقل أنَّك علمتَ بما عزفتُ عن إخبارِكَ عنه؟))

كنتُ قد فضّلتُ الصمتْ؛ أمَّا هي فواصلت طرحهَا قائلة:

((كنتُ أظنُّ أن نَتائج الجلسات العلاجيّة تكشفُ بعضًا من مَحطّاتِ حياتي بشكل سطحي.. لا تفصيليّ مثلمَا أبلغتَني عنه

الحين، ولكن لا بأس بذلك فقد استأنستُ وجُودك في حياتي رغم الخطأ الجسِيم الذي اقترفتَه بمدّك يد العون لرجالِ "بيل" انتقامًا على تَلاعب والدتي بمشاعرك.. سيد "بان" سَنطوي صَفحة الماضي معًا.. فلا تعرض عنّي أرجوك))

كَلماتٌ واثقة وحكيمة انفلتتْ من لسَان "سوزان" لحظة حديثهَا معي ما يُظهر إدراكها خطورة الوضع وسعيهَا للاحتمَاء خلف ظَهري؛ خُصوصًا بعد تجنّبي تَسليمهَا لرجال الأمن كَمجرمة صَغيرة قتلت صديقتهَا تحت تأثير المخدّر. لقد بدأت تعتاد عليّ كأب لا كغريب ظهَرَ في حياتها فجأة ليختفي على حين غرّة.

مررنا على مطعم مجاور اقتنينا منه بعض الأطعمة الخفيفة،ثمَّ انتقلنا صوبَ مقر إقامتنا. تركتهَا مع عشائهَا السّاخن وخرجتُ مُهرولًا بعد أن أمرتهَا بأخذ دوائهَا بعد الأكل ونصحتُهَا بالنّوم دون انتظار عودتي كوني سأطيل المكوث في الخارج التزامًا منّي بموعد هام.. موعد مع "البطريق"

التحقتُ مُسرعًا بمتّجر "مالكوم" لألعاب الفيديو في أوّل زيارة له بعد تغيير موقعه، ومن حسن حظّي أنّي أصبت عينَ المكان رغم تأخّري عن الموعد. كانت الناحية الغربية من "شيكاغو" موحشة مع احتدام ظلام اللّيل؛ فبنات الهوى يتنقلن بين تجمّعات

الرجال علّهنَّ يقتنصنَ جيوب أحد المـُطَلَّقِين مقابل ليلة ساخنة في أحد الفنادق المجاورة، كان هنا أيضًا أفارقة أمريكيّون يتلصصون على الغرباء من المارّة طمعًا في استدراجهم للعب القمار في الصالة المحاذيّة لمتجر "مالكوم"؛ المتجر الذي ظهر أكثر جمالًا من عيادته الطبيّة العتيقة، لقد كانت اللّوحات الإلكترونيّة تحتلّ مساحات باب المدخل الزجاجي، وتلمّعُ بأسماء شركات عالميّة مُنتجة لألعاب الفيديو.

ترجّلتُ من سيارتي واتجهت مُطلقًا خُطاي صوب المحل؛ توقفتُ للحظات للتّأكد من العنوان الذي حمل اسم: "إلينويز نينتندو" ثمَّ دلفت إلى الداخل، كان المحل عبارة عن قاعة كبيرة تبدو كرواق طويل اصطفت على جانبيهَا ماكينات ضخمة لألعاب الـ «Pinball» بمختلف إصداراتها؛ أما الجدران الأماميّة فُرفعت أعلاها صناديق زجاجية كبيرة ضمّت مختلف الألعاب الإلكترونية اليابانيّة التي أزهرت في طفولة الأجيال الماضيّة. ما إن لحقت بنهاية القاعة المـُكتظّة عن آخرهَا حتَّى قابلني صديقي "مالكوم" بلباس رياضيّ رماديّ يخالف تمامًا هيئته كطبيب، ابتسم لي وقال:

((مرحبًا بك أيهَا الزّبون.. أتريد تجريب أحد الألعاب القديمة؟ أم أنّك تنوي خلق لعبة جديدة تسير وفق قوانينك الخاصة؟))

فهمت المقصود من كلامه وتلميحاته؛ فأشرت له بإصبعي إلى بعض المراهقين المـُلتفّين حول «Cosplayer» يجسّدُ شخصيّة أنمي.. ثمَّ أردفتُ قائلًا بأسلوب هزليّ:

((ماذا لو شاركناهم التقاط الصّور مع هذا المـُتنكّر؟ أكنتَ جديًّا حقًا باستدعائي إلى هذا المكان لفتح تحقيق حول مصير "سوزان"))

((بالطبع لا.. اتبعني إلى الداخل))

وضع مفاتيحَ الصّناديق الزّجاجيّة جانبًا ثمَّ فتح بابًا صغيرًا يقبع خلف مكتبه، أمر أحد أتباعه بمراقبة القاعة وولج إلى الداخل ماسكًا ساعدي بقوّة. كان المكان السفليّ من المحل فسيحًا وباردًا تتمركزُ في منتصفه أريكة رماديّة طويلة تَكفِي ثلاثة أفراد وطاولة خشبيّة عليها قنينة فودكَا زجاجيّة اُستهلكَ نصفهَا؛كانت قد حُشِرتْ بين رزمة من الأوراق والملّفات.. أنار "مالكوم" الفضاء السّفلي من هذا المحل ثمَّ جلس وأقعدني بجانبه مسترسلا في الحديث:

(("بان"... "بان".. "بان".. المعروف بلقب "رجل بلا ماضٍ".. لقد فوجئتُ بتاريخك الأسود مع كنيسة الشيطان.. صراحة لم أكن

لأعلم بذلك لولا اعترافات "سوزان" أثناء الجلسات العلاجيّة الأخيرة.. أخبرني هل أنت بهذا السوء حقًا؟))

تجاهلتُ حديثهُ مطأطئًا رأسي مُتجنّبًا رفعه؛ فكشفُ ماضيَّ الأسود أمام "مالكوم" سيغيّر كثيرًا من نظرته إليّ، لقد كان يعتبرني شخصًا هادئًا تعرّض لحادث حريق في العمل؛ أمَّا الآن فلن أغدو أمامه عن كوني مجرمًا وساحرًا قدّسَ الشّيطان فترة من الزمن ثم تاب إلى بارئِه مرّة أخرى.

تابع "مالكوم" حديثه قائلًا:

((كيف علمت بمكان تواجدهَا في "البرازيل" وتحديدًا في "قاعة الهيكل" المحاذيّة لنهر "غواندو" العظيم؟ استخدمتَ السحر للوصول إلى موقعهَا!))

رفعتُ رأسي وأجبته دون الطَّرفِ إلى عينيه:

((مهما بلغ السحر أشدّه فلن يساعدك على تقفّي أثر أي شخص تنوي البحث عنه.. لقد انضممت إلى كنيسة الشيطان منذ مدّة طويلة.. كنتُ شخصًا يتظاهر بالقسوة ويخفي طيبته بتجنّب الحديث إلى الناس حتَّى نضجتْ شخصيتي كرجل انطوائي يتكلم إلّا قليلًا ولا يصاحب كثيرًا.. لم يكنْ بلوغي رتبة "ساحر" في

كنيسة الشيطان بالأمر الهيّن.. ولكنّي نجحتُ في ذلك واستطعتُ أن أحظَى بدعم رجال السّياسة والمال الذين أمسوا يتزاحمون للاتصال على رقمي من أجل توقّع أحداث يمكن أن تحدثَ لهم مُستقبلًا.. لقد كنتُ أنجح باستمرار في الوصول إلى عقولهم وتغذيتهَا بأفكاري حتَّى أصبحوا يؤمنون تمامًا بقدرتي على قراءة المـُستقبل رُغم ممارستي الحيلة عليهم.. فبلغ بهم الأمر أن أطلقوا عليّ لقب "نوستراداموس الصغير"))

عقّبَ "مالكوم" على كلامي قائلًا:

((نوستراداموس".. المـُنجّمُ الفرنسي الشهير.. تابع حديثك من فضلك))

((ذات يوم وبينمَا أقرأ مُلخصًا من كتاب «Book Of Dead[1]» إذ قطع عنيّ خلوتي تابعٌ من مجموعتي؛ أخبرني بأننا قد تلقّينَا أوامرَ للسفر إلى "البرازيل".. قصد إحباط نشاط مشبوه لأحد الطّوائف المـُتمرّدة من كنيسة الشيطان.. سألتهُ عن طبيعة هذا النشاط فأخبرني بأنه تنصيبٌ لراهبات لم يبلغنَ بعد السّنَّ

[1] نصوص جنائزيّة استخدمَت من طرف قُدماء المصريين لتدوين رحلة المَيت إلى العالم الآخر.

القانوني.. فضلًا عن هذا فالعرض ستتخلله مشاهد دمويّة وتقديم لقرابين بشريّة باسم حامل النور "لوسيفر" الشيطان))

أخذ "مالكوم" قنينة الفودكَا وشرب منهَا حتَّى نفدت ثمَّ قال:

((وما الدّاعي لتدخّلكمْ في شؤونه؟!.. وهل كنتَ تعلمُ بتواجد "سوزان" كضحيّة بينهم؟))

((كان من الضروري كبحُ نشاطهم لأنهم ينسبون أنفسهم لكنيسة الشيطان الأصليّة التي تُعارض اتخاذ قرابينَ بشريّة في طقوسها؛ فهذه التّجمّعات المتمرّدة من طائفة الشّيطان التي تنسبُ نفسها للكنيسة الأم.. قد تتسبّب في خلق أزمة صريحة بيننَا وبين المجتمع المدني.. لذا كان من الواجب دحرهَا في عقر دارهَا.. أمَّا عن "سوزان" فلم أكن أعلم بوجودهَا بينهم؛ بل كنتُ معارضًا فكرة السفر من الوهلة الأولى إلى أن بلَغتنَا معلومَات قويّة المصَادِر؛ أطلعتنَا عن الهويّة الحقيقيّة لبعض الصبايا اللّائي ستُنصّبنَ كراهبات.. وقد فوجئتُ باسم مرَّ على مسامعي من قبل... لقد كان اسم ابنة "إيلين" الصغيرة... "سوزان حطَّاب".. حينهَا علمتُ أنَّ الأمر برمّته ليس مجرد صدفة.. بل رسالة ربَّانيّة تدعوني إلى تخليص الصغيرة من هذا المأزق.. والتَّكفير عن ذنبي بما لحقها ووالدتها بسببي.. فضلًا عن العزوف عن العَمل

لصالح كنيسة الشيطان بَعد أن أبَادتني طقوسها وقلبتني إلى ساحر مُتناقضٍ يقدّسُ الشيطان ولا يعبدُه))

شدَّ "مالكوم" حدود سرواله الرياضي وأخذَ يسحبهَا بقوّة حتَّى سمحَ لبطنه بالبروز ليظهر على شكل قبة كبيرة أو كبيضة طائر الرخّ. فركهُ جيّدًا ثمَّ سألني قائلًا:

((أسفرت نتائج الجلسات العلاجيّة عن حقيقة كون "سوزان" قد تمَّ نقلها إلى البرازيل باستخدام جواز سفر مزيّف يحمل اسم "باميلا".. فيا ترى كيف استطعتْ العودة معها إلى الولايات المتّحدة الأمريكية وأنت في هذا الموقف الشَظِفْ؟))

أجبتهُ رافعًا حاجبيّ راسمًا ابتسامة واثقة:

((استخدمتُ ذات الخطة.. واستعنتُ بأحد معارفِ رفيقتي "لوكا" الذي يعمل في تزوير الوثائق والأختام.. حيث عرضتْ عليه أمر إنجاز جواز سفر مزوّر ثانٍ يخصُّ "سوزان".. فرحّبَّ بالفكرة مقابل ستمائة دُولار أمريكي.. كانت الخطة تقتضي السفر إلى أميركا عبر البرازيل.. ولكنّها تغيّرت في آخر لحظة بعد أن علمنَا بأنَّ الصغيرة قد هُرّبَتْ عبر ذات الطريق بوثائق مزوّرة وإرجاعها من نفس المكان بوثائق مزيّفة أخرى يعتبر مجازفة مُهلكة؛ لذا قرّرنَا تغيّير الوجهة نحو المكسيك أين استقرّينَا هناك لأسبوع

استجمعنا فيه أنفاسنَا واستعددنا لخوض المغامرة الأخيرة دون أية وثائق...))

((ماذا تقصد بكلامك؟))

تساءل "مالكوم" بدهشة العاجز المُحتار؛ لأجيبه بأربع مفردات كانت كافيّة لإشباع فضوله...

((لقد حرقنَا حدود المكسيك))

((أيعقل أنكما سلكتما طريق "تيخوانا" شمال غرب المكسيك ! أي جنون أصابك يا "بان"؟))

أجبته بأريحيّة شخص واثق يعي ما يفعله...

((كانت "تيخوانا" الخيار الأمثل لنجاح عبورنا إلى الولايات المتّحدة.. أمَّا أنا فلم أكن غبيًّا لأقطع مع طفلة صغيرة مسافة ٤٣٠٠ كيلومترًا سيرًا على الأقدام.. فقد استأجرتُ شاحنة مُحترمة صبرَ معنَا سائقهَا العجوز حتَّى أوصلنَا إلى المعبر الحدودي.. مُستخدمًا الحيلة والخبرة لتجنّب سطو قطاع الطرق؛ حيث أبلغ جميع السّيّارات والحافلات التي تسلك الطريق بأن يصطفوا جميعًا في مسار واحد وأن لا يحيدوا عنه حتَّى يشكّلوا قافلة مأهولة الأفراد تمنع اقتراب رجال العصابات))

((ماذا عن والدتها!.. ألم يصلك أيّ خبر عنهَا؟))

نابت دموعي عنّي في الإجابة؛ فعلم "مالكوم" ما تخفيه مُقلتيّ.. قام من مقامه واضعًا كفَّ يده أعلى ظهري وأردف قائلًا:

((إن كانت توفيّتْ.. فمنذ متى؟))

((قبل سفري إلى البرازيل بأيام تلقّيتُ آخر رسالة من "بيل الأرنب" أخبرني فيها بقطع التواصل معهم.. لأن هدفهم قد تحقّق بعد أن انتحرت "إيلين" بتناول جرعة مُفرطة من حبوب الهلوسة))

استمرّت جلستنَا لساعات طويلة انتصف فيها اللّيل ونقص توافد الزائرين إلى المحلّ المـُبهرج بالألوان، وما إن أطلقت شمس الصباح نبالهَا الصّفراء حتَّى عُدت إلى المنزل مُغلقَ العينيّن، رميتُ جسدي على السّرير وأرخيتُ عضلاته استسلامًا للنوم؛ ولكنّ الخطّة التي رسمتهَا مع "مالكوم" بقيت خيوطهَا تتأرجحُ في مساحات عقلي وحرمتني من النوم المريح؛ فبتُّ أتقلّبُ في الفراش ذات اليمين وذات الشّمال حتَّى أوقعتُ بنفسي في أحبُولة النَّوم وأرحت أعضائي من عناء اليوم.

***

تسابقت الأيّام بفضول طمعًا في بلوغ موعد الخطّة المرسومة التي أسفر عنها اجتماعي بصديقي "مالكوم" الذي ورّطته معي في هذه القضيّة، كان هدفنَا الوصول إلى السيّدة "ماما" ووضع حدّ لحياتهَا بطريقة ذكيّة تجعلُ الحادثَ يبدو انتحارًا؛ كنوع من الانتقام إرضاءً للذّات ولأرواح البنات الرّاهبات. عرضَ عليّ حينهَا "مالكوم" إخطار رجال الأمن بالقضيّة ليتم القبض على أفراد عصابة "بيدوفيليا العذراء" والذين سيشون بأنفسهم تحت عجلة التحقيق ويفصحون عن مكان تمركُز الزّعيم "بيل" الذي يتعمَّدُ أسلوب الأرنب في الجبنِ بالاختباء والمراقبة بعد عقده للصّفقات.

قابلتُ طلب "مالكوم" بالرفض جملة وتفصيلًا فالشّرطة الأمريكية لن ترحمنَا أيضًا، وستفتحُ تحقيقَا في القضيّة قد يقودني إلى السجن بتهمة حرق الممتلكات وزهق الأرواح؛ أمَّا "سوزان" فلن تنجو من تهمة قتلها لرفيقتهَا ولو تحت تأثير المخدرات.. لذا خرجنَا بقرار نهائيّ هدفه علاج السّم بالسّم للتّخلص من "ماما" على طريقة رجال العصابات الذين تستعين بهم في قضاء حوائجهَا.

أمضيت فترة قبل تنفيذ الخطة في البحث عن سبيل يوصلني إلى مكان تواجد العجوز "ماما"؛ عدتُ إلى ما تمخّضتْ عنهُ الجلسات العلاجيّة من معلومات حملتهَا الأوراق وتفحصّتُ كلَّ

موضع ذُكر فيه اسمهَا، تمعّنتُ بدقّة في ملامحهَا عبر ما أباحت عنه "سوزان"؛ كما دوّنتُ في قصاصة وصف الأماكن التي سبقَ وأن زارتهَا، وبتردّد منظّم على مكتب "مالكوم" استطاع هذا الأخير التوّصل إلى المكان الذي سبق وأن زارتهُ "سوزان" كرهينة مُختطفة.. لقد كان محلًّا يشبه كثيرًا نظيرهُ المـُثير للجدل «Pizzagate» الذي فُضِحَ بعد كشف "ويكيليكس" لملفاته قبل عدّة سنوات، والمـُتَّهم مديره بدعم شبكة شاذّة تتاجر بالأطفال جنسيًّا بالتواطؤ مع المرشحَة السابقة للانتخابات الأمريكيّة.. السيّدة "هيلاري كلينتون"..

كان الأمر في غاية الخطورة؛ لذا اتصلت على السريع بصديقي "مالكوم" واتفقت معه على اللّقاء في شقّتي هذه المرّة بعد أن أرسلتُ "سوزان" إلى مكتبة الحيّ لتطالع بعض الكتب وتُفسحَ لنا المجال لحديثٍ سرّي لا ينبغي لها سماعهُ، وبمجرد وصول "مالكوم" واستلقائه على أريكة الصالة قمتُ بإعداد كوبين من الشاي الأخضر مُفتتحًا حديثي معه:

((لم أكنْ أتوقّعُ أنَّ المكان الذي حُجزتِ بداخله "سوزان" بعد فصلهَا عن والدتهَا هو نسخة حقيقيّة من محل "كوميت بِنج بونج" الشهير والمعرُوف باسم «Pizzagate[1]»!))

استقام "مالكوم" على ساقيه وخاطبني بجديّة:

((لقد سمعت عن هذا المطعم.. ولكن لم أبحث في أمره من قبل.. أتقصد بكلامك أنَّ مُجرمة الأطفال السيّدة "ماما".. تأثّرت بتلك القضيّة الجنسيّة التي هزّت الرأي العام وأرادت تكرارهَا من خلال مطعم مشابه تمامًا لذلك الواقع في العاصمة الأمريكيّة "واشنطن؟))

((يبدو هذا واضحًا تمامًا.. فبالرّغم من كوني لم أدخل ذلك المكان من قبل إلاَّ أنَّ بعض الزائرين له أخبروني بكونه مطعمًا مثيرًا للشُبهَات.. ولا يُستحبُ نقل الأطفال إليه))

استخرج "مالكوم" نظَّارته الطبيّة من حافظتها البلاستيكيّة واستخدمهَا لتَفحّص ورقة كان قد سحبها من جيب قميصه.. تمعنَّ فيها قليلًا ثم قال:

[1] مطعم بيزا قام بفضحه الإعلامي "أليكس جونز" بعد نشره لمقطع فيديو على "اليوتيب" يتَّهمُ فيه "هيلاري كلينتون" باغتصابها لجملة من الأطفال داخل بهوه، ليُحذَفَ هذا المقطع بعد بلوغه أربعة آلاف مشاهدة لأسباب مجهولة.

((هذا هو عنوان المطعم الذي احتُجزتْ فيه "سوزان" بعد عملية اختطافهَا في "شيكاغو".. لقد دوّنتُ العنوان كما طلبت منّي.. وهذه آخر نقطة استطعتُ بلوغها معك في هذه القضيّة.. كما تعلم فابنتي الجميلة تنتظر قدومي كل ليلة لتتناول عشائهَا معي على سُفرة واحدة.. والتّعمّقُ معك في هذه القضيّة سيُلحقُ الأذى بابنتي قبل أن يمُسَّ شخصي.. و"سوزان" خير شاهدٍ على قولي.. أعذرني يا "بان".. لا يمكنني المواصلة معك أبعد من هذا الحدّ.. تفضّل العنوان.. كُن حذرًا في تصرّفاتك.. بالتوفيق))

اخترقتْ كلمات "مالكوم" أعماق صدري كسهمٍ من سهام حُمر الجلود؛ خصوصًا بعد تفطّني لخطورة الموقف الذي وضعتُ نفسي فيه، لا أحد الآن يحمي ظهري ولا شيء سيقف إلى صفّي سوى خالقي وربّي.. اللّه وحده من يعي حجم الألم الذي دفعني للانتقام.. عزيزتي "ماما" ستواجهين غرابًا أسود أحرقتْ النار جلدهُ وأرهقت الأحزان قلبهُ.. غرابًا خسرَ كل شيء ولم يبقَ له المزيد ليخسرهُ سوى طفلة يتيمة تُدعى "سوزان".. طفلة ستعيد نبضَ الحياة إلى قلبه وتقلبُ ريشهُ الأسود إلى ريش أبيضَ مُشبعٍ بالأمل.

لم أضيع المزيد من الوقت في حديثي مع "مالكوم"، ودّعتُه ثمَّ انطلقتُ شاقًا طريقي إلى ذلك المطعم، كانت السّاعة تُشير إلى

الواحدة بعد الزوال، وهو توقيتٌ مناسب لتناول وجبة غداء مزعومة تحت غطاء التَّجسس والمراقبة، فعلى عكس الكثيرين لم تكن الغاية من دخولي المطعم إشباع عصافير بطني، أو التقاط صورٍ تذكاريّة أشارك بعضهَا مع أصدقائي الوهميّين على "انستغرام".. لقد كانت غايتي الجوهريّة الوصول إلى عجوز النحس "ماما" قبل أن تصلَ إليّ.

ركنتُ السيّارة بعيداً عن أعين الفضوليين، ثمَّ أطلقتُ خطواتٍ ثقيلة نحو البنايّة المقابلة؛ كان نبضُ قلبي يزداد كلّمَا دنوتُ أكثر من الأدراج الأماميّة لباب المحل الذي ظهرَ في هيئة فخمة وكأنّه فُندقٌ صغيرٌ يختبئ خلف ناطحات السّحاب، رفعتُ رأسي ماسحًا المحيط الخارجي بعينيّ مُنبهرًا من اللّمسة المعماريّة البديعة التي غَطّتْ واجهته؛ كانت هناك لافتةٌ بلاستيكيّة عملاقة حوافهَا مُزينّة بمصابيحَ كهربائيّة تنتظر اللّيل لتلمعْ كُتبَ على مُحيطها «Pizza Kids».. عُلّقت بجوارها شاشة إلكترونيّة شاسعة المساحة تعرض إعلانات تجاريّة لهذا المطعم الكبير.

رُسمتْ على وجهي ابتسامة خفيفة بعد إدراكي حقيقة محل "بيزا الأطفال"؛ فتوقّعاتي كانت تصُبُّ في بئر من الحقيقة. قد يبدو العنوان جذّابًا للعائلات المُغفّلة التي تأتي بأطفالها لزيارة هذا المطعم الفاخر؛ ولكن الحقيقة تقول عكس ذلك تمامًا

كونهم يعرضون فلذات أكبادهن كسلعة للممارسات اللَّا أخلاقية دون إدراكٍ منهم لمـَا يقعُ خلفَ الكواليس.

كان المدخلُ الأماميّ مفروشًا بنوع فاخر من السّجّاد الأرجواني يصل بالزائرين إلى مكتب خشبيّ متوسط الحجم تستخدمهُ خادمة فيليبينية مليحة الوجه من أجل منحِ أسورة مطَّاطيّة لكل زبون مُقبل على الغداء. احتضنتْ المساحات السفليّة من المحل معرضًا يضُمّ عددًا من اللّوحات الزيتيّة غامضة الدلالة، لوحات تلطختْ زواياها بألوان داكنة يبدو استخدامهَا عشوائيًا؛ ولكن الحقيقة تكمنُ في كونهَا تخفي رسائل غيبيّة لا يقوى على فهمهَا من دخل المكان من أجل ملءِ البطن وإرواء العطش.. وكي لا أحيد عن هدفي المنوط وضعتُ سوارًا مطَّاطيًّا على ساعدي ثمَّ صعدتُ إلى أعلى مُستخدمًا أدراجًا مصنوعة من أجود ضُروبِ الخشب، وما إن بلغتُ الطابق العلوي حتَّى عقدتْ الدهشة عضلة لساني...

لقد كان مطعمَ الألوان والأحلام؛ فالطّاولات والكراسي التي اصطفتْ بانتظام كجنود الثّكنات صُنعتْ من أجود أنواع الخشب، وزُيّنتْ بأرقى الألوان.. أما الأرضيّة فكانت مفروشة بسجّاد مشابه للّذي يستخدمه زعماء العالم لعقد اللّقاءات وإبرام الصفقات؛ في حين ثُبّتتْ على الجدران الأماميّة لوحات روحانيّة كبيرة تُظهر

أطفالًا ملائكة يرتدون ملابسَ تكشف عوراتهم.. لابد أنَّ مالك المطعم يستخدم الدولارات بدل أوراق المرحاض عند دخوله الحمام؛ فالبذخُ الذي أضحى طابعًا يميّز هذه البنايّة، جعلَ المارّة يرسمون في خيالهم أرقامًا ضخمة تلامس قيمة ثروة هذا المالكِ المجهول.

كنتُ أعي أني سأخرج مُفلسًا من مطعم «Pizza Kids» خلال فترة استقصائي للمعلومات؛ ولكن سحر الأموال لن يقف عائقًا أمام فوضى الانتقام التي هزّت فؤادي. اخترتُ طاولة خاويّة في الركن الأيمن المُحاذي للزّجاج الخارجي قصد توسيع حيز الملاحظة من الداخل ومن الخارج، ومَا إن وضعتُ مُؤخرتي على الكرسي حتَّى انتصبَ النادلُ أمامي كجذعٍ يابسٍ مُقدّمًا لائحة الوجبات المُتاحة لوقت ما بعد الظهيرة، مرّرتُ سبّابتي على القيّم الباهظة للأسعار ثم اخترتُ قُرص "بيزَا" ملكيّة وعُلبة صودَا مع طبق من السلطة اليابانيّة؛ ولكن النّادل رفض طلبي الأوّل مُوضحًا لي بأن "البيزا" لا تقدّم في هذا المحل إلَّا للأطفال، وأضاف قائلًا:

((سيّدي.. إذا رُزقتَ بطفل يومًا ما؛ فيُمكنكَ إحضاره لمطعمنَا الفاخر.. لدينا غُرفة مجاورة لإطعام "البيزا" جُهّزتْ بمُختلف وسائل التسليّة والألعاب.. لا يدخلها سوى الأطفال؛ فنحنُ نؤمن هنا بأن

للصغار الحق أيضًا في تحصيل بعض الخصوصيّة بعيدًا عن صراخ الآباء))

رسمتُ ابتسامة مزيّفة مُدعيًّا الإعجاب بالسياسة الآبِدَة لإدارة المطعم؛ أمَّا في باطني فتفطّنتُ للحيلة الخبيثة التي يستخدمونهَا لفصل الآباء عن أبنائهم بغيّة استغلالهم للاعتداء الجنسيّ وتصويرهم في مشاهد خليعة تُعرضُ على مواقع "البيدوفيليا" بعد إرواء عطشهم بعصائر ومشروبات لذيذة امتزجت سوائلها بمخدّرات كفيلة بأن تنسيهم ما حدث لهم في غرفة "البيزا" والألعاب... لقد اعتمدوا في جُرمهم على الإيقاعات الصاخبة لموسيقى الأغاني الكرتونيّة المُستخدمة كحيلة لكبح ارتداد صراخ الصغار لحظة تعرّضهم للأذى الجنسيّ؛ فهذا ما قيل عن محل "كوميت بِنج بونج" والمعروف بـ:«Pizzagate» ولا أظن أنَّ الأمر سيختلف عن وريثه الجديد: «Pizza Kids».

انتظرتُ ظهور العجوز "ماما" لحظة تناولي طبق السلطة؛ إلا أنَّ ساعة كاملة من الانتظار لم تعطِ ثمارهَا بعد؛ فقرّرتُ الانصراف مُصوّبًا نظري نحو غرفة تحمل بابًا بنفسجيًا كان يرتادها الأطفال من حين لآخر في ظلّ انشغال أوليائهم بتبادل أطراف الحديث تحت أضواء الشموع مُستمتعين بتناول مختلف الأطباق

الفاخرة من الطعام.. متناسين مصير أبنائهم داخل أستوديو الرذيلة والمُحرّمات الـ: «Pizza Kids»!

***

## الفَصل الثاني عشر: رسالةٌ من عالمِ الأموات!

## "شيكاغو".. ليلة الثلاثاء ١٤ مارس ٢٠١٧

أمضيتُ أسبوعًا كاملًا مُرتميًا بين جدران محلِّ "بيزا الأطفال" باحثًا عن خيط من الحقيقة يسحبني إلى جُحر "الأرنب" والـ"ماما"، وكما يقال عن الإرادة بأنَّها تصنع المعجزات؛ فقد وُفّقتُ أخيرًا في الوصول إلى مسعاي مساء يوم أسود حين انطلقتُ إلى المطعم الغلمانيّ واتّخذتُ من الطّاولة التي اعتدّتُ استخدامهَا بُرجًا للمراقبة، كنتُ أنتظرُ نُضجَ وجبتي التي طلبتهَا ملقيا سهام بصري خارج المحل من خلال النّافذة المفتوحة.

داولتُ على استنشاق الهواء النّقيّ لهذه النّاحية غير الصناعيّة من "شيكاغو" مُستسلمًا لأشعّة الشّمس المـُخدِّرة التي طرحتْ بجسدي على الطاولة فور جلوسي على الكرسيّ، فجأة وعلى حين غرّة وقع ما لم يكن في الحسبان.. حينَ رُكِنتْ سيارة سوداء قديمة الطراز من نوع "لينكولن" «Town Car» أمام بناية المطعم.

حدّقتُ جيّدًا في المركبة مستقصيًا هويّة مالكهَا؛ ليخرجَ منهَا سائقٌ شابٌ يرتدي بذلة رياضيّة توحي طبيعة عمله الميداني. فتح باب السيّارة وساعد عجوزًا قصيرة القامة على الخروج؛ وما أن وطأت بقدميها على الأرضيّة المُعبَّدة حتَّى اتّضحت ملامحُ وجههَا للعيان.. ملامحُ سفَّاحة لن يرحمهَا التاريخ ولا الزمان، كنتُ على يقينٍ من كونهَا المختارة التي أبحثُ عنهَا؛ ولكنّي أردت تأكيدًا صريحًا يُطمئن قلبي ويضخُّ العزيمة إلى نفسي، وقد تأكّد الأمر في لحظته حين رحّبَ بقدومهَا حارس الباب الخارجي مناديًا إياها بلقبها الشهير السيّدة "ماما"

كدتُ أجلبُ الشبهات لنفسي بعد أن وقفتُ لا شعوريًا أمام النافذة دافعًا بعنقي إلى الأمام ما جعلَ النادل يرمقني بنظراتٍ مُكرٍ ودهاء، تداركت الأمر ملاطفًا إيّاه بكلمات ساذجة كخطّة لكشط شكّه عن شخصي، حيث قلت:

((أنا من عشّاق هذا النوع من السيّارات القديمة.. لطالمَا أردت امتلاك واحدة مثلهَا فهي تُذكّرني بمركبات رجال العصابات في أفلام "هوليوود"...))

ليرد عليّ بسرعة محاولًا التملّص من محاورتي..

((قد تبدو كالتي يستخدمها رجال العصابات.. ولكنَّ صاحبتها هي مالكة المطعم.. وهي عجوز طيّبة لا تقوى حتَّى على قتل نملة))

أنهى كلامه وانصرف إلى غرفة الأطفال دافعًا بهم إلى آبائهم؛ حيث ظهروا منتشين جدًا وكأن اللّعبة الجنسيّة قد أعجبتهم تحت شعار "كل ممنوع مرغوب"، عُدتُ إلى مقعدي منتظرًا دخولَ غريمتي وما هي إلّا لحظات معدودات حتَّى أطلَّتْ علينَا بلباس مُبهرج الألوان وقصّة شعر صبيانيّة واتتها تمامًا؛ مرّتْ بين الطاولات مُبتسمة مع الزّبائن مداعبة الصغار من الرؤوس والسواعد، مخفيّة صورة الشيطان الذي يتلبّسهَا؛ ثمَّ دخلت غرفة "بيزا الأطفال" رفقة بعضٍ من رجالهَا؛ لأنتظرها بدوري قرابة ربع ساعة مرّت عليّ كقرنٍ من الزمن، وما إن فرغَتْ من اجتماعهَا السريّ حتَّى خرجتْ لتسبقهَا إلى أسفل رائحة عطرهَا المـُركّز الجّذاب.

دفعتُ الفاتورة وانطلقتُ مسرعًا كفارس على أرض الوغى ممتطيا سيّارتي الـ «Chevrolet Blazer» وشَقَقتُ سبِيلي خلف مركبة الـ"ماما" مُتجنّبًا لفتَ الانتباه.. وعلى عكس ما ظننتْ لم تقطع السيّارة مسافة طويلة أثناء السير؛ بل رُكِنَتْ في الشارع المقابل أمام عمارة سكنيّة نصف مأهولة، يبدو كأنها قد اتّخذت

منها سكنًا لإبعاد الشُبهات. ترجّلتْ من السيّارة ودخلت العمارة، اتّبعت أثرهَا بعد انسحابِ رجالها عن المكان. مددتُ ساقيّ على نطاق بصري حتَّى بلغتُ باب المصعدِ لأجده مُتصلّبًا غير شاغرٍ بأحد، استغربتُ عدم استخدامهَا له رغم كبر سنّهَا، وتساءلتُ في نفسي قائلًا:

((أيُعقلُ أن تكون مُقيمة في الطابق الأرضي!))

التفتُ على يميني معاينًا الباب الأول للشّقة الأرضيّة فبدا موصدًا وكأنّهُ لم يُفتحْ لأيام، أدرتُ عُنقي للجهة الأخرى فصُدمتُ بالعجوز "ماما" واقفةً نصب عينيّ ترمُقني بنظراتٍ حادّة تكبّدت سنين طويلة من العمل لتقلبهَا بهذه القسوة والجديّة.. لقد كانت مفاجأة لم أتوقّعُ حدوثَهَا قط؛ فالعرق أخذ يُغرقُني بالرّعب والألم؛ أمَّا حرارتي فارتفعتْ راسمة بُركانًا يغلي بالدّماء بدل "اللّافا" والحمم... هل سينتهي أمري في هذه النقطة من "شيكاغو"؟ هل خسرتُ المعركة قبل بدايتهَا؟ أسئلة كثيرة تزاحمت داخلي لم أجد لها الجواب الشَّافي؛ فالوقت ينحرُ عُنقي والـ "ماما" تكبحُ حرَكتي... فما العمل؟

((نحن نحاكي زمنَ العلم والمنطق.. ومن المؤكد أنَّ كلانا لا يؤمنُ بالصُدف عزيزي.. لقد لمحتُ طيفَكَ في محلّ "البيزا"..

والآن أراك تتبعني إلى شقّتي المتواضعة.. أتنوي المبيت مع عجوز في سن والدتك!.. أم أنَّ للأمر خبابا أخرى أجهلها؟))

وقعتْ كلمات العجوز على رأسي كالحجارة؛ فلا خيار لديّ الآن سوى ممارسة بعضٍ من حيلي. نظرتُ صوب عينيهَا بثقة زائفة وأجبتهَا راسمًا ابتسامة بريئة:

((لقد زرتُ مطعمكِ في عدّة مناسبات.. ولا أُنكرُ إعجابي بفكرته الرائدة في استقطاب الزبائن وعلى رأسهم الأطفال.. كنتُ أبحثُ عن عنوانكِ لأحدثك على انفراد إن كنُتِ تقبلين الشّراكة معي.. فلديّ سلسلة مطاعم فخمة تتوزّعُ على ولاية "إلينوي".. وفكّرتُ في تجسيد فكرتكِ الأصيلة بعد أخذ موافقتك.. كما أنّك ستحصلين على عائد ماديّ مقابل ترخيصك.. فما قولكِ؟))

أطلقتْ ضحكة ساخرة ملأ صداها فضاء العمارة، ثمَّ أردفتْ قائلة:

((كنتَ تستطيع محاورتي لحظة مكوثي في المطعم.. أم أنّك كلبُ أمنٍ من هواة التّطفّل؟ تكذبُ وتناور لتتهرّب.. ستُحاسبُ على سذاجتك اللّيلة قبل الغد.. رجالي أيضًا لا يؤمنون بالصُدف))

ابتلعتُ الرّيقَ حتَّى سُمعَ صدى مروره عبر الحلق، تراجعتُ خطوتين إلى الخلف وانطلقتُ مُهرولًا إلى الخارج؛ لأفاجأ برجليّن قويّين قد أطلقَا خُطاهمَا خلفي بمجرد وقوعي في مجال بصرهما، حينهَا أيقنتُ بأنّي مُقبلٌ على الهلاك بعد أن انقلبتُ من صّيادٍ إلى فريسة. تَردّدِي وحيداً إلى مطعمٍ يفترض أن يكون عائليًّا أوقعني في شراك العصابة التي لم تتوانَ في الالتفاف حولي حتّى تستقصي أمري.

أدركتُ مركبتي قبل أن يصلوا إليّ؛ ثمَّ انطلقتُ مُسرعًا صوبَ شقّتي مُستخدمًا طُرقًا ضيّقة للإفلات منهم، وبمجرد تضييعهم أثري حتّى رفعتُ الهاتف واتصلتُ بصديقي "مالكوم" مُستأذنًا منه أن يستضيفني في بيته اللّيلة بعد أن قصصتُ له آخر ما حدث لي من أحداثٍ.. رحبَّ بالأمر رغم الخوف البادي على نبرة صوته، ثمَّ أغلق الخط فاتحًا الطريق أمامي لاصطحاب "سوزان" من البيت.

وصلتُ شقّتي قبل أن يجنحَ اللّيل، فتحتُ الباب ثمَّ استرسلتُ في البحث عن "سوزان" كي أقنعهَا بمرافقتي إلى منزل طبيبهَا "مالكوم"؛ كانت الصالة على حالها ولا شيء يدعو للشكّ.. رواياتها

المـُفضّلة مُصطفّة على رفوف المكتبة، جهاز "الكاريوكي[1]" مفتوح ما يوحي استخدامهَا له بعد تأخّري في العودة... توجّهتُ صوبَ غرفتهَا فوجدتُهَا مُرتبة ونظيفة.. لم تكن صغيرتي في المرحاض ولا في بهو البيت، داولتُ على الاتصال برقمها فكان مُغلقًا؛ لذا لم يبقَ أمامي سوى تفتيش المطبخ قبل أن أنزل للبحثِ عنهَا في مكتبة الحيّ.

تسابقتْ خطواتي إلى طاولة الأكل؛ جثوتُ على رُكبتيّ محاولًا استقصاء ما إذا كانت "سوزان" مختبئة تحتهَا كما كانت تفعلُ معي دومًا لإخافتي؛ ولكن دون نتيجة، رفعتُ رأسي مُحاولًا الاستقامة فوقعَ نظري على قُصاصة ورقيّة مُعلّقة بمغناطيسٍ على سطح الثّلاجة، قُمتُ بسحبهَا وأنا على يقين بأنَّ لها علاقة باختفاء "سوزان"الغامض، وضعتهَا على الطّاولة ووجّهتُ عينيّ صوبهَا مُتفحصًا ما جاء فيها...

((من كان يعلمُ أنَّ صائدَ الجوائز الشهير "بان سميث".. هو البطلُ المـُنقذُ للصغيرة "سوزان" ابنة "إلين سليم"؟

[1] جهاز يَستخدمُه هواة الموسيقى للغناء على أنغام وكلمات تُعرَضُ على شاشته. وتنتهي بتقيّيم لمستوى أدائهم.

لقد علمتُ للتوّ تورُّطكَ مع رجال "صونيا غارسيا" المـُلقّبة بـ "ماما".. لذا قرّرتُ الاحتفاظ بالصغيرة نيابة عنك..

فكر في طريقة للهروب قبل أن ينالوا منك.. لا تخبر رجال الأمن بما حصل معك فأنت ساحر.. صائدُ جوائز.. ورجل أيضًا..

"سوزان" سعيدة بعودتي من أجلهَا.. أمَّا أنت فتستحقُ حياة كريمة أفضل من التي عِشتُهَا.. سيّد "بان" من يَدري! رُبَّمَا سنلتقي قريبًا... سلام))

قيصر رزقي

***

انتهى بحمد اللّه